كتاب

تاريخ

الامة القبطية

(وكنيستها)

« تأليف [illegible]دة ا . ل . بتشر الانكليزية »

(المجلد الثالث)

ثمن المجلد الواحد عشرة غروش صاغ

« طبع على نفقة صاحب جريدة مصر »

حقوق الطبع محفوظة

(مطبعة مصر بالفجاله سنة ١٩٠٦ أفرنكية)

الفصل الخامس والاربعون

فتح الفاطميين لمصر

سنة ٩٦٤ للمسيح و٦٨٠ للشهداء و٣٠٥ للهجرة

وصل بنا الحديث في الاجزاء الماضية من هذا الكتاب الى ذكر حكم الاخشيد الثاني على مصر . ولما توفي هذا الاخشيد سنة ٩٦٤ و٩٦٥ (٣٥٥ للهجرة) اخلفه الكافور وحكم باسمه في الحال ولكنه لما مات بعد حكمه بسنتين بليت مصر في خلالها بالمجاعة والوباء اخلفه في الحكم الابن الحادي عشر من احفاد الاخشيد وهذا الاخير سولت له نفسه ان يقدم مصر هدية مجانية وغنيمة باردة لجماعة [illegible]ب الفاطميين

وتحرير الخبر ان خليفة الفاطميين المعز لد[illegible]ـه دعا قائده الرومي (جوهر) الذي كان مملوكا له وتربى على الدين الاسلامي (وقد رقاه الى هذه الدرجة لما توسمه فيه من البسالة والاقدام وعلو الهمة) فاوعز اليه ان يجند جيشاً ويقوده بنفسه لفتح البلاد المصرية وقد تم ذلك فعلا وسار جوهر اليها بجيشه الجرار حيث فتح الفسطاط (مصر القديمه) سنة ٩٦٨ - ٩٦٩ للمسيح الموافقه ٣٥٨ هجرية . وقد استقبله الاقباط والاتراك والعرب بكل حفاوة واظهروا له الخضوع التام

ولا عجب اذا كان دخول الفاطميين الى مصر على مثل هذه السهولة وعدم المقاومة لان العنصر المسيحي في البلاد كان يميل وقتئذ بكل جوارحه

[illegible] تغيير الحكام من وقت الى آخر تخلصا من ظلم حكامه السابقين واما العرب والترك فالسبب في عدم مقاومتهم للفاطميين فهو لانهم كانوا قد سئموا من حكم الحاكمين السوداني واليهودي اللذان كانا وقتئذ هما آلالة العاملة في شخص الكافور والمحركة له . ولم يبق بعدئذ امام الفاطميين في ذلك الوقت الا فتح مملكة النوبة ومد فتوحاتهم في مصر من جهة الجنوب لان سلطان النوبة لم يكن قد اعترف بعد بسيادة الحاكم الجديد [illegible]ي كان في اعتقاده مغتصباً على ان القائد جوهر كان يدرك ماوراء ذلك من الصعوبات والعقبات وان فتح بلاد النوبة ليس من الهنات الهينات فكتب كتابا سياسيا الى الملك (جرجس) سلطان النوبة رقيق العبارة يظهر له فيه عاقبة عصيانه وعدم خضوعه ويحسن له اعتناق الدين الاسلامي ودفع ضريبة الرقيق المتأخرة عليه بصفة جزية لحاكم مصر الجديد . وقد ارسل اليه هذا الكتاب على يد ثلاثة من السفراء يرأسهم رجل يدعى عبد الله احمد بن سليم من اهالي اصوان وقد وضع هذا الاخير كتاباً ضمنه سرد اخبار رحلته هذه وما تم فيها وقد تضمن شيئاً كثيرا من الحقائق التاريخية المهمة ولما كانت هذه الحقائق تهم كل من يريد الوقوف على حالة الممالك المسيحية في ذلك العصر فنحن نقتطف منه هنا بعض الشيء نقلا عن ترجمة فرنساوية للمسيو كزمير المؤرخ المعروف :

بعد ان افاض سليم الكلام واسهب البحث في وصف الثوات الاسلاميه في حدود مصر الجنوبية تكلم عن الاقليم الكائن مابين الشلال

الثاني والحصن القائم على مسافة ستة اميال جنوبي اصوان . فقال ان هذا الاقليم تحت سلطة نائب ملك النوبة اوسلطانها وكان يسمح للمسلمين ان يقيموا فيه وقد اطلقت لهم حرية التجارة به . قال وانه لم يكن يوجد فرد بين هؤلاء المسلمين الذين عاشوا مدة طويلة مع المسيحيين يستطيع ان يتكلم اللغة العربية جيدا . وكان هذا الاقليم من الاقطار التي تروي اراضيها بالراحة وكانت تحيط به الكروم

على ان هذا الاقليم وان كان قد تحمل كثيرا من غزوات العرب المتوالية على مصر وتفشي تجارة الرقيق به الا انه مع هذا كله كان معتبرا امام هذا الكاتب انه اقليم سلام وخير كثير ولا يمكن احد من المسلمين او غيرهم ان يتجاوز حدود هذا الاقليم الجنوبية الا بامر من نائب ملك النوبة والا كان عقابه الموت لا محالة

والمرحلة الثانية الكائنة جنوبي هذا الاقليم عبارة عن حصن طبيعي مكون من صخور هائلة وراءها صحراء شاسعة وطرق وعرة يصعب على الانسان ان يطأها بقدمه ومن هذه الجهة يستخرج النوبيون الاحجار الكريمة التي يصنعون منها الحلي والجواهر .

وقد اثنى احمد بن سليم كثيراً على هاتين المملكتين المسيحيتين المعروفتين باسم (مقورة وألوه) الكائنتين في ابتداء الشلال الثالث الى مايليه جنوباً وقد دعي ملك النوبة بملك مقورة نسبة لاسم النصف الجنوبي من مملكته التي عاصمتها (دنقلا) وهي تبعد خمسة عشر يوماً عن اصوان

وقد شهد هذا الرحالة انه كل ماتوغل الانسان في هذه البلاد يري الارض اكثر خصباً والامن اعظم انتشاراً

ومما يحسن ذكره وايراده هنا أيضاً ماقاله سليم في هذا الصدد من انه بعد سفر يومين في داخلية النوبة يمر الانسان على ثلاثين بلد تقريباً فيها الابنية الفخيمة والقصور الجميلة والكنائيس الكبيرة والاديرة العظيمة والحدائق الغناء والرياض الفيحاء والحقول البديعة ترعى فيها الابل والمسافة من دنقلة الى حدود (الوه) اطول كثيراً من حدود اصوان

وفي هذا الاقليم عدة طرق توصل الى سواكن ومصوع وطرق اخرى على شواطئ البحر الاحمر وفي هذه النقطة نفسها ينقسم النيل الى نهرين الابيض والازرق وهما يأتيان من بحيرات عظيمة في بلاد السود ولكنه لم يذكر شيئاً عن تاريخ تلك البحيرات بل قال انه عند نقطة تفرع النيل الى نهرين توجد بلدة تدعي (صوبح) وهي عاصمة مملكة (الوه) وقد بنيت على انقاضها المدينة المعروفة الان في التاريخ الحديث باسم الخرطوم كما سيجيء وقد كانت مدينة صوبح هذه التي هي الان مدينة الخرطوم من المدن العظيمة المزدانة بالقصور الشاهقة والمباني الفخيمة والحدائق الغناء والكنائس الغنية بتحفها ومقتنياتها الذهبية وكان ربع هذه المدينة يأوى اليه المسلمون . وكان ملك الوه هذه التي كانت صوبح (الخرطوم) عاصمة ملكه أشد بأساً واعظم جيشاً من ملك مقروه فضلا عن ان الوه هذه كانت اكثر اتساعا واخصب ارضاً من نقطة مقروه

ولكن مع هذا كله فان الاول كان اقل من الثاني في وفرة النخيل والكروم

واشار بن سليم بعد ذلك في عرض كلامه الى معمل البيرة ورخص اللحوم في تلك البقعة الطيبة وجودة الخيل والابل وذكر ان كل المسيحيين فيها كانوا تابعين لبطريرك البلاد المصرية كاساقفة الحبشة وكتبهم الدينية كانت مكتوبة باللغة اليونانية ولكنهم ترجموها الى لغتهم وكانت حكومتها مطلقة كما كان حال باقي الممالك الشرقية في ذلك العصر فكل مايأمر به الملك كان لابد من تنفيذه اخطأ او اصاب وكان الملك يلبس عادة تاجاً كله من الذهب الخالص لان هذا المعدن كان كثير الوجود في بلادهم وقد كان الاعتقاد بوجود الجن والعفاريت والارواح النجسة من الاعتقادات الكثيرة الانتشار في البلاد السودانية حتى انهم كانوا يوكلون هذه العفاريت والارواح في اعمالهم الزراعية وذكر هذا الرحالة الذي نحن بصدده انه كان من عادتهم ان يذهب الاهالي الى الحقول ويعينون النقط المراد وضع البذار فيها ثم يبذرون بعض التقاوي في زواياها الاربع ويكومون مابقي من البذور في مكان واحد وسط هذه الزوايا ويضعون بجانبها كأساً مملوءاً من الخمر (البيرة) حتى اذا عادوا اليها في الصباح يجدون كوم البذور قد بذر في الارض وكأس الخمر قد شرب كله وكذلك كانوا يفعلون في الحصاد فيحصدون بعض سنابل القمح ويضعون بجانبها كاساً من الخمر ويتركونها الى الصباح فيجدون الكأس قد شرب والقمح محصودا ومدروسا ولكنهم اذا سهى عليهم أن يستأصلوا بعض

جذور الحبوب وتركوها في الارض اثناء الحصاد تؤخذ هذه الجذور بحبوبها ولا يجدون لها أثرا بالمرة في اليوم الثاني وهم يزعمون ان كل ذلك من افعال الجن لان بعض الناس لهم تأثير كبير عليهم فيسخرونهم في هذه الاعمال وهم يرضخون لهم ولا يعصون امرهم (١)

وقد شاهد ابن سليم في بلاد قاصية (بألوه) قوماً ليسوا من المسلمين ولا المسيحيين واغلبهم يعتقدون بوجود أله ولكنهم يؤلهون الشمس والقمر والنجوم وبعضهم النار والبعض الآخر يعبدون بعض الاشجار والحيوانات . قال وانه بينما كان جالساً في حضرة الملك سأل بعضهم عن بلاده فقال انها تبعد عن هنا مدة سفر ثلاثة اشهر ولما سأله عن معتقده اجاب انه لا يوجد الا اله واحد وهو الهي واله الملك واله كل المخلوقات والكائنات وقال ان هذا الاله يسكن السماء وعندما تداهم بلادهم مصيبة من المصائب كالوباء أو موت الماشية فكل الاهالي هناك يصعدون الى الجبل ويصلون لله بكل ورع وخشوع فيجيب الاله صلاتهم ويرفع عن بلادهم هذه البلايا والرزايا فسأله اذا كان يعتقد بوجود نبي أو رسول فاجاب على ذلك سلباً . ولما قص عليه شيئاً عن أعمال انبيائه الثلاث موسى وعيسى ومحمد ومعجزاتهم الباهرة اجاب اذا كانت هذه الروايات صادقة وصحيحة فان هؤلاء الانبياء الثلاث يستحقون الاجلال

(١) يرى المسيو كزمير المؤرخ ان لامحل لتصديق هذه الخرافات والمحتمل ان هذه الاعمال يأتيها القرود ليلا ويختفون نهاراً في هذه الغابات .

ويحق ان نؤمن بهم ولو كنت رأيت ما أتاه هؤلاء الانبياء لصرت من أول المؤمنين بهم اه

على ان الرحالة بن سليم هذا الذي مر بنا ذكره لم ينجح هو ومن معه في مهمتهم ومأموريتهم لان ما جاء في كتاب القائد جوهر لم يصادف استحسانا أو قبولا لدى حكومة القسم الجنوبي ولم يؤثر ارسال هذا الوفد شيئاً في حكومة (دنقلا) ولو أن أعضاءه قوبلوا بكل حفاوة واكرام من رجال الحكومتين وبيان ذلك انه لما تمثل اعضاء هـذا الوفد الاسلامي بين يدي ملك النوبة وسلمه الرئيس كتاب القائد جوهر امر الملك بعقد مؤتمر من الاساقفة وعقلاء الامة واباح لاعضائه حرية البحث والمناقشة في امر هذا الكتاب واشتغل هو بكتابة الرد عليه ثم تلاه على الحاضرين وهذا ما جاء فيه : (بعد السلام والتحيات الخ . انا ندعوكم لاعتناق الدين المسيحي وان اجدادي كانوا على الدوام يعاملون المسلمين الفاتحين للبلاد المصرية بكل اخلاص ومسالمة واني كنت اتأهب لعقد معاهدة مهمة معكم) وختم كتابه ببعض عبارات التودد الرقيقة ولكنه لم يذكر فيه شيئاً بالمرة عن جزية الرقيق التي أشار اليها القائد جوهر في كتابه

فلما علم بن سليم رئيس الوفد المصري مضمون هذا الكتاب اعترض عليه وناقش الملك كثيرا في هـذا الموضوع ثم كتب اليـه رسميا يقول (سيدي الملك . اذا كنتم تظنون ان وقوفكم امام القوات الاسلامية

ليس بالامر العسير عليكم (وهنا عدد له الغزوات والفتوحات العظيمة التي قام بها المسلمون بعد الدعوة النبوية) فلا بد ان أعود ومن معي الى مصر ثانيا نحمل كتابكم هذا للقائد جوهر حاكم مصر الآن وسأبذل كل مافي وسعي لاقنعه بعدم التصميم على فتح السودان والاغارة على بلادكم الآن

وبينما كان بن سليم ومن معه مقيمين في تلك البلاد حل عيد الاضحى فدعا رئيس الوفد المذكور جماعة المسلمين المقيمين في المدينة وعددهم لا يزيد عن ستين نسمة فاقاموا الاحتفالات والمهرجانات احتفالا بقدوم هذا العيد وقد القوا موكبا دينياً سار في المدينة بكل خشوع بين عزف الطبول واصوات الابواق وقد حاول بعض المقربين الى الملك منع هذه المظاهرات الدينية فاتهرهم الملك وزجرهم على هذا التعصب القبيح ثم سافر الوفد الى مصر بعد عيد الاضحى وهم في غاية الارتياح والانشراح مما لاقوه في تلك البلاد وهذا غاية ما عرف عن الملك جرجس سلطان النوبة من حسن المعاملة وحرية الفكر وبمدئذ عاشت الممالك المسيحية هناك في امن وسلام باقي هذا الجيل

الفصل السادس والاربعون

بناء القاهرة

سنة ٩٧١ للمسيح و٦٨٧ للشهداء

و٣٦١ للهجرة

استمر حكم الفاطميين في مصر نحو مائة سنة رأى في اوائلها المصريون التعساء الحظ من الاقباط الذين كان عددهم وقتئذ قليلا بالنسبة للامة الاسلامية كل راحة وحسن معاملة كما تعودوا ذلك عند تغيير كل حاكم جديد

وبيان ذلك ان القائد جوهر لما فتح البلاد وحكمها باسم سيده الخليفة المعز مدة ثلاث سنوات سعى في خلالها في تخفيف الضرائب ووضع النظامات الكافلة لانتظام الاعمال واستتباب الامن ثم أمر بتطهير الترع المهملة فتحسنت بذلك حالة الري وتمهدت الطرق لزوال المجاعة التي كانت متفشية بمصر في ذلك الوقت واتفق انه في سنة ٩٧١ مسيحية و٣٦١ هجرية أي في السنة الاولى من فتحه لمصر زاد الفيضان كثيراً وفاض النيل فيضاناً عظيما فاعتبر المصريون ذلك فالاً حسنا وعلامة رضى وارتياح عن الدولة الحاكمة الجديدة

وكان يوجد وقتئذ على الشاطيء الشرقي من النيل ثلاث مدن ملتصقة بعضها التصاقا طبيعيا وفي جنوبها مدينة بابل التي كان يسكنها كل المصريين الذين

اعتنقوا الدين المسيحي ولم يكن لهم معاملة مع المسلمين الا ما كان يتعلق بالمجاملة الادبية ليس الا . وقد بنوا الحصن الروماني المعروف بقصر الشمع ورمموه وجعلوه حصنهم الوحيد ثم بنوا كنيستهم الكبرى وهي المعروفه بدير ماري جرجس الآن على ابراج ذلك الحصن وطوابيه وبالجملة فان مدينة بابل كانت اقدم مدن مصر واقلها اعتبارا في نظم المسلمين وقتئذ الا انها كانت في الحقيقة لم تزل عاصمة مصر الوحيدة في اعتبار العالم الغربي وتليها في الاهمية مدينة الفسطاط العربية التي بنيت بامر عمرو بن العاص الفاتح العظيم وفي الشمال الشرقي من الفسطاط توجد المدينة التركية التي بناها احمد بن طولون وهي بعيدة عن النيل واقرب لسفح المقطم من تينك المدينتين

وكانت هذه المدينة في ذلك الوقت اشبه شيء بالقشلاقات الكبيرة ولذا كان يطلق عليها المصريون اسم (مصر عسكر) (١) اي مدينة العساكر واسم مصر الاصلي هو نسبة لمصرايم من نسل نوح لانه هو اول من جاء بعد الطوفان واستوطنها ولكن في عهد الفاطميين كان هذا يطلق فقط على المدينتين المسلمتين وهما الفسطاط والمدينة التي ابتناها ابن طولون .

وقد كان الخليفة المعز لما ودع قائده جوهر عند قيامه مع جيشه

---

(١) مدينة مصر عسكر هي المدينة التي دعاها المصريون بعدئذ مصر القديمة وكثيرا ما يخطيء ادلاء الطرق فيفهمون للسواح ان محل الفسطاط او بابل هو مصر القديمة

لفتح البلاد المصرية التفت الى جماعة المشائخ الذين كانوا يرافقون الحملة وتكلم متنبئاً عن ماسيتم في مصر بعد هذا الفتح فقال مخاطباً جوهر :

انك اذا سرت وحدك ستقهر مصرياجوهر وتدخل الفسطاط بملابسك الاعتيادية دون ان تحتاج الى اثارة حرب مع سكانهاوستسكن في قصر اولاد طولون ولكنك ستنشيء بعد ذلك مدينة اخرى تسميها القاهرة (اي المنتصرة) وهي التي سيخضع لها العالم كله .

فلما استقر لجوهر المقام في مصر ورأى ان نبوة الخليفة قد تمت بدخوله الفسطاط وقصر بن طولون بلا حرب ولا قتل واذاهلها سلموا له البلاد في الحال ونادى المنادي بذلك ثم بايعه الاهالي تحت عزف الموسيقى واصوات التهليل اراد ان يتمم نبوة الخليفة ببناء مدينة القاهرة فجعل اساسها في الجزء المركزي الحالي من المدينة وهي البقعة التي اناخ فيها جماله يوم جاء لفتح الفسطاط ويوجد في هذه البقعة الان جامع الازهر الشريف وبيت القاضي وخان الخليلي وكان ابتداء تأسيس هذه المدينة الجديدة في سنة ٩٧٠ مسيحية و٣٥٩ هجرية وقد جعل مصر العسكر داخلة في نطاق السور الاصلي لهذه المدينة

وقد اقام القائد جوهر احتفالا عظيما لمناسبة وضع اساس هذه المدينة ثم اعد ادوات البناء وجميع العمله اللازمين للعمل ووقف الجمع المحتشد ينتظر الامر بالبناء من الفلكيين الذين سبق انهم راقبوا نجم النصر في الفتح اولا ولما حانت الساعة المعينة صدر الامر بالشروع في العمل فهتف

جميع الفعلة والعمال وشرعوا في العمل جميعاً في وقت واحد .

وقد استمر البناء في هذه المدينة نحو سنتين من الزمان بكل همة وبعدئذ امكن الخليفة المعز لدين الله ان يأتي اليها ويزورها زيارة الملك لاحدى ولاياته

ولما قدم الخليفة الى مصر لم يأت اليها من طريق القيروان مباشرة بل انه قضى عدة اشهر متجولا في جزيرتي سيسليا وسردنيا على البحر الابيض المتوسط اللتان كانتا من املاكه اولا وتوجه منهما الى طرابلس ومنها الى الاسكندرية حيث وصل الى القاهرة سنة ٣٦٢ للهجرة وقد جلب اليها شيئا كثيرا من الهدايا من الممالك والبلاد التي فتحها وجعلها عاصمة مملكته وفي مكان القصر الذي نزل به في مصر بيت القاضي بجوار شارع النحاسين ثم أصدر أمره بنقل جثث اجداده في قبر اتخذه لهم في معمل خان الخليلي الآن

ثم رأى الخليفة وقائده جوهر ان المدينة الجديدة تحتاج الى مسجد عظيم يفوق مسجدي عمر وابن طولون في المدينتين القديمتين فامر ببناء الجامع الازهر وكان ذلك في نفس السنة التي قدم فيها الى مصر

ولما كان هذا الخليفة ليس على شيء من الاوهام والوساوس الدينية مثل خلفه ابن طولون فقد اتخذ اغلب اعمدة هذا المسجد من الكنائس المسيحية ولذلك تجد شكل هذه الاعمدة التي تشبه اشجار الغابات ليست على شيء من التناسب فيما بينها كما يتضح للناظر اليها لدي اول وهلة .

ومن ثم ذاعت شهرة هذا الجامع الازهر بما بذله القائد جوهر من الهمة واقناعه للخليفة المعز بوجوب تنظيمه وتوسيع نطاقه بما له من التأثير والنفوذ على الخليفة واصبح بعدئذ هذا المسجد مدرسة عظيمة وانشئت به أيضاً مكتبة ثمينة واحضر اليه جماعة من خيرة الاساتذة والعلماء لالقاء الدروس في اللغة العربية والنظم واللاهوت (والفقه) والشرع والطب والفلك والرياضيات والتاريخ وامه التلامذة من جميع الاقطار الشرقية للاستفادة منه والانتفاع بنفحاته وثمراته الشهية ولم يزل هذا الجامع الى الآن يعد الكلية الاسلامية الجامعة الوحيدة في العالم الاسلامي وقد كان لهذه المدرسة الكبرى بادىء ذي بدىء الفضل الاكبر في نشر كثير من العلوم المصرية القديمة التي نقلها الغربيون الى بلادهم ثم انقلب الدهر وتغيرت الاحوال فعاد الغربيون يعلمون تلك العلوم القديمة لجماعة المسلمين

وفي سنة ٩٧٥ مسيحية توفى الى رحمة الله الخليفة المعز وفي هذه السنة نفسها تنيح بطريرك الاقباط وبويع بالخلافة ابن المعز ابو منصور العزيز وكان معروفا باسم العزيز

وقد كانت احدى زوجات العزيز مصرية مسيحية تابعة للكنيسة اليونانية وقد كان لهذه الزوجة تأثير عظيم على العزيز حتى انها تمكنت من تولية اخويها ارسنيوس وجرمياح بطاركة على الاسكندرية واورشليم للكنيسة اليونانية وفي غضون هذه المدة وقعت الكنيسة القبطية في اضطهاد عظيم من العزيز ولكنها فضلت تحمل هذه الاضطهادات دون الرضى

بتداخله في شؤونها ولم تعترض الكنيسة اليونانية على ذلك مع ما بينها وبين الكنيسة القبطية من الصلات القوية والروابط العظيمة وما ذلك الا مجاملة لزوجة العزيز اليونانية ولما تنيح حنا الثاني بطريرك الاقباط عقد الاساقفة وقسوس الاسكندرية مجلساً اكليريكا بالقدس في كنيسة القديس سرجيوس والقديس بكشوي في بابليون (١) لينتخبوا لهم بطريركا جديدا وبينما هم مجتمعون لهذا الغرض دخل عليهم أحد التجار السوريين الذي كان مشهورا بالآداب ومكارم الاخلاق ويدعى افرايم وكانوا لم يزالوا يتناقشون ويتداولون في من يرشحونه لمركز البطريركية فلما وقع نظرهم عليه حيوه جميعاً في الحال ونادوا به الرجل المنتخب لهذا المنصب الرفيع وقد كان هذا البطريرك السوري متزوجا من قبل أيام كان علمانيا ولكنهم غضوا الطرف عن ذلك لما له من المنزلة والمكانة في جميع الافئدة والقلوب ومن ثم استلم افرايم المذكور زمام الكرازة المرقسية ولبث بها اكثر من ثلاث سنوات انفى في خلالها مسألة (السيمونية) وهي بيع الرتب الكهنوتية والمناصب الكنائسية بالمال وجعل رسامة القسوس وتقليد الوظائف الدينية والتدشين والتكريس من اعماله الخصوصية وله على ذلك شيئا معلوما من الشعب ولم تزل آثار هذه العادة باقية الى الآن. ومن اعظم اصلاحاته التي قام بها ايضا اشتغاله بحرارة وغيرة حقيقية في أحياء الفضائل

(١) هي الكنيسة التي يزورها السواح عادة وتحتها كنيسة تدعى كنيسة (ستى مريم) وهي مبنية تحت الارض

الدينية ومحاربة الافات والشرور التي كانت قد تفشت بين الاقباط بسبب اختلاطهم بالعناصر والطوائف الاخرى وعلى الاخص تهافتهم على تعدد السراري في بيوتهم بدون عقد شرعي مما ينافي روح الدين المسيحي وخصوصا جماعة الموظفين في الحكومة فتداخل البطريرك افرايم بنفسه في اصلاح هذا الحال مما افضى الى سقوطه شهيدا بسبب هذا الميل الشريف كما سيجيء. ذلك انه كان يوجد في هذا الوقت رجل يدعى ابو السرور وهو من الحاصلين على المناصب العالية في الحكومة وكانت لديه عدة سراري وحظيات فاعترض عليه البطريرك في ذلك وعنفه كثيرا ولما لم يرتدع اصدر عليه حرما من الكنيسة فما كان من هذا الغشوم الا ان تسبب في تسميم البطريرك الذي راح شهيد هذه الغيرة الدينية الشريفة وقد كان البطريرك افرايم الموما اليه على حداثة مدة توليته محبوباً من خليفة المسلمين كثيرا وقد اقترح عليه الخليفة ان يطلب ما شاء منه فيجيبه الى طلبه فطالب اليه البطريرك ان يعيد له موضع كنيسة القديس مركوريوس (١) التي تخربت واستولى عليها المسلمون مدة الاضطهاد السابق فأمر الخليفة المعز . ان تعطى له هذه الكنيسة في الحال فاستلمها واعاد بنائها وقد كتب ابو صالح الكاتب المعروف عن هذه الكنيسة ما يأتي :

١ كنيسة ابوسيفين طموه

لما شرع البطريرك في اعادة بناء الكنيسة هاج عليه رعاع المسلمين واعترضوه بدعوى انها تخربت من زمن طويل ولم يبق منها سوى بعض جدران آئلة للسقوط قد جعلها المسلمون مخازن لقصب السكر فصدر امر الخليفة المعز بان تبني الكنيسة وتعطى نفقات بنائها من خزينة الحكومة بغير قيد فأخذ البطريرك القرار ولم يعمل به بل رد الدراهم الى خزينة الحكومة واعتذر للوالي عن قبولها قائلا ان الله الذي يستحق كل شكر والذي اظهر لنا قوته العظيمة قادر ان يساعدنا على اعادة بناء بيت عبادته وهو غير محتاج الى مال هذا العالم. ورجاه ان يقبل منه المال ثانية ولا يجبره على قبوله فرضي الخليفة بذلك . وبعد ذلك بمدة شرع البطريرك في العمل فاعترضه زعانف المسلمين وحنقوا عليه واوقفوا بهياجهم البناء فنما الامر الى الامين العزيز بالله فارسل كتيبة من الجند والمماليك لاخماد الهياج وحراسة البناء فلما وصلت وعلم المعترضون بذلك كفوا عن التعرض وشرع في عمله بكل طمانينة

قال ابو صالح ان ابناء الكنيسة القبطية قدموا مبلغا عظيما من المال لغبطة البطريرك افرايم بصفة تقدمة شكر فقبلها شاكرا وصرفها في عمارة الكنيسة وبذلك تم لغبطته ما كان يؤمله من مساعدة الرب له . وكان ذلك في عهد ساويرس المؤرخ الشهير اسقف الاشمونين صاحب المؤلفات الكثيرة التي لم يطبع شيء منها وهذا الاسقف له حوادث واخبار نسقها بعد مماته الاسقف مخائيل الذي كان اسقفا لمدينة صان (بمديرية الشرقية) وغيره من الكتبة الاقباط وفي ظني انه يوجد منها نسخة كاملة الآن ولو كان كثير منها

موجود في اللاتينية تأليف المؤرخ دنودوت . ولم يرسم ساويرس اسقفاً الا في عهد رئاسة البطريرك افرايم القصيرة وخلفه على كرسي البطريركية فيلوثاؤوس الراهب من دير القديس مركريوس (كنيسة ابو سيفين الان) الذي سار على خطة البطريرك افرايم سلفه (١)

وفي عهد البطريرك فيلوثاوس اعتنق بعض المسلمين الديانة المسيحية. ذكر نيل المؤرخ ان رجلا من مشيري الخليفة المعز اعتنق الديانة المسيحية وقد تعب في تربية ابنه المدعو واصا تعباً كبيراً لمضادته للديانة المسيحية

وقد حفظ واصا هذا القرآن في صغره وكان على جانب عظيم من الكره للمسيحيين فاتفق له انه بينما كان مجتازاً بالصحراء رأى جمعاً مزدحماً حول رجل يساق كمجرم فسأل المارة عنه فقيل له انه مسلم تنصر وهو يساق ليحرق جزاء جحوده فعمد الى ذلك الجمع وفرقهم عنه ووصل اليه واخذ يعنفه على قبيح عمله ويبين له غلطه في اتباع دين الثلاثة الهة فقال له ذلك السجين انا لم اتبع الا دين اله واحد في ثلاثة اقانيم وسيأتي يوم يتضح لك فيه هذا الحق فتجاهد متألماً لاجله مثلي . فاستشاط واصا من ذلك القول غضباً ورفسه وضربه بكل قوته فاحتمل ذلك الشهيد كل تلك الاهانات بصبر غريب وتبعه واصا الى مكان الاستشهاد فهاله مارأى من صبره واثر

(١) اتفق نيبل ورنودوت المورخان على الصاق بعض الذنوب بفيلوثاوس ولكن بفحص تلك التهم بالتدقيق لم ير عليه شيء غير القول بانه كان محبا للمآكل الفاخرة قليل الاعتناء بتقدم الكنيسة ويدخل الى الحمام مرتين في اليوم

ذلك المشهد عليه حتى لم يعد قادراً على صرف تلك الافكار من ذهنه فعزم ان يطردها بذهابه الى الحج فسافر الى مكة وفيما هو في الطريق حلم ان راهباً كبير السن ناداه قائلا ان كنت تريد ان تعرف قيمة خلاص نفسك فتمم واتبعني وحصل ذلك على ثلاث دفعات فقص حلمه على رفاقه فقالوا له انه من قبيل التخيلات الشيطانية. وادى واصا فريضة الحج وعاد وقبل وصوله الى القاهرة افترق عن رفاقه فضل عن الطريق ودخل عليه الليل فصار يرجف خوفاً من الوحوش الضارية التي يكثر وجودها في الصحراء وفيما هو كذلك اذا بفارس اقبل عليه وقال له ماذا تعمل هنا ياواصا فاخبره بما كان من امره فاشار عليه ان يتبعه ليقوده الى مكان امين فما صدق ان سمع ذلك حتى تبعه فأتى به الى دير كائن بين القسطاط وبابليون وتركه هنالك فعلم واصا ان ذلك المكان لابد ان يكون كنيسة مسيحية (١)

ولما كان الفجر قام خادم الكنيسة لاعدادها للصلوة فرأى واصا مختبئاً عند جدرانها فانزعج اذ حسبه لصاً ولكنه لما سمع كلامه ورأى ان مقتنيات الكنيسة سالمة ظنه مجنوناً غير انه لما هدأت افكاره سأله واصا عن اسم الكنيسة فاجابه بانها كنيسة القديس مركوريوس واراه ايقونته واخبره بخبره في جهاده وايمانه فتفرس واصا فيها فرآها تشبه

(١) وهي نفس الكنيسة التي جددها البطريرك افرايم وهي باقية الى هذا اليوم وتعرف بكنيسة ابي سيفين طموه بقرب القاهرة ومنظرها جميل للغاية.

صورة الفارس الذي لقيه ليلاً وانقذه من الخطر فحينئذ عزم على اعتناق الديانة المسيحية واخبر القندلفت بذلك ولكن القندلفت لم يكن في استعداد لسماع قصته فالح عليه بالانسحاب من الكنيسة قبل ابتداء الصلوة وان يختفي الى حين ووعده ان يرسل اليه الكاهن وفعلا خبأه في مكان وعاد فاعد الكنيسة للصلوة وارسل اليه القسيس وهو متخوف من الشر الذي سيصيب الكنيسة من جراء اعتناق ذلك الرجل النصرانية

وقد لبث واصا المذكور مختبئاً بالدير حتى اعتمد ولم يحصل شغب عند عماده لانه لم يعلم به احد من اقاربه الذين ظنوه انه هلك في الصحراء واراد الكاهن الذي عمده ان يرسله الى دير القديس مركوريوس بوادي النطرون ليتعلم اصول الديانة غير ان بعض المسلمين رأوه قبل ان يبارح الكنيسة وابلغوا والده الخبر قائلين اننا نشك في موته والغالب انه صار مسيحياً

فلما سمع ابوه بذلك بث عليه العيون والارصاد فلقيه وهو ذاهب الى جبل النطرون فرجع به الى بيته وهنالك عملت معه كل الوسائل اللازمة لارجاعه الى حضن الديانة الاسلامية فذهبت كل الوسائل عبثا ولما كان محبوبا لدى اهله خافوا ان يشتهر امره لدى باقي المسلمين فيقضوا عليه فلذلك تركوه وشأنه فخرج واصا (الذي دعي بولس بعد المعمودية) وذهب الى جبل النطرون واقام في دير هنالك زماناً طويلاً ولما كان هناك اخبره احد الرهبان انه ان لم يشهر ايمانه في قس وطنه لمجد الرب لا يدعى

مؤمناً فقام من فوره الى بلدته واعلن ايمانه فلم يعارضه احد اولاً نظراً لمحبتهم الاولى له ولكنهم قاموا عليه اخيراً وعنفوه فلم يرجع ولما لم تجد الوسائط الحبية معه عمدوا الى اكراهه وسجنوه في سرداب مظلم ستة ايام وأتوا اليه بزوجته الجميلة التي كان قد اقترن بها قبل ان يتنصر فأخذت تستعطفه وتتذلل اليه وترجوه ان يعطف على والده الصغير فلم تستفد . اخيراً تقدم اليه ابوه وخطف الطفل من بين يدي كنته وذبحه امامه واخذ ولده بولس وسلمه الى المحكمة وطلب ان تحكم عليه بصفته كافراً فلما تمثل بين يدي الخليفة العزيز بالله صار يتضرع اليه ويسترحمه لكي يأمر بابقائه حياً وتوسلت اليه زوجته (أي زوجة بولس المذكور) فرق عليه واطلقه فذهب الى الصعيد واصطحب مع اسقف الاشمونين غير انه لم يلبث معه طويلاً بل سافر الى اقاصي السودان جنوباً وبنى هنالك كنيسة باسم مخائيل رئيس الملائكة على حدود الحبشة ثم رجع الى مصر لينال درجة كاهن فقابل البطريرك فيلوثاوس وطلب اليه ان يرسمه قسيسا فطلب منه دفع الرسم المقرر فلم يشأ لما قام في نفسه من كراهية ذلك الامر فاصر البطريرك على اخذ الرسم وانتهى الامر بينهما بتوسط احد ذوي الغيرة الدينية حيث دفع عنه ذلك الرسم فرسم قسيساً وقد بطلت عادة دفع الرسوم بعد ذلك في عهد البطريرك افرايم . واتفق ان والده سمع بصيرورته كاهنا فاشتد حنقه عليه واستأجر قوماً من الاعراب للفتك به فسمع بعض المسيحيين بذلك وحذروه فهرب الى بلدة تدء

وهنالك تعين صرافاً لخزينة كنيسة القديس تادرس ومات بعد ذلك بسنتين. وعند موته هجم المسلمون على الكنيسة وسلبوا المسيحيين مسبات مؤلمة ولكن بولس كان قد اوصى وكيل البطريرك ان يحافظ على جثته خوفاً من ان تعبث بها ايدي المسلمين فقام بتلك الوصية خير قيام وهو الذي روى تاريخ حيوته لمخائيل المؤرخ اسقف صان (بمديرية الشرقية)

غير ان اعتناق بعض فضلاء المسلمين الديانة المسيحية وان كان قد سر المسيحيين الا انه لم يقطع دابر الصعوبات التي كانت تعترض الكنيسة لان بطريرك الاروام اغتصب من الاقباط كنيسة رغماً عن تشديد العزيز بالله بمنع الاضطهاد عنهم وعدم سماحه للرومانيين بأن يضايقوا الاقباط القائلين بالطبيعة الواحدة

وكانت الحبشة في ذلك الوقت مرسحاً للحروب الدموية لان امرأتين اختلستا عرش الملك بالتتابع وامرتا بقتل جميع ذرية الاشراف الا واحداً نجا من كيدهما فلما بلغ هذا اشده شرع في في استخلاص عرش اسلافه من ايدى مغتصبيه فكتب كتابا وارسله الى ملك النوبة بالطريق الموعرة البعيدة الشقة خوفا من وقوعه في يد الحكومة ورجاء ملك النوبة ان يسرع بارسال الكتاب الى غبطة البطريرك في مصر (ولا تزال بعض اجزاء هذا الكتاب محفوظة ضمن الاثار القبطية حتى الان بلندن) وفيه استنهاض لهمة غبطة البطريرك لتلافي الخلل وانقاذ الحبشة من حال التعاسة الدينية التي باتت فيها بفضل الاهمال. وذكره بانه مضت مدة تولى

فيهاستة(١) بطاركة بالتتابع وفي كل هذا الزمن الطويل لم يلتفتوا الى الحبشة حتى اضحت خالية من رئس ديني لعدم قيام أحد بدل الذين توفوا . وقال فيه انا لا ننكر اننا قاسينا هذه الشرور جزاء ما اقترفناه ضد الكنيسة المصرية ام ايماننا

فلما بلغ هذا الكتاب الى يد غبطة البطريرك امر في الحال برسم الراهب دانيال الذي كان في دير الراهب مرقوريوس اسقفا للحبشة فسافر اليها مشيعا بالاكرام واستقبله الاحباش بمزيد التجلة والاعتبار وفرحوا به فرحاً لا يوصف وبواسطته نجح ذلك الملك الصغير في استخلاص العرش لان الاسقف حرم المغتصبة فازلها الشعب عن الكرسي واعدموها

الفصل السابع والاربعون

اضطهاد الحاكم بامر الله

سنة ٩٩٦م و٧١٢ للشهداء و٣٨٦ للهجرة

توفى العزيز بالله سنة ٣٨٦ للهجرة فخلفه ابنه المنصور او الحاكم بامر الله وكان قاصرا فقام وزيره المدعو ارجوان بالوصاية عليه عشر سنوات حتى بلغ رشده ولما كانت ام الخليفة مسيحية انشأت فيه شيئا من التأثيرات

(٢) هذا العدد غير صحيح فان البطريرك قصماص الثالث هو آخر من ارسل اساقفة الى الحبشة وبينه وبين البطريرك فيلوثاوس اربعة بطاركة هم مكاريوس الاول وطومانيوس ومينا الثاني وافرايم

الحسنة فتمتع المسيحيون كل السنين التي كان فيها قاصرا بالراحة التامة وكانوا يتقاضون مع المسلمين لدى الحاكم وينصفون وكانوا يركبون الخيل ويتشحون بالثياب الثمينة ويلجون المصالح الكتابية في دواوين الحكومة فشب الذين نشأوا في ذلك الوقت على الحرية الكاملة فاوجب ذلك حقد المسلمين على الاقباط المساكين غير ان هذا الحقد لم تنفجر براكينه كل مدة حيوة والدة الحاكم بامر الله الا انها لما توفيت تغيرت اطواره وكان ضعيف العقل فتراءى له ان يدعي النبوة فادعاها. وابتدع في عهده رجل بدعة جديدة في الاسلام صار امرها مشهورا في مصر وهي منع المسلمين من حفظ يوم الجمعة وايام عيدي الفطر والاضحى وتحريم الحج الى مكة وباغراء هذا المدعي بنى الحاكم جامعه المعروف باسمه في القاهرة وكان حتى سنة ١٨٦٤ مسيحية مستودعاً لحفظ الاثار العربية. ولما ادعى النبوة كما قدمنا اعلن انه اعظم من عيسى ومحمد واضطر المسلمين والمسيحيين ان يعتبروه وقال بعضهم انه تجاوز الحد فلم يرد ان يعتبروه الاهالي كنبي فقط بل كعيسى المتجسد بروح الله وكان يصعد الى جبل المقطم في فجر كل يوم ليناجي ربه على زعمه واذل اليهود وسعى في الغاء الديانة الاسلامية فاحتقرته الرعية اما المسيحيون فقالوا انه المسيح الدجال

وعاش البطريرك فيلوثاوس ٢٤ سنة على كرسي البطريركية وقضى كل زمانه في هدو وسلام ولم يبدأ الاضطهاد الا بعد موته. وبيان ذلك انه اذ كان يقرأ القداس سقط فجاءة فاقد الرشد فقام مقامه احد القسوس في

تكملة القداس وعند النهاية حملوه الى البطريركخانة وفارق الحياة على اثر ذلك وحينئذ اراد الاسكندريون سيامة تاجر علماني مكانه فرفض الاساقفة ذلك رفضا باتاً وانتخبوا زخريا صراف كنيسة القديس مرقوريوس. اما ذلك التاجر الذي رشحه الشعب فانهم رسموه اسقفاً على مدينة ممفيس

وكان البطريرك زخريا محبا للسلام الا انه لم يسر من مجلس الاساقفة نظرا لما نشأ عن فساد اخلاقهم من جرى الحرية التي اعطيت لهم ومخالطتهم لعامة المسلمين في زمن العزيز بالله

وكان الاختلال في زمن البطريرك فيلثاوس بالغا حده فان الذين كانوا يرقون الى درجة الاسقفية لم يكونوا يبلغونها الا بدفع جعل عظيم. اما البطريرك زخريا فانه صار يدقق في رسامة الاساقفة وكان يمقت تلك العادة القبيحة ولا يقبل دراهم ولكن اعوانه كانوا يختلسونها وينفذون مآربهم وقد ابقى ذلك البطريرك مجلس اساقفة عنده لاجل الفصل في سائر المسائل الملية وكثيرون منهم من اقربائه وقيل ان واحدا منهم جمع اكثر من ٢٠ الف جنيه بطرق غير محالة فهذه الامور آلت بنتائج وخيمة كما ترى فيما يلي.

كان رجل يدعى القس حنا كاهنا على ابرشية ابي نفرو وهي قرية بالجيزه بالقرب من دير القديس مرقوريوس وبلغ به الشوق من منصب الاسقفية مبلغاً حتى ذهب الى البطريرك بنفسه لهذه الغاية فقدم البطريرك طلبه الى مجمع الاساقفة ولما كان القس حنا غير صالح لهذه الوظيفة لم يتردد المجمع

في رفض (١) الطلب لاول وهلة ولما كان حنا يعهد في نفسه عدم اللياقة فتوجه الى مركز الحكومة في القاهرة وبالنظر لنفوذه في دوائر الحكومة وصمم على تقديم شكواه للخليفة فلما بلغ ذلك اذان الموظفين من الاقباط وكان الاضطهاد بدأ يشتد عليهم ورأوا المسلمين يحرضون ذلك الكاهن على الشكوى اجتمعوا عليه ورجوه ان يكف وكتبوا هم عريضة الى غبطة البطريرك يظهرون حرج مركزهم ويرجونه الموافقة على تعيين القس حنا اسقفا. فلما اتى الكاهن الى مقر البطريركية وجد البطريرك غائبا في وادي الحبيب تاركا مسألة هذا الكاهن لابن اخيه ميخائيل اسقف سخا ليحفظها حتى يعود فيبت فيها ولما كان الاسقف ميخائيل يبغض القس حنا خاف من انه اذا توانى يعود البطريرك فيرسمه استأجر بعض الاعراب للفتك به فكمنوا له في الطريق والقوه في بئر واخذوا يرجمونه بالحجارة ولحسن حظه كان في تلك البئر كهف فتوارى فيه ولم يصب بسوء ولما ظنه الاعراب انه مات وتركوه خرج من هناك وتوجه الى غبطة البطريرك وقص عليه ماجرى له فتأثر من ذلك ووعده وعدا شافيا بان يرشحه لدرجة الاسقفية عند خلو وظيفة وصار البطريرك في ذلك الوقت بين عاملين قويين اما ان يصدع برأي الاساقفة وينقض عهده مع حنا او ان يفي بوعده ويخالفهم ولكنه اضطر ان يخلف وعده وينقاد لرأيهم فاغتاظ حنا من ذلك ولم يعمل للانتقام

(١) يقال انهم رفضوه لكونه متزوجاً والقانون يقضي ان يكون الاسقف راهبا وقال بعضهم انهم رفضوه لانه لم يكن يقدم النقود اللازمة.

من مخائيل ابن اخي البطريرك بل دبر مكائد ضد البطريرك ومجمع الاساقفة كانت نتيجتها استدعاءهم لدى الخليفة وزج البطريرك في اضيق السجون وبعد مامضى عليه ثلاثة اشهر في سجنه اخرج والقي الى الاسود فلم تقرب اليه بسوء فطرح اليها مرة اخرى ففعلت كالاول فاعيد الى السجن ومن ذلك الوقت قامت الاضطهادات المريعة على المسيحيين في مصر ودامت كذلك حتى ايام البطريرك اسكندر الثاني. وبلغ من جبروت الحاكم انه امر المسيحيين بالاعتراف بالوهيته اذا ارادوا ان يخلصوا من العذاب وقيل انه وضع دفاتر في مراكز الحكومة الاربع في القاهرة ومصر القديمة والفسطاط وبابليون لتسجيل اسماء الذين يعترفون باوامره الكفرية وقيل ان الذين اطاعوه بلغوا ستة عشر الفا ولكن من سياق التاريخ نستنتج انه لم يطعه احد من الاقباط والراجح ان كثيرين من المسلمين اعترفوا به وقد شملت مظالمه جميع المسيحيين في كل انحاء الخلافة وقد وجه همته الى مصادرة مدينة بابليون بالخصوص فاحرقها وسلبت جنوده امتعتها واصدر امره بتقليع جميع كروم العنب ليمنع بذلك صناعة خمر الاباركة الذي يستعملونه في تناول السر المقدس

وقد وقع اكابر الاقباط في شدة قوية لا تطاق من ذلك الحاكم الظالم ومن ثم صار اخوانهم المسلمون الموظفون معهم يتجاهلونهم ولا يمدون يداً لانقاذهم وامر الخليفة بضرب عنق اثنين منهم ولم يكفه ذلك بل قبض على آخر يدعى المعلم غبريال ووعده انه يرقيه الى منصب الصدارة العظمى اذا هو

اعتنق الاسلام فطلب منه مهلة يوم واحدفامهله فتوجه الرجل الى بيته وجمع اولاده واقاربه ومعارفه واخبرهم بامره وقال انه لم يطلب مهلة لتردده في الايمان بل رغبة في الاجتماع بهم وحثهم على مقابلة الاضطهادات بثبات ثم اولم لهم وليمة الوداع واستودعهم الله وذهب الى مقابلة الخليفة برباطة جاش واخبره بانه باق على دينه فتهدده بالتعذيب فلم يذعن فامر بجلده الف جلدة ففعلوا فلما بلغ عدد الجلدات ثمانيمئة مات ولكنهم استمروا يجلدون الجثة الهامدة حتى كمل العدد. وبعدذلك قبضوا على ثمانية اخرين وتهددوهم فثبت منهم اربعة وجبن الاخرون واعتنقوا الاسلام فرارا من العذاب ومات احد الذين ثبتوا فجاءة اما الثلاثة الباقون فسجنوا في الكنيسة حتى يرجعوا عن عنادهم وبقوا في سجنهم حتى انتهى الاضطهاد. اما في سوريا فان الحاكم امر بهدم كنيسة القدس وتخريب القبر المقدس والكنيسة المبنية عليه واستدعى البطريرك ارميا (١) خاله الى مصر وأمر بقطع رأسه بالسيف وهرب اخوه ارسانيوس الناسك من وجه الخليفة خوفا من الهلاك وقد رأينا ان نورد في هذا المقام فقرة من تاريخ المقريزي الشهير بتين عسف الحاكم على الاقباط قال .

وقد اشتد الحاكم على اقباط مصر والزمهم بشد زنار على احقائهم ونهاهم عن الاحتفال بعيد الميلاد والغطاس والفصح وحرق الصلبان والاخشاب

(١) ارميه بطريرك اورشليم وارسينوس هما شقيقا احدى زوجات العزيز بالله والد الحاكم التي تزوج بها كما بينا في الفصل السادس والاربعين

التي تعمل فيها وحظر عليهم شراء العبيد والاماء وهدم كنائس شادح الرشيد في مصر العتيقة وخرب كنائس المكس التي كانت خارج الاسكندرية ونهب اوانيها وعرضها للبيع وامر بهدم دير القيصر (١) وصرح لرعاع المسلمين بسلبه وحظر على القبط الاحتفال بعيد النيروز الذي اعتادوا ان يقيموه على شاطئ النيل في كل عام ووضع هذا منعالهم من الابتهاج والسرور واجبر كل قبطي ان يعلق في رقبته صليبا خشبا لا يقل عن خمسه ارطال وزنا وحظر عليهم ركوب الخيل الا البغال والحمير بسروج ولجم عادية غير مموهة بالذهب وامر اصحاب الاصطبلات ان لا يخرجوا جوادا لركوب الاقباط بعد الغروب وان يلزم كل نوني مسلم يقدم قبول قبطي للسفر في مركبه وان لا يلبسوا الا عمائم سوداء وان تكون ركائب سروجهم من خشب

(١) بني هذا الدير الامبراطور اركاديوس الروماني على سفح المقطم شرقي طره تذكارا لارسانيوس معلم اولاده الذي كان باشكاتبا فانه صرف الاعوام الثلاثة الاخيرة في عمره داخل كهف كما يقال وتوفي فيه وعلى هذا الكهف بني الامبراطور الكنيسة التي صارت بعدئذ اشهر الاديرة المصرية . ودعيت كنيسة القيصر او دير القيصر باسم يوحنا القيصر القديس المشهور عند الاقباط وقد هدمت بامر الحاكم اسوة بغيرها في زمن الاضطهاد واعيدت بعد ذلك ودعيت بكنيسة البغلة ولذلك سبب عجيب وهو انه كان لرهبان ذلك الدير بغلة يضعون على ظهرها القرب كل صباح ويطلقونها فتذهب الى النيل بغير قائد وتقف هناك حتى يأتي بعض الفعلة ويملأ القرب ويضعها على ظهرها فتعود الى الدير ولا تزال خرائب ذلك الدير باقية حتى الآن

الجميز وقضى على اليهود ان يعلقوا حجرا مستديراً وزنه خمسة ارطال في اعناقهم . واصدر امراً عاماً بتدمير كنائس مصر قاطبة وجعلها غنيمة للمسلمين . كل هذا حل بالاقباط المساكين ولم يشف له غليلاً فامر بسلب امتعة الكنائس واوانيها واقامة جوامع على انقاضها وامر ان يؤذن في كنيسة القديس شنوده بمصر القديمة حالاً وبنى المسلمين سوراً حول كنيسة المعلقة (في قصر الشمع) وهو حصن مدينة بابليون الروماني . والتمس المسلمين من الخليفه ان يأمرهم بالتجول في انحاء القطر لتخريب مابقي من الكنائس فاجابهم الى ذلك واصدر امره الى حكام الاقاليم بمساعدتهم في اغراضهم فطافوا يتلفون ويخربون كل سنة ٤٠٣ للشهداء الموافقة ١٠١٣ مسيحية فسلبوا الكنائس واخذوا اوانيها وامتعتها النفيسة وصاروا يبيعونها جهاراً في الاسواق ووضعوا ايديهم على جميع الاوقاف القبطية فلم يبقوا لها عيناً ولا اثراً ووجدوا في كنيستي القديس شنوده والمعلقة غنائم عظيمة من الاواني الذهبية والملابس الحريرية وغيرهما مما لايعد ولا يحصى ويؤخذ من التقارير الرسمية انه تخرب في تلك السنة مايزيد عن ثلاثة (١) الاف كنيسة في مصر والشام بما في ذلك الهياكل التي بناها الرومانيون في الاقاليم المصرية . هذه كلها غنمها المسلمون وكانت عمارات جميلة وقصورا شاهقة واواني نفيسة

(١) هذا مأخوذ من تاريخ مالان والظاهر انه وقع غلط مطبعي لان المقريزي يذكر ان عدد الكنائس المستخربة يبلغ ثلاثين الفاً

وامر الحاكم ان كل من يذهب من الاقباط الى الحمام يعلق برقبته صليباً وان يعلق اليهودي جرساً وتماد في بغيه حتى امر برحيل الاقباط واليهود الى بلاد الروم (١) فتجمهروا مئات والوفاً وذهبوا الى قلعة الحاكم ووقفوا يستعطفون ويسترحمون ويطلبون اليه اعفاءهم من النفي حتى رضي عليهم وفي تلك الاوقات المكربة اعتنق من المسيحيين الديانة الاسلامية خلق كثير. وظل سفير الاضطهاد يلتهب ٩ سنين كاملة والبطريرك ذخريا في اعماق السجون يهدده الحاكم تارة بالحرق وطوراً يرغبه بالهبات والعطايا ويعده بالرقي اذا هو اعتنق الديانة الاسلامية ليحمل الاقباط على النسج على منواله ولكنه لم يؤثر عليه التهديد ولا عمل فيه الخوف من الموت ولا اثارت رغباته المواعيد بل ثبت الى النهاية حتى سئم منه الحاكم واخلى سبيله فذهب الى وادي النطرون واقام هناك وكانت الثلاث سنوات الاخيرة في الاضطهاد من اشد واقسى السنين صرامة فيها لقوا الهول وصادفوا من الجور اشكالاً والواناً لان الحاكم امر

(١) ذكر ابو صالح المؤرخ ان من الكنائس الشهيرة التي تخربت بامر الحاكم وتحولت الى جوامع ماعدا كنائس القاهرة كنيسة السنطوريين قرب العدوية او منية السودان تبعد عن القاهرة نحو ١٨ ميلا وكنيسة السيدة العذراء في اصوان وكنيسة العذراء في الاشمونين ودير القصير الشهير وقد اعيد بناءها بعد زمن الاضطهاد ومما يستحق الذكر كنيسة القديس باخوميوس بمدينة فاو باقليم دشنا وكان طولها ١٥٠ ذراعاً وعرضها ٧٥ ذراعاً وكانت حيطانها مرصعة بالفيسفسا والاحجار الكريمة واعمدتها من اجود انواع الرخام هذا عدا جملة كنائس في بلاد النوبة هدمتها حملة من الاسلام بعثها الحاكم خصيصاً

بابطال العبادة في جميع الكنائس الا في الاديرة الكائنه في الجبال فكان الشعب يرشو حكام الاقاليم ليسمح له بممارسة سائر العبادة في البيوت سرا ومن ثم صار الاقباط يقدسون ويناولون القربان في كنائسهم الصغرى فهال الحاكم ذلك اذا رأى انه اوامره غير نافذة بالدقة فامر لخير ابمحو كل الديانة المسيحية من مملكته

وكان في تلك الايام راهب يقال له يمن انكر الدين المسيحي واعتنق الاسلام في بدء الاضطهاد خوفاً على حياته وتقرب الى الحاكم بامر الله وتمكن بدهائه من استصدار آمر منه يقضي بالعفو عنه وعن اخواته الاقباط . وعاد الى كنيسة القديس مرقريوس (ابو سفين طموه) وزاره الخليفة في تلك الكنيسه ولما كان له عنده منزلة عظيمة اثر عليه بجعله ان يأذن للمسيحيين في العودة الى مدينة بابليون فنال ماتمنى ورجع البطريرك زخريا واقام في كنيسة ابي سيفين مع بعض الاساقفة والكهنة وفيهم

لتلك الغابة وكان الملك الذي يحكم النوبة حينئذ يدعى رفائيل حكى عنه ابو صالح المؤرخ انه اقام في دنقله عاصمة ملكه قصوراً تناطح السماء قبابها من الطوب الاحمر الجميل كانت تزري بمباني العراق الجميلة يومئذ وشوارع المدينة في عهده كانت متسعة وقصورها شاهقة وكنائسها فاخرة وكانت بالاجمال اهم مدينة على شاطىء النيل

(٢) ذهبت مدام بتشر الى ان عقاب النفي انما صدر على اليهود فقط لان القبط كانوا يتوقون الى الهروب من تلقاء انفسهم الا ان الحاكم كان يحظر حتى انتقالهم من جهة الى اخرى

الراهب يمن . وعاد الخليفة الى زيارة الكنيسة مرة آخرى فوجد يمناً بين زمرة الكهنة فاسرع يمن الى ملاقاته وقدم اليه البطريرك ولم يكن قد رآه من ذي قبل فاندهش من منظره وحقارة شخصه ورثيث ملابسه واستقباله اياه بغير خوف او رهبة فلم يسع الحاكم بامر الله ان يخفي استغرابه فسأل الراهب يمن عن مقدار سلطة البطريرك فاخبره بذلك فتعجب الخليفة قائلاً اننا مع كل استعمال نفوذنا المادي وصرف ما في خزائننا وتجريد عساكرنا لم نبلغ بعد ان نخضع الناس بمجرد رسالة بسيطة يوقع عليها مثل هذا الرجل البسيط باسم الصليب فلا ريب ان للديانة المسيحية من التأثير ماليس للجيوش الجرارة والقوة العظيمة

ولما كان الخليفة غريب الاطوار ادار وجهه الى خلف وخرج من الكنيسة من غير ان يطلعهم على حقيقة مايبطن وتوجه الى القاهرة

وكان خلق عظيم مجتمعين داخل الكنيسة وحول اسوارها ينتظرون ما يكون من امره فلما خرج لبث البطريرك واساقفته يظنون الظنون الكثيرة في ما عسى ان يصير فاجمع الكل على انه عيدان يعود بقوة عسكرية ويحاصر الدير ويهلك جميع الذين فيه وزادهم اعتقادا بذلك مجيء حنا كاهن كنيسة ابو نفر محسوب الحاكم بأمر الله في ذلك الوقت الى الدير وهو الذي حصل بسببه كل ذلك الاضطهاد وهو الذي غرر بالخليفة وزين له سجن البطريرك زخريا واوهمه بأنه رسول الله ونائب العزة الالهية في الارض . ولما دخل الى البطريرك حياه كانه لم يحصل منه شيء وهناه

يرجوعه سالما من السجن وما زال يتلطف في الحديث حتى استطرق الى ذكر ترقيته الى درجة الاسقفية فعند ذلك ضجر الاساقفة وقالوا ماعسى ان يكون هذا الطلب في مثل هذه الشدة . وانحوا باللائمة على البطريرك الذي قابل الكاهن حنا بالحنو وقالوا له لسنا نعلم ايها السيد الى متى تقودنا ببساطتك وهدوك الى المهالك . وروى بعض المؤرخين ان الاساقفة حنقوا على البطريرك لانهم رأوه ميالا الى منح حنا رتبة الاسقفية في حين انه كان سبب جميع البلايا التى حلت بالاقباط في كل تلك السنين وكان الاسقف ميخائيل ابن اخي البطريرك اشدهم معارضة لذلك لما قام في نفسه من الكراهية لحنا

فلما رأى حنا ملامح الغضب بادية على وجه الاسقف ميخائيل اسرع الى خارج واحتمى بالجمع المحتشد فتوسط الاساقفة في الامر واقنعوا ميخائيل بوجوب الصفح لاسيما في تلك الاحوال الشديدة فرضي بذلك فصالحوه مع حنا وادخلوا الكاهن حنا اليهم الى الدير وطيبوا خاطره ورقوه الى وظيفة ايغومانوس وهي اعلى درجة يستحقها حسب قانون الاكليروس

وبعد ذلك ببضع ساعات نما الخبر الى غبطة البطريرك وجميع الذين في الدير بان الخليفة قادم اليهم فطفقوا يبكون ويولولون ظنا منهم بان الساعة قد اتت لينتقم منهم . ولكن الخليفة دخل الى الدير وقابل البطريرك وناوله ورقة فتأملها واذا بها فرمان يقضي باباحة الحرية لجميع الاقباط ورد جميع

كنائسهم اليهم واعادة ماسلب منها من الذخائر والاواني والاعمدة وكذلك جميع الاطيان والاراضي الموقوفة وكل ماسلبه المسلمون من ايديهم وبالاجمال لم يهمل الخليفة فرصة لاعادة الاقباط الى سابق عزهم ومجدهم

وبذلك انقضى دور الاضطهاد الهائل الذي لحق الاقباط بقتل الخليفة الحاكم بامر الله . قتله اهل بلاطه اذ كادوا له فاغتالوه عند ما كان منفردا كعادته في جبل المقطم وهو يناجي ربه على زعمه . ولكن جثته لم توجد غير ان جثة رفيقيه اللذين كانا يلازمانه وجدت وعلى اثر ذلك اشاع بعض مريديه انه رفع الى السماء وسينزل في قابل الايام ولذلك ترى الدروز الى الآن يؤمنون بتلك الخرافة ويتبعون طريقة ذلك المبتدع المختل

وقد انشأ الخليفة الحاكم بامر الله هيئة علمية احتفل بافتتاحها سنة ١٠٠٥ مسيحية (٣٩٥ هجرية) وأسس مكتبة عظيمة فيها كثير من المؤلفات الرائقة في العلوم والفنون المختلفة وكان فيها كتبة ماهرون بالنسخ غير انها لم تلاق قبولا لدى المتأخرين لما كانوا يعتقدون فيه من الشذوذ عن قواعد الدين الحنيف

وقد بطلت هذه الهيئة من الوجود سنة ١١١٢ مسيحية ابطلها رجل يقال له الفضل لما رأى فيها من التعاليم المخالفة لعقائد الاسلام ولكن المسلمين اعادوها بعد ذلك الى سابق عهدها وأسسوها على قواعد متينة ولم تزل باقية حتى تلاشت بتقلص حكم الدولة الفاطمية في مصر

الفصل الثامن والاربعون

شنوده وخرستودوس

سنة ١٠٢٠ للمسيح و ٧٣٦ للشهداء و٤١١ للهجرة

قد مات الحاكم بامر الله كما اسلفنا مقتولا بمساعي اخته وقائد جيشه . وبويع بالخلافة مكانه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله وكان يعرف باسم الظاهر فقط وكانت عمته تدير شؤون المملكة في ايامه حتى مماتها . ولو ان هذا لم يحكم اكثر من ستة عشر سنة غير انه لا بأس من ذكر ما حصل للاقباط في ايامه

وتفرغ البطريرك زخريا لترميم ما تهدم من الكنائس وارجاع الحالة الى سابق رونقها وظل اثنتي عشر سنة يعمل بغير كلل ولا ملل فاعاد منها كثيرا وساعده على ذلك فرمان الحاكم بامر الله غير انه توفي ولم يصلح الا القليل وانتخب مجمع الاساقفة خلفاً له راهبا يدعى شنوده من رهبان دير القديس مقاريوس وكان وزير الظاهر والسيد بكر احد اشراف المسلمين محبين للاقباط . فعملا على اعفاء البطريرك الجديد من دفع الرسم المقرر على كل بطريرك عند سيامته وقدره ستة الاف دينار لكن اكليروس الاسكندرية ظنوا ان وراء ذلك ما وراءه فلم يرضوا ان يقروا على انتخاب الراهب شنوده بطريركا الا بعد ان رضي بتوقيع صك الجزية . وانما فعلوا ذلك خشية من بأس الحكام المسلمين وخوفا من انتقاضهم عليهم . على ان ليس

كل البطاركة كانوا راضين بدفع تلك الجزية لان البطريرك تيوفانوس طالما مقتها وتوسل الى الاكليروس ان لا يكلفوا الشعب بدفعها فذهب توسله صرخة في واد

وقد سر البطريرك شنوده باعفاء الحكومة له من الضريبة المقررة على البطاركة الجدد ولكن لما لم يوافقه الشعب كما قدمنا دفعها ولكن في مقابل ذلك قرر ضريبة على القسوس والاساقفة الجدد وكان البطاركة اسلافه يمقتون تلك العادة اما هو فخالفهم ولم يكن يسمح برسم اسقف او قسيس الا للذي يدفع في الوظيفة ثمنا اكثر من غيره . وقد أمن الاقباط في ذلك العهد من اضطهاد مضايقيهم فاشتدت الرغبة في الحصول على درجة الكهنوت وكان كل من بذل مبلغا من الدراهم اكثر من سواه يؤوب فائزا بغرضه

ورأى الاغومانوس حنا الذي كان فيما سبق كاهنا لكنيسة ابي نفر ولم ينجح في زمن البطريرك زخريا في الحصول على وظيفة الاسقفية ان الفرصة لائحة له في عهد البطريرك شنوده فبذل جهده في نوال غرضه ولكنه لما لم يكن اهلا لتلك الدرجة لم ينجح غير انه في ذلك الوقت خلت ابرشة العريش من اسقف لها فسيم عليها اسقفا وصار يدفع ستين دينارا سنويا لحصوله على تلك الدرجة وباع البطريرك شنوده اسقفية باتفيوس للاسقف رفائيل بالف ومئتي دينار واسقفية ليكوبوليس (اسيوط) للاغومانوس الذي فيها بمبلغ غير معروف ولما لم يرض عنه الشعب جاء الى البطريرك يطلب منه ان يقنع

الشعب بقبوله او ان يرد له الدراهم التي دفعها فابى عليه البطريرك كلا الامرين

ولم يقتصر شنوده على بيع الابرشيات للاساقفة لينعموا بها في حيوتهم بل قرر ان تكون جميع مقتنيات الاساقفة حقا للبطريكخانة بعد وفاتهم ولا يزال هذا القرار معمولا به حتى الان واول من وقع له ان ينفذ فيه مفعول القرار اسقف شنان فان البطريرك شنوده امر اخا الاسقف المذكور بان يسلم جميع ما كان لاخيه الى البطركخانة فتوسل ذلك الى البطرك ان يبقي له شيئاً يرتزق منه او ان يترك له منزله ليسكن هو فيه فابى عليه ذلك فاعتنق الرجل الديانة الاسلامية وتقاضى مع البطريرك امام المحاكم الشرعية فحكمت للرجل بأخذ مقتنيات اخيه جميعها فوقع ذلك الحكم اسوأ موقع لدى ذلك البطريرك.

وبالجملة كان تصرف شنوده المخجل في بيع الوظائف الكهنوتية وتحصيل الرسوم الباهظة مما أدى الى تجاوز الرسوم المقررة وجعل اصحاب المطامع يقدمون الدراهم بصفة رشوة للحصول على تلك المراكز وقد سرت هذه العادة بين جميع طبقات الامة القبطية . وفي السنة الثانية من جلوسه على كرسي البطريركية ابى دفع الاعانة المقررة للاسكندرانيين بدعوى ان ايراد البطريكخانة لا يكفي للمشروعات الاصلاحية فرفع وكيل البطركخانة الاسكندري الدعوى عليه لدى المحاكم فحكمت له بأخذ المبلغ المطلوب من ايرادات الاوقاف كل هذه المناقشات حصلت بين الرؤساء في عصر الحرية والعدالة الذي لم يتمتع بمثله الاقباط منذ ايام عمرو بن العاص . فهذه الامور

التي يخجل من ذكرها حر الشمائل بلغت مسامع القاصي والداني وناخبرها الى حضرة السيد بكر شريف المسلمين الذي كان له الباع الطائل في اعفاء البطريرك من دفع الرسوم المقررة للحكومة فهاله الامر وتوسط في فض الخلاف بين شنوده ووكيله الاسكندري وابان لهما سوء المغبة التي تنتج عن مثل ذلك التصرف فالقى شنوده اللوم كله على الوكيل واحتج بان مطالب الاسكندرانيين لا يمكن ان تسد بغير طريقة جمع الرسوم والضرائب فما كان من بكر الا انه تعهد ان يقوم هو وكبار الاقباط بدفع المبالغ اللازمة لسد مطالب الاسكندريين اذا كان هو واساقفته يكفون عن بيع الوظائف الكهنوتية فرضي البطريرك بذلك وكتب محضراً بواقعة الحال وامضى عليه وما عرض الامر على اساقفته وكانوا قد سبقوا فاخذوا تعهداً من بعض الراغبين في الوظائف الكنائسية ولم يفوا بوعدهم لهم بعد رفضوا ذلك العمل رفضاً باتاً وعدوا عملهم مقدساً وكان تصرف اساقفة الاقباط في ذلك العهد نظير تصرف اساقفة انكلترا الذين انكروا من عهد غير بعيد تداخل العلمانيين في شؤونهم

ومما خبر الخلاف الذي حصل بين اعضاء المجمع المقدس الى مسامع بكر الشريف فاسرع الى الدار البطريركية ورجا الاساقفة ان يذعنوا لنصحه ووقف بينهم خطيباً يذكرهم بسوء المغبة التي تنتج من عدم رضائهم بمشورة البطريرك وذكرهم بما كان من امانة البطريرك افرايم الذي يعهدون فيه القداسة وكيف انه كان يحرم استعمال تلك العادة القبيحة وختم قوله

بان المصائب التي تحل بهم من وقت الى آخر انما هي نذير من السماء ينبئهم بوجوب الكف عن الماوىء واتباع الحق

فلما انتهى بكر من كلامه اظهر شنوده ارتياحه الى ذلك القول والتمس من بكر ان يعيد اليه القرار الذي امضاه ليقرأه على مسامع الاساقفة ولما كان بكر يعهد فيه الامانة ناوله اياه مطمئناً فاخذه ومزقه امام بكر وجمهور الحاضرين وارفضت الجلسة على هذه الصورة المزعجة وذلك الشكل القبيح

غير ان الاساقفة الذين تفرقوا على مثل تلك الصورة اثرت فيهم بعض نصائح بكر الشريفة فاجتمع بعضهم وذهبوا الى بكر وشكوا اليه بمرارة سوء تصرف البطريرك وتردده في اصدار الاوامر وميله الى الابهة والتظاهر وأعلموه انه هو الذي اوجب تحصيل تلك الرسوم بقرار مقدس عند جلوسه على كرسي البطريركية ثم تفرقوا على وعد الاجتماع في كنيسة ابي سيفين للاحتجاج على تلك التصرفات وتابعهم في ذلك بعض العلمانيين اما شنوده فبقي في كنيسة القديس مخائيل مع رجال حزبه وبعد ذلك حصلت مناقشات عديدة بين الاساقفة اسفرت عن اعترافهم بصحة نصائح بكر فرغبوا في قبول تلك الاقتراحات وواقفوا على التوقيع على صورة القرار الذي مزقه البطريرك في المجمع المقدس

على ان شنوده الذي كان يرتكن في تمزيق القرار على معارضة الاساقفة لما رأى موافقة الاساقفة لبكر رجع الى العناد وتوجه في غد ذلك اليوم

الى الكنيسة التي اجتمع فيها الاساقفة والعلمانيون وقضى اليوم يبحث معهم في امور لم تعد بفائدة وبعد ذلك قابله بكر عميد المسلمين ووقف بين الاساقفة خطيباً يحثهم على طاعة البطريرك ويبين لهم مضار الشقاق وما زال يتناقش مع البطريرك حتى أقنعه بوجوب الرضى بامضاء ذلك القرار. فلما رأى البطريرك شدة عارضته وقوة حجته ووقوفه امامه موقف العاجز استشاط غيظاً وابى الموافقة على ذلك وانكر على بكر تداخله في المسائل المللية البحتة وامر رجاله ان يقبضوا عليه ويشبعوه ضرباً فقعلوا وتفرق الاساقفة ايدي سبا . كل هذه الاهانة حصلت لبكر الشريف ولم يتعرض المسلمون للاقباط باذى في ذلك العهد فما ابعد الفرق بين تلك الظروف السعيدة والظروف المكدرة التي كانت في عهد البطريرك زخريا وفي ذلك دليل على ان الاقباط لم يعرفوا كيف ينتهزون الفرصة ويتحدوا بدل الانقسام وهكذا بقي حال البطريركخانه مختلا وادارتها معتله كل زمان حياة البطريرك شنوده

ومات الظاهر سنة ١٠٣٦ مسيحية (٤٢٧) هجرية وبويع بالخلافة بدله ابنه المستنصر بالله وقد طال زمان حكم هذا الخليفة اكثر ممن تقدمه لانه ملك وهو ابن سبع سنين وبقي خليفة ٦٠ سنة وكان ضعيف الرأي كثير التقلب وامه سودانية الاصل باعها احد اليهود لابيه الظاهر وكانت وصية عليه هي وبعض الوزراء قبل ان بلغ سن الرشد

وكان للمستنصر عمتان لهما ثروة طائلة وهما اختا اول خليفة من الخلفاء الفاطميين وكان كل خليفة يتوقع موتهما ليتمتع باموالهما الا انهما عمرتا طويلا

وتوفيتا في زمن المستنصر فانفق من تلك الثروة مبلغاً عظيماً في تجديد جامع عمرو في الفسطاط وتغيير طرزه القديم وصنع فيه مشكاة (كوة غير نافذة) وجعل قبتها تجاه مكة وابدع في زخرفتها وبعد ذلك بقليل امر ببناء مأذنة عظيمة فيها وجعل فيه منبراً للخطابة وفي سنة ١٠٣٧ مسيحية (٤٢٩) للهجرة عقد المستنصر بالله معاهدة مع سلطان الاتراك موءداها ان يطلق هذا الاخير سراح اسرى المسلمين الذين اسروا في الحرب التي نشبت بين الدولتين بشرط ان يسمح الخليفة لسلطان الاتراك ان يعيد بناء كنيسة القبر المقدس التي خربتها يد الاضطهاد في زمن الحاكم بامر الله فقبل الطرفان بتلك المعاهدة وجددت الكنيسة على احسن مايكون من الرونق والرواء

وفي سنة ١٠٤٧ مسيحية او ٤٣٩ هجرية توفي البطريك شنوده اثر داء عضال وخلفه البطريك خرتستودس الذي يلقبه العرب عبد المسيح

واكب البطريك الجديد على اصلاح ماتخرب وكان الاقباط قد نهضوا في ذلك الوقت وجددوا خمس كنائس بغير تداخل الاساقفة فدشنها جميعها في يوم واحد ورسم في ذلك اليوم كاهناً وستين شماساً وكان الفرح شاملاً الجميع ودعا تلك الكنائس كما يلي كنيسة القديس يوحنا الانجيلي وكنيسة ماري مارقوريوس وكنيسة ماري مينا وكنيسة ماري جرجس وكنيسة ماري رفائيل وافتتح كنيسة ماري مرقس في اسكندرية وسن قوانين كنائسية ضمنها كل ماهو ضروري للاصلاح وجعلها دستوراً

عاماً لكل الكنائس القبطية في القطر المصري وبلغ عدد تلك القوانين واحداً وثلاثين قانوناً كانت على ما يقال افضل القوانين الكنائسية التي ظهرت من نوعها من بدء انفصال الكنيسة القبطية عن الكنائس اليونانية والرومانية وفي ذلك دليل قاطع على براعة البطريك الذي سنها وقداحيينا ان نأتي على مثال منها اظهاراً لاهميتها من تاريخ نيل الشهير

يمنع قطعياً عقد الزيجة في الصيام الكبير وكذلك العماد او دفن الموتى في يوم الجمعة الكبيرة (جمعة الالام) ويمنع أعطاء الرتب الكهنوتية في الاسبوع الاخير من عيد العنصرة ولا يجوز لاسقف تابع كنيسة آخرى خلاف الكنيسة القبطية الارثوذكسية المصرية ولا لكاهن او شماس ما ان يمارس خدمة مامن خدمات الكنيسة القبطية وينبغي حتماً ايجاب صيام الرسل وصيام الميلاد (الصيام الصغير) وصوم الاربع والجمعة من كل اسبوع ويمتنع تعميد اي طفل كان قبل ان يتناول الاسرار الالهية الا في حالة الخطر الشديد فانه حينئذٍ يكتفي الحال بالعماد بالماء فقط ويحظر على الاقباط ان يتزوجوا بغير الارثوذكسيات ويمنعوا من الاقتران ببنات الكنيسة الملكية الرومانية واذا تم شيء من مثل ذلك يكون لاغياً مالم يباشر عقد صيغة الاكليل كاهن من كهنة الكنيسة الارثوذكسية . واذا تخاصم شماس مع الكاهن الذي يناوله القربان فلا يجوز له ان يتناول عند خلافه (١) وكذلك الحال مع الاعضاء . ومن لم يرتض بحكم البطريكية

(١) وذلك لاجل دوام الالفة والسلام

واراد ان يستأنف دعواه لدي محاكم الحكومة فان كان كاهناً يفصل من وظيفة الكهنوت وان كان علمانياً يحرم من الكنيسة ولا يصنع القربان الا رجل طاهر مقدس وقد حصلت مناقشة كثيرة في عمل القربان تراها في ما يلي

ان خبز القربان الذي يوزع عادة في الكنائس عند تناول فريضة العشاء الرباني معروف لدى الجميع وهو عبارة عن خبز غير مختمر ولا مملح خال من الادهان والزيوت بالمرة ومختوم بختم باللغة القبطية فيه شكر لله. ولكن اهالي سوريا يضعون الزيت في قرابينهم اما البطريرك خريستدوس فانكر عليهم ذلك ونهى عن استعماله في الكنائس القبطية واتفق لهذا البطريرك انه كان يحتفل بقداس في كنيسة ابي سفين (طموه) وكان حاضراً يومئذ طبيب سوري له اتصال بالخليفة فاحضر قرباناً مما يصنع في بلاده وطلب من البطريرك ان يقدسه فابى عليه البطريرك ذلك وافهمه انه مغاير لقانون الكنيسة فاصر الطبيب على طلبه فامر البطريرك رجال الكنيسة ان يخرجوه منها غصباً فحصلت بينهم وبين رجال الطبيب مناوشة وصلت اذيتها الى الطبيب واخرج بالرغم عنه فكانت هذه الحادثة من اول اسباب العداوة التي قامت بين البطريرك والخليفة . وقد ساعد على القاء النفرة بينهما بعض اعوان الفساد الذين لم يكونوا ينالون من البطريرك مغنماً بما اتصف به من قوة الجنان والاستقلال بالرأي والعمل على كل ما هو صالح للكنيسة

وكانت احوال الكنيسة القبطية في عهد البطريرك شنوده سلف هذا البطريرك في غاية الاختلال ولم يكن الشعب يراعي الطقوس وكان بعض ذوي النفوذ من الاقباط يستعملون نفوذهم في قلب الكنيسة وتشويش نظاماتها وكان بعضهم ينكرون ايمانهم ويعتنقون الدين الاسلامي فلما تولى البطريرك خريستودوس اصلح من فسادها ورتب امورها. وحدث في عهده ان رئيساً من اكابر الاقباط موظفاً في الحكومة كان له ابن شرير فطرده ابوه من بيته بسبب شروره وعدم طاعته فذهب الولد واعتنق الدين الاسلامي ولكنه عاد بعد مدة فندم على مافرط منه واراد ان يكفر عن خطاياه بتوبته فالتجأ الى دير ماري مخائيل ولبس ملابس راهب ودعا نفسه نيقام (أي التائب) واتفق ان بعض رهبان ذلك الدير ارادوا الرحيل الى دير القديس مكاريوس بوادي البطرون فطلبوا اليه ان يذهب معهم فرضي في بادئ الامر ولكن تراءي له في عشية الرحيل ان الهروب الى البرية من وجه الذين يطلبونه وعدم اشهار مسيحيته في نفس النقطة التي انكر فيها ايمانه يعد من باب الجبن وضعف الايمان وان التكفير عن خطيته لا يقوم الا بالاعتراف الجهاري امام الذين انكره بينهم فتقوى بذلك ولبس لباس الرهبانية ونزل الى القاهرة واجتمع بالذين كان يجالسهم في اسلامه فلما شاهدوه رموه بالكفر وقبضوا عليه واوسعوه ضرباً وطرحوه في السجن فبذل ابوه جهد المستطاع في انقاذه فلم يستفد فعمد الى الارشاء لان بعضهم اخبره ان القاضي لا يسلم الا بالدراهم فلما وصلت النقود الى يد القاضي افتى بانه يجب على نيقام ان

ان يتظاهر بالجنون ويأتي الاطباء لفحصه ومتى قرروا انه مجنون يطلقون سبيله فذهب ابوه اليه في سجنه وافهمه ماوقع عليه التدبير واعلمه انه لايمكن ان يخرج من السجن الا بتلك الحيلة وانه لا بأس من العمل بها فاقتنع بذلك. فخرج والده يدعو الاطباء وبعد خروجه دخل احد الرهبان الى يقام واخبره ان هذه الطريقة مخلة بشرف الدين المسيحي وانه لايمكن ان يكفر عن ذنبه الا بالاعتراف الجهاري فان لم يعترف فقد اضاع اجره ولم يستحق ان يدعى شهيدا لان الايمان الحقيقي لا يبعث على الجبن بل بالحري يجرئ على الظهور بمظهر الرجولية والثبات فسمع يقام لقوله وعدل عما نوى ان يعمله فلما حضر الاطباء والشهود لم يبد شيئاً من علامات الجنون بل بالحري بقي رزينا عاقلا وزاد على ذلك ان اعلن الحاضرين باقامته على الدين المسيحي وايمانه بالاب والابن والروح القدس الله الواحد المثلث الاقانيم فاستشاط الشهود غيظا فقدموا تقريرا بذلك الى قاضي الاسلام فامر بقطع رأسه بغير امهال فقطع رأسه وأعليت جثته لذويه بناء على امر الخليفة ودفن بقرب كنيسة ماري مخائيل فلما حضر البطريرك خريستودوس الى مدينة بابليون امر باحضارها فاحضرت ودفنها هناك داخل الكنيسة بكل تجلة واحترام كما احتفل بالشهداء الذين تقدموه

وجال خريستودوس في جميع انحاء القطر المصري يتعهد الكنائس ويحيي معالمها ولكنه لم يبادر الى الغاء الرسوم الدينية ولذلك تقم عليه البعض واتهموه ببيع الرتب الكنائسية كالبطاركة الذين تقدموه ولكن كنائس كثيرة

بنيت في ايامه وخصوصا كنيسة دمنهور فانها اتخذها مقرا لكرسيه فامها الاقباط من كل فج وصوب فزادت عمارتها وظهرت برونق جميل غير انها لبعدها عن مركز الحكومة بالقاهرة لم ينلها اذى الاضطهاد

واول تهمة اوقعها المسلمون عليه انه بسبب نفوذه تجرأ ملك النوبة المدعو جرجس على قطع العلائق التجارية مع المسلمين وامتنع من ارسال الجزية المعتادة كل عام من الرقيق والظاهر انه الى ذلك الحين كانت عوامل السلام سائدة بين ملك النوبة والخليفة في مصر مذما ارسل المعز سفراءه اليها. وقد ارسل ايضا البطريرك خريستودوس اسقفا من قبله لتدشين كنيسة بنيت في عهد الملك جرجس سلطان النوبة. ولكن خريستودوس استعمل قواه في اقناع وزير الخليفة في مصر بان لا صالح له في قطع جزية النوبة وان لا دخل له مطلقا في شؤون النوبة السياسية فاقتنع الوزير بذلك الا ان المسلمين لازالوا يتحرشون بالاقباط نظرا لما رأوه من تمتعهم بالرغد في عهد بطريركهم النشيط

وفي سنة ١٠٥٢ مسيحية نقص منسوب فيضان النيل وكان الفيضان ايضا واطئا في السنتين السابقتين فساءت الحال ووقع القحط والغلاء فاضطر الخليفة المستنصر ان يكاتب قسطنطين العاشر امبراطور اليونان ليمده بالقمح فارسل اليه سفنا كثيرة تحمل قمحا وفي السنة التالية مات الامبراطور فابت زوجته ان ترسل اليه قمحا الا اذا عقد معها المستنصر محالفة هجوم ودفاع ضد الممالك الاسلامية فابى عليها المستنصر ذلك فرفضت امداده بالحنطة فبلغ

الجوع اشده في مصر ونزل الوباء في الناس فزاد فتكه عن حد القياس . وبالنظر لاشتغال المستنصر بالوباء والمجاعة ومراسلته امبراطور وامبراطورة اليونان بقي خريستودوس في دمنهور آمنا كيد الاعداء ونجى من الاضطهاد فاتفق ان احد قضاة المسلمين مر بديمورا أي دمنهور (١) قاعدة كرسي خريستودوس فاندهش مما رأى من عمارتها وحسن رونقها فكتب الى وزير المستنصر وبالغ في وصفها ووسمها بالقسطنطينية الثانية وانه قد بنيت فيها سبعة عشر كنيسة حديثاً عدا عما كان فيها قبلاً وذكر ان المنزل الذي يقطنه البطريرك فخيم منقوش عليه عبارات تهين الدين الاسلامي فارسل الوزير يستفسر عن تلك العبارات المهينة وارسل القاضي الذي بلغه الى هناك ليقرأها ويتأكد من صحتها فذهب اليها فرأى منقوشا على واجهة منزل البطريرك البسلمة المسيحية وهي « بسم الاب والابن والروح القدس الخ » فامر البطريرك ان يمحوها فلم يعارض في ذلك الا انه قال له ان محوها من على السور لا يمحوها عن صفحات قلبي فعاد القاضي الى القاهرة واخبر الوزير بما كان واستصدر منه امرا يقضي بهدم جميع الكنائس في الوجهين البحري والقبلي

وأناط ذلك برجلين من المسلمين الا انه لسوء حظ اهالي الوجه البحري كان المنوط بنفاذ الامر مشهورا بشدة بغضته للمسيحيين فخرب

(١) عرف نيل المؤرخ ديمورا بهرمو بوليس بارفا او دمنهور ولكن ذلك التعريف بغير اساس وذكرها كارتمير المؤرخ فقال انها تدعى تيمورا وهي مدينة في اقليم الغربية شمال الدلتا

كنائس دمنهور واقفل سائر الكنائس في الدلتا وفرض على الاقباط دفع ضريبة سبعة آلاف دينار في نظير تمهله عليهم في اقفال الكنائس ولكنه بينما كان جاداً في اثر ذلك وقع عن جواده بغتة فقتل لساعته وكان موته سبباً في انفراج الازمة عن الاقباط

اما اقباط الاسكندرية فكانوا أسعد حالا من اقباط دمنهور لان والي الاسكندرية كان مشهورا بالعدل والرفق بالرعية فلما صدر اليه الامر بالتخريب والسلب أرسل الى أحد رجال الكنيسة المرقسية وأطلعه على حقيقة الامر وطلب اليه ان يخبيء كل نفيس وغال تلك الليلة فاهتم الاقباط بنقل النفائس والامتعة الثمينة ولما جاءت جنود الوالي في الصباح لتكبس الكنيسة لم تجد فيها شيئاً غير بعض الحصر والستائر فكتب الوالي الى المستنصر يعلمه بالواقع ويخبره بان أقباط الاسكندرية فقراء لا يقدرون على دفع الستة آلاف دينار المضروبة عليهم فأمر الخليفة بتخفيض المبلغ الى الف دينار فقط فدفع الاقباط نصفها والنصف الآخر دفعه اليونانيون سكان الاسكندرية وسلم رجال المستنصر الى بطريرك الاقباط مفاتيح كنيسة واحدة لاقامة شعائر العبادة فيها وتركوا له بيت انيافوس وهو أول رجل تتلمذ مع ماري مرقس كاروز الديار المصرية وذكر كاترمير المؤرخ نقلا عن كتاب مخطوط ان رأس يوحنا المعمدان التي كانت محفوظة الى ذلك الوقت في اسكندرية خبأها الاقباط خوفا من وقوعها في ايدي المسلمين

وعاد المسلمون الى اضطهاد الاقباط بشدة فألقوا القبض على البطريرك ووجدوا في خزينته ستة آلاف دينار فنهبوها واقتسموها ثم أطلقوا سراحه بتوسط ذوي النفوذ من موظفي الحكومة الاقباط

وفي تلك المدة التي حكم فيها المستنصر ولى اثنى عشر وزيرا بالتتابع وكان يعزلهم لعدم امانتهم وظهور الخيانة في اجراآتهم وذلك بعكس الاقباط الذين كانوا يظهرون الامانة والاجتهاد فلم يكن للحكومة غنى عنهم وكثيراً ماقام المسلمون عليهم وأشاروا بخلعهم من وظائفهم فخلعوا عشرات ومئات ولم يلبثوا ان عادوا اليها مبجلين اذ لم يكن في المسلمين من يقوم مقامهم في حل المسائل العويصة والقيام باعمال حساب الحكومة

وفي ذلك الوقت اصيبت مصر بحادث مريع فانها حلت بها زلزلة هلك بها نحو ٢٥ الفاً من السكان على اقل تقدير

الفصل التاسع والاربعون

بدر الجمالي الارمني

سنة ١٠٦٥ مسيحية و٧٨١ للشهداء و٤٥٨ للهجرة

لما كانت ام الخليفة المستنصر سودانية الاصل كما ذكرنا في الفصل الماضي كان ميلها الى ابناء جنسها أمرا طبيعياً فما زالت تستخدم السود

في الوظائف الاميرية حتى غصت بهم دواوين الحكومة ونظمت منهم فرقاً عسكرية من الجيش وجعلت الحرس الملوكي منهم فاغتاظت جنود العرب والاتراك من ذلك وقامت المنافسات بين الفريقين من ذلك الحين وتحزب العرب والاتراك على السودانيين وناصبوهم العداء ووقعت بين الفريقين مذابح دموية عجز الخليفة القاصر ووالدته عن اخمادها

وتحرير الخبر انه بينما كان المسلمون يحتفلون بسفر الحجاج الى مكة في مكان يقال له بركة تحميره المعروفة الان ببركة الحج سكر أحد الجنود الترکية فشهر سيفه على أحد السودانيين فتألبت الجنود السودانية عليه وأوردوه حتفه فانفجر بركان العداوة القائمة في نفوس الفريقين واحتاطت الجنود التركية والعربية بقصر الخليفة تطلب طرد السودانيين من خدمة الجيش فخاطبهم الخليفة يريد اقناعهم بالعدول عن ذلك الطلب فلم يفلح فارسل اليهم مندوبين لمصالحتهم فلم يذعنوا ومنذ ذلك الوقت نشبت الحروب الشديدة بين الطرفين وكان النصر يتراوح فيها بين الفريقين . واظهرت والدة الخليفة ميلها الى نصرة السودانيين وامدتهم بالجنود والذخائر ففازوا على الاتراك فوزا مبينا غير ان الاتراك عادوا فلموا شعثهم وهجموا على السود مستقتلين فدحروهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً في ذلك اليوم وانتصر حزب الاتراك والعرب على السودانيين انتصارا باهرا وطردوهم الى الصعيد الاعلى فتبعهم اكثر من خمسة آلاف نفس من السودانيين القاطنين بالقاهرة وسرت هذه القلاقل في شمالي أفريقيا وامتدت الى سوريا ولم

يكن الخليفة ذا بطش يمكنه من كبح الثائرين فطمع فيه اتراك مصر وصاروا يغتابونه

وفي ذلك الوقت قام أحد الفاتنين وادعى انه الحاكم بأمر الله بعث من الرمس فتألب حوله كثيرون وسبب قلقاً لرجال الحكومة ولكن حكومة المستنصر شمرت عن ساعد الجد على غير عادتها وقمعت تلك الفتنة وأعادت السكينة الى ربوع البلاد . ولما رأت والدة الخليفة ان الوزراء متواطئون عليها وانهم غير مخلصين في خدمة البلاد شددت النكير عليهم ورأى الخليفة ان ليس له نفوذ في قصره فحدثته نفسه بالتنازل عن الملك الاسمي والتخلص من صلف امه وعنادها وذهب الى الفسطاط ليقضي باقي حياته بالزهد في جامع عمرو ولكن والدته لم ترض بذلك بل أرسلت وراءه في الحال فردته

وكانت ظروف الخلافة في تلك الايام على غير مايرام ولقي الاقباط والمسلمون في عهد ذلك الخليفة جهد البلاء وكان الاقباط اشدهم ويلا طبعاً وعظم نفوذ ناصر الدولة قائد الاتراك بعد نصرته على الجنود السودانية وطردها الى الصعيد الاعلى فطمعت نفسه في الخلافة فسعى لذلك باكتسابه ثقة والدة الخليفة التي اغترت بدهائه وجعلت امره نافذا في كل دواوين الحكومة حتى صارت اوامر الخليفة غير نافذة الا على حاشيته فقط .

ومد ناصر الدولة يده الى الخزينة واخذ منها الاموال وفرقها على الجندية وطمعت الجنود التركية فضجت وتألبت حول قصر الخليفة وطلبت ان

تصرف لها الرواتب الطائلة وتهددوه فخاف من ذلك وافرغ اموال الخزينة بين ايديهم وهكذا اضاع بضعفه ما جمعته اسلافه في ظرف مئتي سنة بالظلم والقسوة . واما مناجدول ببيان النفائس والمجوهرات الثمينة التي اخذتها الجنود التركية واقتسمتها مما لا يسعنا الاتيان عليه تفصيلا . ومن جملة تلك النفائس خريطة مطرزة باسلاك الذهب الابريز مرسوم عليها جميع ممالك الارض بجبالها وأنهرها ومدنها وشوارعها ومرصعة بالحجارة الكريمة وكان قد امر الخليفة المعز بصنعها فصنعت له

فكل هذه النفائس وما تحتوي من المصوغات والمجوهرات وماكان يهديه سلاطين الارض وملوكها للخلفاء لعبت بها ايدي الضياع في اسبوعين من الزمان واخذته جنود الاتراك التي لا تعرف له قيمة . هذا عدا كثير من انواع الاسلحة والدروع مما كان محفوظا في متاحف الخلفاء

واتفق ان الذي كلف بنقل الاثار لم يعتن بها الاعتناء الواجب فشبت النار في تلك النفائس والمفروشات الباقية فالتهمتها عن بكرة ابيها ولم يبق من كل ما للمستنصر الا المكتبة الملوكية وهذه ايضا لم تسلم من العبث فان ناصر الدولة امر جنوده بنهبها وكان فيها مئات الوف من المجلدات فاخذها الجنود الجهلة وكانوا يتسلون بتمزيقها كما يتسلى الاطفال بتمزيق الاوراق

وكان حاكم الاسكندرية احد القواد الذين عهد اليهم بنهب قصر المستنصر فعني هذا بجميع الكتب الثمينة وحملها الى الاسكندرية ولما كانت الفوضى قائمة في البلاد التقى بحامليها عصابة من اللصوص فبددوا شملهم

واستولوا عليها ونزعوا جلودها وانتعلوها !اما الاوراق فاطلقوا فيها النار وما بقي طرحوه في الصحراء فحملتها الرياح وبقيت الاوراق منتشرة على وجه الارض مدة حتى اطلق الناس على ذلك المكان تل الكتب

وظل ناصر الدولة الحاكم المطلق يجور في الرعية ويستبد بالامر والخليفة المستنصر في قصره كالسجين لا يأوي اليه احد من ذوي النفوذ حتى كره الناس ناصر الدولة لما بدا من استبداده فانقلب عليه اعوانه ومريدوه واشهروا عليه حرباعوانا فانتهز المستنصر تلك الفرصة وترأس الحزب المضاد فنشبت معركة بين الفريقين اجلت عن فوز المستنصر وهروب ناصر الدولة الى حدود الجيزة وهنالك لم شعثه ورتب جيوشه وعسكر على ضفة النيل الشرقية تجاه جيوش المستنصر التي كانت على الضفة الغربية بين بابلون والفسطاط جنوبا ومصر العتيقة والقاهرة شمالا . في ذلك المكان الزاهر المملوء من الحدائق الغناء والرياض الفيحاء والقصور والعامرة نشبت الحرب بين الفريقين فتحولت الى قفار وخرائب وانجلت الموقعة عن انهزام جيوش ناصر الدولة فهرب الى الاسكندرية بمن بقي معه وتحصن فيها

وبعد ذلك خطر له ان يحالف بعض القبائل التي على الحدود التي طالما عاثت في بلاد الدلتا فسادا فخلقها وجمع منها جيشا عرمرما وزحف به على القاهرة لسلب الملك من يد المستنصر فكانوا وهم زاحفون اليها ينهبون ماوصلت اليه ايديهم من مال ومتاع ويسومون الاهالي خسفا وعذابا لا يطاق ويمنعونهم عن تطهير الترع وسقي الاراضي فبارت واقحلت التربة واشتدت

بدهم على الاقباط خصوصا فهاموا على وجوههم في البراري والقفار وما زال الجند يضطهدونهم حتى بلغوا وادي النطرون فهدموا كنائسه وخربوا صوامعه وذبحوا الرهبان الذين فيها ووقع البطريرك خريستو دوس اسيراً في ايديهم فاختطفوه من الدير واوسعوه اهانة وتعذيبا ولكن الله دبر له طريقا للنجاة . ذلك ان رئيس كتبة ناصر الدولة كان قبطياً يدعى ابا الطيب هذا توسل الى ناصر الدولة ان يطلق سبيل البطريرك فعمل اكراماً لخاطره ودفع ابو الطيب ٣ آلاف دينار فدية له . وبعد ذلك سعى ابو الطيب في انقاذ حاكم طنتندا (طنطا) وقد كان مستخدماً عنده قبلا فلم يصل اليه الا وكان جنود ناصر الدولة قد مزقوه شر تمزيق فحمد الله الذي الهمه ان يسعى في نجاة البطريرك اولاً

وبعد ذلك التقت جيوش ناصر الدولة بجيوش المستنصر وقامت الحرب بينهما سجالا تراوح النصر فيها بين الفريقين واخيراً تضعضع حال جيوش الخليفة فطمع ناصر الدولة بأخذ الخلافة ولكنه خشي مزاحمة بدر الدين الجمالي والي سوريا له فيها فاراد ان يحتاط لذلك فدعا رجلا يقال له طاهر من الاشراف ووعده ان يوليه الخلافة اذا هو عمل على قتل بدر الجمالي حاكم سوريا فاغتر طاهر بذلك فذهب الى سوريا ولكنه لم ينجح في مهمته

وبقي ناصر الدولة وجنوده يعيثون في الارض فسادا وطغت القبائل المحالفة له ايما طغيان ولا سيما في الخمس سنوات الاخيرة من حياته اي بين ١٠٦٤ و١٠٦٨ مسيحية وكانت الجنود تعترض المارة في السبل

والشوارع والطرق لنهب ما بأيديها لافرق في ذلك بين مسلم وقبطي فاهملت الترع ولم يتم النيل بري الاراضي وتراجع السكان عن الزراعة والصناعة وكان همهم الوحيد ان يسدوا رمقهم ورمق عيالهم باية طريقة ممكنة فساءت الحال وعم الوبال فنشأ عن ذلك مجاعة عظيمة شمل ضررها القاصي والداني فقضي عدد عظيم من السكان . وبلغ في ذلك الوقت ثمن الرغيف الواحد خمسة عشر دينارا وثمن البيضة دينارا وثمن القط ثلاثة دنانير والكلب خمسة دنانير وعزوجود القطط والكلاب فاشتدت المجاعة بالناس حتى حتموا على احدهم الاتجار باللحوم البشرية فكان ذلك الغوي يخدع النساء والاطفال ويذبحهم ويبيع لحومهم وفنيت جميع الخيل والبغال والحمير ولم يبق للخليفة غير ثلاثة خيول فقط ونبشت الناس قبور الخلفاء واخذوا النفائس التي فيها واشتروا بها قوتا وتطاولوا الى ما في اعناق نساء الخليفة ومازال الناس يجردونه من كل ما له حتى بلغت به الفاقة الى درجة الاستعطاء فطلب احسانا من بعض النسوة وكانت مشهورة بالغنى ولكنها سبقت فوزعت ثروتها على المحتاجين والبؤساء فعز عليها ان ترفض طلبه فامرت له بصحن شوربة كل يوم لسد جوعه اما نساؤه فانهن همن على وجوههن يستجدين فخرجن من القصر مكشوفات الرؤوس حافيات الاقدام مولولات نادبات سوء الحالة ولم يكدن يخرجن من القصر حتى خارت قواهن من الجوع فسقطن الى الارض وماتت الواحدة بعد الاخرى فجاء الجياع والتهموا لحومهن ولا التهام الجوارح جثث القتلى

واتفق ان الوزير قصد قصر الخليفة راكبا بغلته فاعترضه بعض الجياع ورجلوه واخذوا البغلة وذبحوها واكلوا الجميع نيئا وامتصوا عظامها فهرب على قدميه جازعا حامدا ربه على خلاصه من ايديهم وبعد ثلاثة ايام عثروا بثلاثة من جنوده منفردين فقبضوا عليهم وذبحوهم وكشطوا لحومهم عن عظامهم فلما مر بهم الوزير في الصباح رأى هياكلهم فعلم انهم قد صاروا طعما لاجواف الجياع

وفي ذلك الوقت فسدت الاهوية من الجيف فتفشى الوباء في الناس وصار يفتك بهم فتكا ذريعا فكانوا يموتون الوفا وربوات كل يوم وبلغ الوباء اشده في الفسطاط وبابليون فان معدل الوفيات كان عشرة في المائة يوميا وتحالف الوباء والجوع على مدينة تانيس المدعوة الان (صا الحجر) بمديرية الشرقية فاهلكا جميع سكانها ولم يبقيا بها غير مئة نفس وهلك اسقفها المدعو ميخائيل جوعا مع قطيعه المساكين

ولما اشتد الحال بالسكان ارسل الاقباط الى الملك جرجس ملك النوبة يطلبون منه امدادهم بالمؤونة وكان ملك النوبة يومئذ قد ارسل رجلا يدعي بامون ليرسمه مطرانا على النوبة فرسمه واوصاه ان يخابر الملك في شان المدد فلما وصل الى هناك رفع اليه تقريرا بالحالة السيئة التي بات فيها الاقباط في مصر فاخذته الشفقة عليهم وارسل اليهم شيئا كثيرا من الزاد . فلما وصل الوفد الذي يحمل المؤونة الى حدود مصر اعترضهم ناصر الدولة بجنوده وارغمهم على العودة من حيث اتوا فعادوا آسفين وطغى

ذلك الوزير حتى منع كل امداد يرد من الخارج فعم البلاء وأشتد الويل

وروي في تلك الايام ان امرأة قبطية حضرت من القاهرة الى الفسطاط تحمل عقدا نفيساً يساوي الف دينار وجالت تلتمس استبداله ببعض الدقيق فشفق عليها بعضهم وأخذه وأعطاها كيس دقيق عوضا عنه ففرحت بذلك فرحا لا يوصف وخوفها ان لا تصل الى منزلها سالمة استأجرت رجالا ليوصلوها الى منزلها في حارة زويلة فساروا من حولها يحملون السيوف والحراب وهم فرحون لانهم مزمعون ان ياخذوا اجرتهم شيئا من الدقيق فلما وصلت الى باب الزويلة صرفتهم ووزعت عليهم شيئا من الدقيق فمضوا فظنت انها امنت شرور القوم لانها صارت على مقربة من منزلها ولكن الناس لم يلمحوها الا وانقضوا عليها انقضاض الشواهين ومزقوا منها الكيس تمزيقا واخذوا ما فيه ولم تنل منه الا مقدار ما يكفي لصنع رغيف واحد

فعملت المرأة ذلك الرغيف وصعدت به على سور المدينة ورفعت صوتها مولولة وصاحت بالناس هلموا ايها المطمئنون انظروا الى ما وصلت اليه حالنا من السعادة ان هذا الرغيف الذي بيدي قد كلفني الف دينار فاشكروا الخليفة على ما اوصلكم اليه من الراحة واليسار. فبلغ ذلك الكلام مسامع الخليفة فاشتدت به الحال وتكدر من وخزات الضمير فامر باحضار رئيس الشرطة وعنفه تعنيفا عظيما واقسم انه ان لم يدبر طريقة لايجاد الخبز في اسواق المدينة باثمان معتدلة ليقطعن رأسه ويامر بنهب املاكه

فخرج مأمور الشرطة من لدن الخليفة حائراً وفيما هو يضرب اخماساً لاسداس فتقت له الحيلة ان يستدعي تجار القمح الذين كان يعهد ان لديهم شيئاً من الغلال وهم يضنون بها ولا يظهرونها الا للذي يدفع فيها ثمناً طائلا فاحضرهم وأحضر ثلاثة أنفار من المسجونين المحكوم عليهم بالاعدام بصفتهم تجار أيضاً ولما مثلوا لديه صاح في أحد المجرمين قائلاً لماذا تخفي القمح ايها الرجل الطماع والمجاعة قد أهلكت الناس أو لست تخاف الله ويوم الدين وأمر السياف بقطع رأسه فأطاره في الحال وهكذا فعل مع الثاني والثالث فارتعدت فرائص التجار الحقيقيين فلما قدم أحدهم صاحوا جميعاً بصوت واحد يطلبون العفو ويظهرون استعدادهم لاخراج الحنطة وبيعها في الاسواق بالثمن الذي يقدره فقام معهم من فوره فاخرجوا الحنطة والدقيق وباعوها في الاسواق بالاثمان التي قدرها رئيس الشرطة وذهب من فوره فاخبر الخليفة بما كان فشكره على ذلك وانفرجت الكربة الى حين ولكن لم يدم الحال على هذا المنوال طويلاً لان الحنطة فرغت ولم يرد المدد من خارج لان ناصر الدولة قطع كل مدد عن البلاد وحاصر الثغور والحدود نكاية في الخليفة قاصدا خلعه والاستيلاء مكانه

وبعد ذلك قام ناصر الدولة في نفر من رجاله ممن كانوا معسكرين في الصالحية ودخل القاهرة وطلع الى الخليفة المستنصر في قصره فرآه متوشحاً بالثياب البالية جالساً على حصيرة في حالة يرثى لها فشمت به

وسلط عليه جنوده فاهانوا والذته اهانة عظمى وخطر له في ذلك الوقت ان يستأثر بالخلافة وكان له صهر يقال له دكوز خصماله فاظهر الفرح بقدومه خشية من بطشه وصالحه وما زال به حتى تمكن منه وقتله ذات ليلة شر قتلة فخلصت البلاد من شره ولكن المستنصر لم ينج من كيده حتى وقع في كيد احلافه سنة كاملة وكان موت الوزير ناصر الدولة سنة ١٠٧٣ مسيحية

ولما سئم المستنصر من تلك الحالة استجد ببدر الجمالي والى سوريا وكان من عتقاء المستنصروهو أرمني الجنس الا انه لم يعتنق الدين الاسلامي بل بقي على عقيدته الاصلية (١)

وكبر بدر الجمالي في بلاط الخليفة وصار ينشؤ على قيادة الجيوش والنبوغ في الحرب حتى ولاه المستنصر على سورية فحكمها وأحسن ادارتها وظل خاضعاً لمولاه مع الاستقلال في ادارته

فعمد الخليفة المستنصر الى مخاطبته سراً واكدله انه اذا قطع دابر الاتراك يوليه حاكما على مصر فقبل بدر الجمالي بذلك واشترط على المستنصران يولي في مصالح مصر من يثق بهم من رجاله السوريين فقبل المستنصر بذلك وتأهب بدر الجمالي لتجريد حملة على مصر وصمم على

(١) يصعب على المؤرخ ان يتاكد من صحة نصرانية بدر الجمالي بعد بلوغه. الا ان الامير المسيحي الذي يشير اليه ابو صالح المؤرخ بانه كان سيد مصر حينئذ انما كان هو الملقب بتاج الدولة

دخولها من طريق البحر رغماً عن اعتراض قواد جيوشه وقصد بذلك ان يفاجيء الاتراك العصاة مفاجأة فقام بجيوشه بحراً وقصد الديار المصرية حتى وصل الى ثغر دمياط وانزل بها الجنود وسار في الدلتا بغير معارض حتى دخل القاهرة وكان ذاك سنة ١٠٧٤ مسيحية فلما علم الاتراك بما كان ظنوا ان مدعياً بالخلافة قام يزاحم المستنصر عليها فهالهم الامر ورأوا في نظام جيوش بدر الجمالي ماثبط عزائمهم فلذلك قصدوا ان ينضموا اليه

اما بدر فلما رأى ذلك عمد الى اخذهم بالحيلة فلما قدم اليه كبارهم اولم لهم وليمة عظيمة وكان قد اوصى جنوده ان يبطشوا بهم ورتب لكل جندي من الذين اقامهم على هذا العمل اميراً يقوم بقتله وفي نظير ذلك يعطيه سلبه وقصره فسر الجنود بذلك سروراً لا يوصف وبعد انتهاء الوليمة خرجوا الى منازلهم مطمئنين وكان كل واحد من الجنود المعينة لهذا العمل بازاء الامير المخصص له فبطش كل جندي باميره واما توهم قتلاً بالسيف فلما اصبح الصباح ورأى بدر الجمالي ما كان من امر جنوده برلهم بوعده واعطاهم غنائم الامراء ونفائسهم واسرع الى الخليفة المستنصر يبشره بنجاح تلك الخديعة ولم يكن قد لاقاه مذ يوم تولى الحكم على سورية فلما لقيه الخليفه قبله في عارضيه وولاه الصدارة العظمى ولقبه بامير الجيوش

وبعد ذلك وجه بدر الجمالي همته الى اعادة سلطان الخليفة على البلاد واخضاع الرعية له وكان انصار ناصر الدولة لايزالون منبثين في طول

البلاد وعرضها تحت قيادة اثنين من زعمائهم احدهما جعل مركزه الاسكندرية والآخر دمياط وظلوا يعيثون في البلاد فساداً حتى ابادوا معظم سكانها نهباً وقتلاً فسير بدر الجمالي عليهم حملة قوية فانتشب القتال بين الفريقين وانتصرت جنود بدر الجمالي على جنودهما ايما انتصار فتفرقوا ايدي سبأ وا كتسحتهم جنود بدر الى ماوراء حدود الديار المصرية واستراحت بلاد الوجه البحري من شرهم . ومن ثم اخذ بدر يكتسح العصاة الذين صيروا البلاد فوضى في سائر انحاء البلاد حتى عمت الطمانينة وغنم من الاعداء شيئاً كثيراً من الاسلحة والذخيرة وسبى نساءهم وسلب خيولهم وفرق اجودهن على جنوده وباع الباقيات بيع السلع في القاهرة فكان يبيع المرآة بدينار والجواد بدينار ونصف

ولما راى الفلاحون رجوع المياه الى مجاريها سروا بما نالهم من تلك النعم وخصوصا وعد بدر لهم بأنهم لا يدفعون ضرائب مدة ثلاث سنين فعادوا الى فلح الاراضي واستثمارها بعد ان بارت زماناً طويلا

ولما استقرت الخلافة للمستنصر وثبتت قدمه في البلاد نما خبره الى سكان مدينة مكة فرجعوا الى سابق عهدهم واعترفوا به اميرا للمؤمنين بعد ما كانوا يعترفون بخليفة بغداد وقاموا على الكسوة النبوية السوداء التي وضعها خليفة بغداد ومزقوها واستعاضوها بكسوة خليفة الفاطميين البيضاء بمصر

ومع ان بدر الجمالي كان يميل الى المسيحيين الا انه لم يظهر ذلك الميل

اليهم واتفق ان احد تجار المسلمين وشى له بان فيكتور مطران النوبة امر بهدم جامع للمسلمين هناك فاهتاج بدر الجمالي لذلك وامر بالقبض على البطريرك خريستودوس والقى عليه تبعة ذلك العمل فبرهن له البطريرك فساد ذلك بقوة غريبة فاقتنع بقوله واخلى سبيله

واتفق بعد ذلك ان زعيماً من زعماء اللصوص جمع له عصابة قوية كان يناوش بها جنود بدر الجمالي في الصعيد وكان القتال سجالا بين الفريقين والنصر متراوحاً بينهما فلما رأى بدر وجه الضرر من ذلك سير عليه قوة عظيمة فلما رأى ذلك الزعيم الشر باديا هرب الى بلاد النوبة فارسل وراءه تجريدة وبعث مندوبين من قبله الى ملك النوبة يطلب منه تسليم ذلك الثائر وطلب من البطريرك ان يبعث اسقفا من قبله الى ملك النوبة ليسرع في الامر فاجاب البطريرك طلبه وعين لذلك اسقفا يدعى مرقوريوس فقام مع مندوبيه وابلغ ذلك الى ملك النوبة فقبض على ذلك الزعيم العاصي وسلمه اليهم فجاؤا به الى القاهرة ودفعوه الى امير الجيوش فأمر باعدامه فاعدموه خارج النقطة المعروفة الان ببوابة الحديد

وانتظمت بلاد مصر واخذت في الرقي والتقدم بفضل عناية بدر الجمالي غير انها عادت الى شيء من الفوضى لان فاتحا جديدا من الاتراك يدعى عبد العزيز ظهر في فلسطين حينما كانت جنود امير الجيوش مشتبكة في مطاردة العصاة في صعيد مصر سنة ١٠٨٦ مسيحية . فانتهز عبد العزيز المذكور فرصة غياب بدر الجمالي عن سوريا وقدم اليها وافتتحها بغير كبير

مقاومة ودخل دمشق والقدس وطبريه ورحل الى مصر بأربعين الف مقاتل وظل يتقدم بجيوشه بغير معارضة حتى عسكر قرب القاهرة قبل ان يتمكن بدر الجمالي من أستقدام جيوشه . فوقع بدر في ورطة عظيمة فعمد كعادته الى الحيلة والدهاء وبدأ يظهر الوداد نحو عبد العزيز المذكور ودارت المخابرات بينهما على ان يدفع بدر الى ذلك الفاتح مبلغاً من المال نظير نفقة حملته على سوريا والديار المصرية في نظير جلائه عن البلاد وظل بدر يماطل في الوعد ويطيل في امد المخابرات وهو في اثناء ذلك يحث جنوده المرابطة في اعالي الصعيد على التأهب لمنازلة العدو باسرع ما يمكن حتى قدمت اليه الجنود . واتفق ان عدداً عظيماً من الحجاج وصل الى القاهرة على نية المسير الى مكة فركب بدر الى استقبالهم واخبرهم بذلك الغازي ووقف فيهم خطيباً يحثهم على الجهاد ومعاونته في انقاذ البلاد من يديه فأثر عليهم ببلاغته فانصاعوا لقوله وانتخب منهم ثلاثة الاف نفر ووزع عليهم الاسلحة وأخذ يخابر بعض العربان الذين انضموا من أطراف البلاد الى جيش عبد العزيز ويرغبهم في الغنائم والاموال فسمعوا له وجاؤه بانصارهم فانضم اليه جمهور كثير من الجند وفي ذلك الوقت جاءته جيوشه المرابطة في الصعيد فاجتمع لديه جند كثير العدد فاقتادهم بنفسه وباغت بهم صفوف العدو وأبلى فيهم بلاء حسناً فتفرقوا طرائق وتمزقوا حذائق بعد ان قتل منهم مقتلة عظيمة فقروا من امامه تاركين اشلاءهم في حومة الميدان وعشرة آلاف من الصبيان والصبايا كانوا قد سبوهم من سوريا

ليبيعوهم في مصر بيع الرقيق

وبعد ان استراحت البلاد ولم يعد يكدر صفوها مكدر استراح بدر الجمالي من المتاعب والتفت الى تنظيم داخلية البلاد فبنى سور القاهرة والابواب الثلاثة المعروفة بباب الزويلة وباب الفتوح وباب النصر وعكف على تجديد الجوامع المتداعية وبنى جوامع جديدة بالقاهرة والاسكندرية وجزيرة الروضة ثم تمرد عليه اثنان من العامة والتف عليهما خلق كثير فسير عليهما حملة عظيمة بقيادة ابنه فكسرتهما شر كسرة واسرتهما فقطع رأس احدهما والقى الآخر في غيابة السجون

وفي ذلك الوقت وشى بعضهم الى امير الجيوش بان كيرلس مطران الحبشة الذي كان يدعى قبلا ابنا عبدون يغرر بمسلمي الحبشة الضعيفي الايمان ويدعوهم الى شرب الخمر معه عند تناول الطعام . فقبض بدر على البطريرك خريستودوس بصفته رئيساً لذلك المطران ليعاقبه عوضاً عنه . ولحسن حظ البطريرك لم يكن كيرلس المذكور قد سيم بعد مطراناً فدفع البطريرك عنه هذه التهمة وصرح بانه لم يرسم بعد وانه مرشح فقط ترشيحاً ليس الا وانه عتيد ان يرسل الانبا مرقوريوس الطيب الذكر الى الحبشة ليرسم كيرلس المذكور مطراناً وينهاه عما نوى ان يفعل ان كان ماشاع عنه حقا فاقتنع أمير الجيوش بذلك وأطلقه . وفي تلك الايام نما غيظ المسلمين من الاقباط وازداد حسدهم للبطريرك خريستودوس لما شاموه من نفوذه على الحبشة والسودان وكان الحكام

يفضون المراسلات الصادرة والواردة من البطركخانة الى تلك الجهات وبالعكس ويردونها الى جهاتها منضوضة او يمزقونها حسبما يتراءى لهم

وبعد ذلك بسنتين انتقل خريستودوس الى رحمة ربه ودفن في كنيسة المعلقة في بابليون ثم نقلوا رفاته الى وادي النطرون وقد دفن في بابليون أولاً لكونه سبق فاتخذها له مقراً بعد خراب كنيسته الكبرى في مدينة دمورا (دمنهور) في زمن ناصر الدولة كما قدمنا ولما استقر في بابليون لم يكتف بكنيسة المعلقة بل جدد كنيسة القديس مرقوريوس (ابو سيفين طدوه) وجعلها كتدرائية كبرى ومركزاً لكرسيه وجعل كنيسة العذراء في حي الاروام مقراً له يأوي اليها عند اللزوم وجعل ايراد تلك الكنائس ورسوم المقاضاة في الاحوال الشخصية لنفسه ورضي أساقف بابليون بذلك ولكن الاسقف الذي خلفه عارض في هذا الامر ولم يرض به

ومما تقدم يعلم ان بدر الجمالي كان يحترم البطريرك خريستودوس ويجله ومع انه قبض عليه مرتين باغراء المفسدين الا ان ذلك لم يحط من مقامه وقوبل انتخاب الراهب الذي وقع عليه الانتخاب بعده من دير القديس مقاريوس بالاستحسان في جميع دوائر الحكومة حتى ان عظماء المسلمين طلبوا اليه ان يبارك نصر الخليفة فباركه باحتفال عظيم فتفاءل الاقباط بذلك خيراً وكان اسم الراهب الذي أختير للبطريركية جرجس فلما تعين بطريركا دعي كيرلس الثاني وبعد جلوسه بقليل اتفق

ان جرجس ملك النوبة تنازل عن عرشه الى ابن اخته جرجس محبة فيه وزهادة منه في العالم ورغبة في صرف باقي حياته في عبادة الله . واختار السكنى في دير نقريوس الكائن في البرية على حدود مصر والنوبة وكان الخلاف واقعاً عليها بين مصر والنوبة فلما رأى اهل اصوان ان ملك النوبة اختارها للمقام بعثوا الى الدير وحاصروه طمعاً في ادخال تلك النقطة في املاك مصر ولا ندري ان كان ذلك بايعاز امير الجيوش لالقاء الرهبة في نفس ملك النوبة او انه صدر من تلقاء رغبة اهالي اصوان فلما حاصروا الدير سلم الذين فيه واخذوا الملك اسيراً وتوجهوا به الى القاهرة فلما وصلها قابله البطريرك وسائر الاقباط وجنود الحكومة بالتجلة والاحترام واحتفى به امير الجيوش احتفاء عظيماً ومنحه قصراً مشيد البنيان ليمكث به ولم يسمح له بالاقامة في البرية فقضى فيه سنة كامله ومات بعد ذلك

وحدث في عهده ان راهباً قبطياً يدعى ساويرس حديث السن عالي الهمة طمع في البلوغ الى درجة المطرانية فلما بلغه أن مطران الاحباش ضعيف الهمة قليل النفوذ حدثته نفسه ان يأخذ مركزه خصوصاً وانه شاع عن عبدون مطران الحبشة انه غير أهل للوظيفة فاتخذ تلك الفرصة السانحة وسيلة الى بلوغ مقاصده وما زال يستعمل كل حيلة في التقرب من أمير الجيوش حتى نال الحظوى لديه واخبره بقصده ووعده بدفع مبلغ عظيم من المال اذا هو ساعده بنفوذه وان يبني اربعة جوامع للمسلمين في الحبشة . فسر أمير الجيوش بذلك واصدر امراً الى البطريرك كيرلس

يأمره فيه ان يسارع برسامته مطراناً على الحبشة فلم يسعهُ الا ان صدع بامره وسافر ساويرس الى الحبشة بعزم ماضٍ واعلن القوم انهُ تعين لهم مطراناً اما عبدون فلانهُ كان قليل الحيلة لم يقف تلقاءه فهرب الى بلدة تدعى الدهلكه فقبض عليه الاحباش وارسلوه الى القاهرة وبعد ذلك بقليل قطع المصريون رأسه لعلة غير معلومة .

على انهُ وان كان ليس في استطاعة احد ان يبرر الواسطة التي نال بها ساويرس رتبة المطرانية الا انهُ والحق يقال بذل مجهوده في اصلاح حال الكنيسة الحبشية ولم شعثها ومقاومة العادات الفاسدة الشائعة بينهم وأخصها عادة تعدد الزوجات لان الاحباش مذ اعتنقوا الديانة المسيحية باقون على عهدهم في تعدد الزوجات سائرون على خطة الشريعة الموسوية. وهم يقولون ان تعداد الزوجات ليس محرماً الا على القسوس والشمامسة فقط مع اعترافهم بان ذلك مخالف لروح المسيح

وعلى اثر جدال في هذا الموضوع قام خلاف عظيم سنة ١٠٨٦ بين المطران ساويرس واساقفة الحبشة وكان اللوم كلهُ على اؤلئك الاساقفة لمجادلتهم في امر يخالف نص الانجيل الصريح

واتفق ان بعض رجال الاكليروس بمصر ومنهم اسقفان لم تكن ابروشيتاهما مندرجتين بكشف الابروشيات المصرية طعنوا في باقي الاساقفة ووجهوا اليهم تهماً شنعاء وقذفوا في حق اعيان الاقباط من سكان بابليون مقر البطريركية ورموهم بالتقاعد نظراً لسكوتهم عن استدراك الحالة

السيئة الجارية في بلاد الحبشة فرفع الاساقفة المطعون فيهم عريضة الى البطريرك يطلبون منهُ التداخل في امرهم وتشليح اؤلئك الطاعنين وحرمانهم من درجة الكهنوت فاجابهم انهُ كان يمكنهُ التداخل في ذلك لو كان الخلاف واقعاً بين اثنين اما والخلاف واقع بين زمرة الاكليروس فانه يتركهم وشأنهم وكل مسؤول عن نفسه

فلم يرتض الاساقفة بذلك وقاموا يلتمسون من امير الجيوش التداخل في امرهم وارغام البطريرك باجابة مطالبهم ونوصلوا اليه بواسطة رئيس بستانه الذي كان قبطياً وكان البطريرك حينئذ متغيباً في الاقاليم يزور الكنائس ويفتقد الرعية ويدشن الكنائس التي بنيت حديثاً

ولكن امير الجيوش لم يتبع اهواءه في تلك المسألة بل ارسل الى البطريرك يطلب اليه ان يأمر بعقد مجمع من الاساقفة يرأسه امير الجيوش بنفسه فحرر البطريرك كشفاً باسماء الاساقفة الذين يطلبون لحضور الاجتماع وهم سبعة وعشرون اسقفاً جميع اساقفة الوجه البحري واثنان وعشرون اسقفاً نصف عدد اساقفة الصعيد ماعدا اساقفة كنيسة بابليون والقندق (وهي كنيسة صغيرة في ضواحي القاهرة) والجيزة

فلما اجتمع مجمع الاساقفة ترأسه بدر الجمالي في قطعة ارض له خارج حدود القاهرة وافتتحه بخطبة شائقة حثهم فيها على الاخلاص للبطريرك والخضوع له ووبخهم على التنافس والشقاق وشكواهم عليه وطلب من الفريقين ان يوضحا

علة الشكوى والموجب لارغام البطريرك على الانحياز الى فريق دون آخر
وان يقدما صورة طلبهما في ظرف ثلاثة اسابيع لينظر فيها

وبعد ذلك امر بقطع رأس رئيس بستانه لسعيه ضد رئيسه الاكبر
وبعد ثلاثة اسابيع اجتمعوا لديه وقدم الفريقان مطالبهما فأخذها ولم ينظر فيها
بل وقف بينهم يحثهم على العيشة بالصفاء والمودة والاتفاق الحبي ويؤنبهم على
عدم اذعانهم لرئيسهم الاكبر وقال لهم:—

كان يجب عليكم انتم ان تكونوا البادئين بالقدوة الصالحة طوعا لامر الانجيل
لانكم خدام الدين وقادة الشعب الى الفضائل فانتم المرشدون ولستم في
احتياج الى ان يرشدكم احد الى الواجبات فاذا سمعتم لقولي واطعتم اوامري
عفوت عن ذنوبكم على شرط ان تصافحوا بعضكم بعضا امامي . وبعد ذلك
امر رئيس حرسه ان يوزع عليهم اوراق العفو . وبعد هذا الخطاب الشديد
اللهجة الذي لا نعرف ان كان صادرا عن تأثر ديني ام عن غاية سياسية
ارفض المجلس وذهب كل واحد في طريقه

وقد خجل الاساقفة من عظة امير الجيوش لهم وعادوا الى كنيسة
القديس مرقوريوس لتقديم التضرعات لله لكي يصفح عنهم وبعد ذلك باسبوع
تناولوا القربان المقدس وتصافحوا

وبعد ذلك اشتغل البطريرك كيرلس بانشاء قوانين دينية جديدة
تمشت في جميع الكنائس وصارت مرعية الى ما بعد وفاته بزمن

وفي عهد الخليفة المستنصر هاجر كثير من الارمن الى مصر وسكنوا بها

طمعا في كرم بدر الجمالي الذي هو احدهم فاكرم وفادتهم وخصص لهم بقعة
في مصر العتيقة تعرف بدير البساتين لسكناهم. قال ابو صالح المؤرخ ان
الحاكم الذي حكم مصر باسم الخليفة (والغالب انه بدر الجمالي) قد ابتنى
الكنيسة الكبيرة في هذه الجهة وظل يرمم ويصلح فيها حتى وفاته.

ولما كثر المهاجرون من الارمن وازداد عديدهم انتخبوا لهم بطريركا يدعى
غريغوري وقام بطريرك الاقباط برسامته مجاملة لهم واحتفى بهم الاقباط
احتفاء عظيما وتوطدت بينهم علائق الصفاء والوداد ونشر البطريرك القبطي
منشورا اذاع فيه ان كنائس مصر والحبشة وسورية وارمينية متحدة في الايمان
الارثوذكسي القويم. وبعد ذلك رسم غريغوري اسقفا لاقليم اطفيح وظل
البطاركة الارمن يتعاقبون حتى غزوة الاكراد وتقلص ظل الدولة الفاطمية
ولشدة اتحاد الارمن بالاقباط نما غيظ المسلمين منهم ولكنهم لم ينالوا منهم
ماربا نظرا لحسن سيرة بدر الجمالي وعدله لانه كان يعلم ان كل ثورة تؤول
في البلاد الى الخراب والدمار

وفي ذلك الوقت أرسل ساويرس مطران الحبشة أخاه الى أمير
الجيوش بهدية ولكن أمير الجيوش قابله بالجفاء ووبخه على عدم قيامه
بوعده وأرسل حالا فاستدعى البطريرك وعنفه على تقصير ساويرس في
ما وعد بارساله الى الحكومة المصرية وفي تقصيره في بناء الجوامع التي قال
انه يبنيها ولم يكد البطريرك يفتح فمه ليحتج حتى قاطعه أمير الجيوش
قائلا اني لا أريد ان أسمع منك احتجاجا وقد حكمت عليك أنت وأساقفتك

ان تبقوا تحت الحجر عندي وان يدفع كل واحد منكم أربعة دنانير يومياً نفقة اعالتكم حتى ترسل الى الحبشة وتطلب من مطرانها ان يقوم بتنفيذ ماوعد به باقرب فرصة

فوقع ذلك القول على مسامع البطريرك وأساقفته وقوع الصاعقة الا انه لم ينفذ لسر عجيب دبرته العناية الالهية وهو ان ملك النوبة ارسل في ذلك الوقت وفداً الى الحكومة المصرية ومعه هدايا فاخرة ويلتمس ملك النوبة بلسان ذلك الوفد من البطريرك كيرلس ان يرسم له ابن المرحوم الملك السابق مطراناً للنوبة فلما فوجيء بدر الجمالي بتلك الهدية تمهل في أمر البطريرك لانه كان يمشي على قاعدة اسلافه وزراء مصر وهي ان تكون العلائق بين حكومتي مصر والنوبة ودادية

وبعد ذلك سمح أمير الجيوش للبطريرك والاساقفة وأخي مطران الحبشة بالحضور امامه والدفاع عن أنفسهم فلما أنسوا منه الميل الى سماع دعواهم قام أخو المطران وأخبره بان أخاه بنى سبعة جوامع بدل الاربعة فهاج ذلك سخط الاحباش فقاموا عليه قومة واحدة واتهموه بالتحيز للمسلمين وهدموها جميعها فاضطر ان يهرب من وجوههم ولم ينقذه من ايديهم الا الامبراطور الذي امر بسجنه في ذلك الحين.

فسكن غضب امير الجيوش واقتنع بعذره الا انه طلب من البطريرك ان يرسل اثنين من الاساقفة الى ملك الحبشة لاعادة الجوامع التي هدمت فارسل البطريرك وفدا الى الامبراطور واخبره انه ان لم يبادر الى ذلك

فان امير الجيوش يهدم جميع الكنائس المسيحية في القطر المصري لكن فات بدر الجمالي انه جعل نفسه خصما لرجل عنيد هو امبراطور الحبشة فانه لما بلغه ذلك الخبر استعظمه وارسل الى بدر يقول له قد بلغني مقالك واعلم انك قادم على امر عظيم فلو مددت يدك الى الكنائس المسيحية بسوء لايكون مني الا ان اقلب مدينة مكة رأساً على عقب وبعد ان ادمرها تدميراً لا اسمح باعادة بناء حجر واحد الا بعد وزن مثله ذهباً

ولما عاد المستنصر الى القوة بفضل اعمال بدر الجمالي رجع الى اضطهاد الاقباط واليهود وجار عليهم كما جار الحاكم بامر الله سلفه وامرهم بلبس الزنار الاسود وفرض الضرائب على افرادهم ولكنه كان يخشى بأس حكومتي النوبة والحبشة فلم يكن يتعرض لرعاياها

اما كيرلس بطريرك الاقباط فصرف باقي ايامه في اصلاح الكنائس وافتقاد الفقراء وفي ذلك العصر تغلبت اللغة العربية على اللغة القبطية وصار الناس ملزمين بطبيعة الحال ان ينطقوا بها ورأى البطريرك نفسه انه خليق به ان يتعلمها

ورقد البطريرك كيرلس سنة ١٠٩٢ مسيحية ٤٨٥ هجرية وتولى البطريركية مخائيل الرابع وقبل جلوسه على الكرسي المرقسي لعب الاساقفة دورهم المعتاد عند تولية كل بطريرك فاشترطوا عليه الكف عن تحصيل الرسوم الدينية والتوقيع على صك بدفع مرتب وكيل الكرازة المرقسية بالاسكندرية والغاء الرسوم المعتادة عند توظيف احد الخدام الدينيين والتنازل عن حقوقه

على كنائس بابليون التى ابتدعها البطريرك خرستودوس وسلفه على رغم الاساقفة فامضى الشروط ووعدهم انه ينظر في سائر مطالبهم بالرغم عن استحالة القيام براتب ومطالب وكيل الكرازة المرقسية بالاسكندرية بسبب كثرة مطامعه ومن هذه العبارة الاخيرة يرى اللبيب انه اراد عدم القيام بما تعهد به. وبعد ذلك اتاه انبا شنوده اسقف بابليون يطالبه بارجاع اختصاصات الكنائس التي ذكرت في الشروط فتخلص منه البطريرك منكرا عليه ذلك وقال انه عاد فرفضها عند توليته فصاح فيه انبا شنوده قائلا لكن ياسيدي البطريرك انا بيدي حجة وعليك فيها شهود فانتهره البطريرك ان يسكت وتهدده بحرم كل من يتجاسر على التعرض له

وكان مطران الاسكندرية قد ارسل نسخة من تلك الشروط التي كان قد وقع عليها البطريرك ضمانا لراتبه وكانت صورة اخرى من هذه الشروط محفوظة عند اسقف سخا وهو اقدم الاساقفة عهدا فاجتهد البطريرك مخائيل حتى استحصل على نسختين من الشروط المأخوذة عليه وبذل جهده في أخذ الشروط التي مع اسقف بابليون فلم يفلح فصادره فهرب الاسقف الى احد الاديرة ولما كانت بابليون قريبة من القاهرة قام الشعب بلسان واحد واحتجوا على صنعه وشكوه الى الحكومة وطلبوا اعادة انباشنوده الى كنيسته ورجوه ان يسامحه ففعل وعاد انباشنوده الى سابق عمله ولم يعد البطريرك يفاتحه في تسليم الشروط التي معه.

ولشدة بأس بدر الجمالي نظم حكومة قوية فلم تعد تقم منازعات ولا

ت عصابات تعيث فسادا في البلاد في ايامه ودام الحال على هذا المنوال
ى توفى سنة ١٠٩٤ مسيحية و٤٨٧ هجرية (١) ولم يزل هذا الرجل معتبراً
دى المصريين شبيها بعمرو بن العاص وبعد ذلك بقليل مات المستنصر
الضعيف الرأي بعد ان جلس على عرش الخلافة ستين سنة كاملة مرت عليه
في خلالها العبر. وبالاجمال كانت سيئآته اكثر من حسناته وكان في اوائل
حياته كارها للرذائل مشغوفا بالاداب والفنون الجميلة والظاهر ان الذي
دعاه الى ذلك هو نبوغ وزيره اليروزي في فن التصوير اذ كان يلقب
يومئذ بشيخ المصورين. واستقدم الوزير يومئذ اثنين للتصوير احدهما رجل
فارسي والثاني يدعى القاهر بن العزيز وكانا فرسي رهان في التصوير حتى انهما لما
اقترح عليهما ان يرسما صورة احدى الراقصات على حائط واحد خرجت
الصورتان كل واحدة منهما فأعطيت لهما الجائزة بالتساوي

ولم يكن التصوير محرماً عند الاسلام في تلك العصور الامتى راموا
اضطهاد الاقباط فانهم يقومون ليلاشوا الصور التي في كنائسهم بدعوى
انه ليس بمأذون رسم صور بني آدم ولذلك كانوا ينتحلون هذه الدعوى
لاتمام مآربهم

(١) يظهر من تاريخ أبي صالح انه مات مسيحيا لكونه دفن في البساتين
بحلوان في الكنيسة الارمنية

الفصل الخمسون

تأثير مبادي الحروب الصليبية في مصر

سنة ١٠٩٦ مسيحية و٨٧٠ للشهداء و٤٩٠ للهجرة

وخلف المستنصر ابنه الثاني احمد ابو القاسم الملقب بالمستعلي بالله وكانت خلافته بالاسم لان الخليفة الفعلي انما كان ثاني انجال ذلك البطل المغوار امير الجيوش الذي حكم مصر على عهد المستنصر عشرين سنة فان الخلفاء الفاطميين من ذلك الحين لم يكن لهم حظ التمتع بالحرية المطلقة بل عاشوا داخل دورهم عيشة التحجب والترف والابهة والعظمة وقلما كانت الرعية ترى مليكها الا فيما ندر وفي ظروف خصوصية حتى اعتادت ان تنظر اليه كمعبود ومع ماكان للخليفة من قوة السلطان الا ان الفعل [illegible] كانت بيد الوزراء

ولم يعلم سبب مبايعة ثاني انجال المستنصر بالخلافة وانما نعلم أن ثاني انجال امير الجيوش المدعو شاهين شاه الملقب بالافضل اقيم وصياً عليه لان اخاه الاكبر عصي أباه فحرمه من حقوق الوراثة وهو على قيد الحياة وكانت مواهبه اعظم من مواهب اخيه الاكبر فاستحق ان يكون حاكماً لمصر

فلما تربع الافضل في المركز العظيم الذي ورثه عن ابيه جعل همه قطع دابر العصاة الذين انضموا الى ابن المستنصر الاكبر وعكروا صفو

الحكومة الجديدة

وبعد ذلك التفت الى استخلاص سوريا من ايدي الفاتحين الاراتك وما زال يصليهم حرباً حتى اعاد سلطة الخلافة على بيت المقدس لان الارتقيين كانوا قد احتلوها وامتنعوا فيها فحاصرها ونصب عليها المنجنيق فلما رأى المحاصرون ان اسوارها تهدم غادروها وهربوا الى شرقي سوريا

ولقد لقيت الديانة المسيحية معاكسة عظيمة من اؤلئك الارتقيين الذين اهاجهم لذلك العرب الفاطميون ومن تلك المعاكسات انهم قبضوا على البطريرك الاورشليمي وجروه من شعره وطافوا به شوارع المدينة والقوه في السجن ولم يخرج منه حتى افتداه(١) الرهبان بمبلغ وافر من المال وكان كل قسيس او راهب معرضاً للسب والشتم واحتمال قوارص الكلام. ومن المؤكد ان الاقباط لقوا من الشدة والاهانة والعذابات مالا يوصف وما يؤاخذ لاجله مسيحيو الغرب لسكوتهم عن تخليصهم من ايدي معذبيهم او بالحري لعدم اعتراضهم على تلك المعاملات

---

(١) لما ضعفت الدولة الفاطمية بمصر قبل ايام بدر الجمالى تقلص ظل نفوذها في سوريا وفلسطين وبيت المقدس فخرجت من قبضتها لان السلجوقيين خرجوا من بلاد التتر واكتسحوا فارس وساقوا التركمان الرحل الى سوريا وكان امير التركمان يدعي ارتق بن اكسك فدرب قومه على الفنون الحربية وسار بهم الى القدس ففتحها ودعيت دولته بدولة الارتقيين وتوفي ارتق سنة ٤٨٤ هـ عن ولدين حكما بيت المقدس وفلسطين وسوريا حتى ضربها الافضل بالمنجنيق وبدد شملهما

الاستبدادية مع انتشار اخبار تلك القبائح في الآفاق على ان اوروبا كانت آنئذ في سبات عميق . فضلاعن انه عند افتتاح العرب بلاد مصر كان المصريون يعبدون الاوثان ولم يكن للديانة المسيحية تأثير ذو شأن لديهم حتى ان تعذيب بطريرك الروم الاورشليمي ووضعه في السجن كما قدمنا لم يبعث روح الغيرة في قلوب مسيحيي اوروبا ولا عطف قلوبهم عليهم كما يفعلون الآن حيث يسيرون الاساطيل العظيمة على اية بلاد تهين مبشراً او تقتل قسيساً

الا ان الزمن ابو العبر فقد وجدت ظروف اثارت عواطف المسيحيين على المسلمين لانه حدث انه بعد حادثة البطريرك التي مر ذكرها قام سبعة آلاف قس من اللاتين لزيارة القبر المقدس فلما بلغوا حدود سوريا ومعهم اربعة اساقفة اساء المسلمون معاملتهم واستباحوهم قتلا ونهبا ولم يرجع منهم الى اوطانهم سوى الفي قس فقط والباقون هلكوا من التعذيب والاضطهادات فأثار ذلك الاضطهاد روح النخوة في نفوس اهل اوروبا وكانت الكاس قد طفحت من كلا الجانبين فلم يعد في قوس الرجاء بايقاف الضغائن منزع فنشبت تلك الحروب الدموية التي يقف القلم عن تسطير فظائعها مما افاضت فيه كتب التاريخ باسهاب ولا مجال لايراده هنا وانما اقول ان الخطب والمواعظ التي استثار بها بطرس الناسك نخوة اهل اوروبا صادفت تربة مخصبة مستعدة للنبت ومن الغريب انها القيت في نفس الوقت الذي استرجعت فيه الدولة الفاطمية سلطانها على اورشليم وسائر

ولاية المقدس فانعقد مجلس كليرمنت على اثر ذلك فقرر ادارة رحى الحرب لاستخلاص المدينة المقدسة من ايدي الكفار

ولما كانت الدول الاسلامية متنافرة وجد الصليبيون فرصة لتمزيقهم فاتحدوا تحت قيادة الامبراطور الكس كمونن الاول وامعنوا فيهم قتلا ونهبا

وفي ذلك الوقت كان السلجوقيون يتقدمون في الفتح في بر الاناضول وما زالوا حتى وصلوا الى القسطنطينية وعسكروا على شاطيء البوسفور شرقاً وهددوا المسيحيين الذين فيها الذين كانوا يسمعون صدى التكبير في معسكر المسلمين فعبر المسيحيون البوسفور وسيروا جيوشهم على السلجوقيين والتقت جيوش الكس كمونن بجيوش السلطان ارسلان مؤسس دولة السلاجقة فابلى المسيحيون فيهم بلاء حسنا وكسروهم واستولوا على مدينتي نيس وانطاكية فاستنجد ارسلان بامراء الموصل ودمشق وحمص فانجدوه برجالهم واحاطوا به وبجيوشه احاطة السوار بالمعصم فلما رأى الصليبيون ما كان قاتلوا مستقتلين وفرقوا شمل العدو واخذوا المعرة وحمص وتلاطمت قواتهم كالامواج العظيمة وكان الافضل ابن امير الجيوش لما استخلص بيت المقدس من الارتقيين على ما قدمنا ترك فيها جيوشاً جرارة لترسيخ قدم الخلافة في القدس فالتقت بها جيوش الصليبيين واستحر القتال بين الفريقين اياماً متوالية وحاصر الصليبيون اورشليم اربعين يوماً وافتتحوها عنوة بعد مقتلة عنيفة هلك فيها من المسلمين وحدهم ما ينوف عن سبعين الفاً وكانت اشلاء القتلى

تلقى اكداساً في الجامع الاقصى حتى انتن الهواء وانتشرت الروائح الكريهة ولم يبرد لظى غيظ الصليبيين بذلك النصر الباهر بل حولوا وجوههم نحو مصر لانهم سكروا بخمرة النصر فلما رأى ذلك الافضل ابن امير الجيوش خاف ان يحل بمصر ماحل ببيت المقدس وزاد خوفاً من اتحاد مسيحيي مصر والنوبة باهل اوروبا عليه ولو كان الصليبيون دخلوا مصر كما توهم لكان تغير وجه الارض عما هو عليه الآن ولقامت دول غير التي نراها اليوم ولكن الصليبيين تخاذلوا لان عقارب الحسد دبت بين قوادهم فاضمروا السؤ لبعضهم فضلاً عن اعتبارهم الاقباط والنوبيين هراطقة ولم يخلصهم من الفشل الذى وقعوا فيه الاجود فرى الذي اقاموه ملكاً عليهم نظراً لما تحلى به من الاخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة

وكان من حظ الافضل ان الصليبيين تراجعوا وتخاذلوا كما استشف فآنس منهم الضعف وجند جيشا عظيماً وحمل عليهم حملة عظيمة بمساعدة رجل يدعي سعد الدولة جعله قائداً لجيشه فالتقى بهم تحت اسوار عسقلان فحاربهم بجهد شديد وانتصر عليهم انتصاراً باهراً فارجعهم عن حدود مصر ففرح بذلك فرحاً لا يوصف واطمأن باله على مصر من الخطر الذى كان يتهددها .

فلما انهزم الصليبيون ولم يتمكنوا من الدخول الى مصر حنقوا فسنوا قانوناً يحظر على اليعاقبة وهم اقباط مصر والسودان دخول المقدس فابعدوا عنهم بجهلهم حلفاءهم بالطبع واخوانهم في المعتقد . هذا فضلاً عن ان الاقباط

والسودانيين اشد المسيحيين تقوى واكثرهم زيارة للقبر المقدس فوقع ذلك القرار لدى الاقباط والسودانيين اسوأ موقع

وتوفي الخليفة المستعلي بالله بمدينة القاهرة يوم الثلاث ١٧ صفر ٤٩٥ هجرية بعد فتح الصليبيين لبيت المقدس بسنة وكانت مدة حكمه سبعة سنوات وشهرين فقط وخلفه ابنه المنصور وعمره ٦٥ سنة ولقبه شاهين شاه الافضل امير الجيوش بالخليفة الآمر باحكام الله

ولما كانت السلطة بيد الافضل لم يحصل تغيير في الحكومة بوفاة المستعلي لأن الافضل امير الجيوش أقيم وصياً على الخليفة الصغير كما كان وصيا على أبيه

وفي سنة ١١٠٢ مسيحية توفى مطران الحبشة فارسل امبراطورها وفداً الى البطريرك ميخائيل ليرسم لهم مطراناً بدله . فلما وصل الوفد الحبشي الى مصر رسم لهم البطريرك راهباً يدعى جرجس مطراناً وسافر معهم الى الحبشه ولكنه بوصوله اليها واستلامه ادارة المطرانية دب فيه روح الطمع فاسخط الاحباش فتظاهروا ضده فاجبره الامبراطور على رد جميع الاموال والمقتنيات التي جمعها بطرق غير محللة واعاده الى مصر حيث طرحه الافضل في اعماق السجون . وكانت اعمال البطريرك ميخائيل في اواخر ايامه كما هي في اوائلها . ويظهر انه عاش بسلام مع شنوده اسقف بابيلون بضع سنوات وبعدئذ عاد معه الى الخصام القديم لسبب غير معلوم فعزم البطريرك ان يتخلص منه فعقد لذلك مجمعاً من الاساقفة لفحص الاسقف

شنوده ووجه اليه تهمة غريبة مؤداها انه كان في ايام البطريرك السالف يقدس على القربان مرتين في اليوم وهو مخالف للقانون ولذلك حرمه

وتوفى البطريرك كيرلس قبل ان يحله من حرومه ويغفر له ذلك الخطأ العظيم قال البطريرك وبناء على ما تقدم فهو مقطوع الى الآن ويجب ان يحرم ويجرد من كل حقوقه في رتبه الكهنوتية . ثم خاطب الاساقفة قائلاً . ومهما ظننتم ايها الاساقفة في كيفية سلوكي بالحكم في تلك المخالفة القديمة التي تعتبر بدعة في الطقوس الدينية واقامتي الحجة على الاسقف شنوده مرتكبها والحكم عليه بعد مضي عشرة سنوات وعدم اعترافي بتأييد الحل الذي كان البطريرك كيرلس بلا شك يريدان يسامحه به قبل وفاته فمن الواضح انكم لا تجدون وجهاً لمعارضتي في ذلك لان الحل لم يتم حتى الآن . ثم ارسل في الحال البطريرك ميخائيل الى الاسقف شنوده وامره بان يحضر امام المجمع المقدس ليسمع الحكم عليه بالحرم وقطعه من رتبة الكهنوت وتجريده منها ولكنه أبى الحضور ورفض رفضاً باتاً الوقوف امام المجمع واختبأ في منزل سري في بابليون .

فصرف البطريرك المجمع وقام ووضع يده على كنيستي شنوده وهما كنيستا القديس سرجه والقديس باغوص بابيلون اللتين قام عليهما النزاع بسببهما وفي الغد اتفق رجوع الوزير الافضل امير الجيوش عن محاربة الاعداء فخرج البطريرك ميخائيل لتهنئته بعودته الى الوطن بالسلامة ولكنه لم يرجع الى منزله بعد تلك التهنئة الا واصيب بالطاعون وتوفي في غد

ذلك اليوم

ولما كان اثنان من رهبان دير القديس مغاريوس مرشحين للبطريركية لاقى الاساقفة صعوبة في انتخاب احدهما ولذا تأخر اقامة بطريرك خلفاً للبطريرك ميخائيل حتى شهر توت من تلك السنه

وسبب الصعوبة ان احد المترشحين كان عمره اقل من الخمسين والقانون الكنائسي لا يصرح بانتخاب بطريرك يقل عن الخمسين . فعزم الاساقفة على انتخاب الثاني المدعو مقاريوس . وكان هذا الرجل راغباً عن دواعي الشرف وحب الظهور او العظمة والابهة (١)

(١) ذكر المقريزي في تاريخه رواية عجيبة عن هذا البطريرك . وهو انه في زمن الخليفة المستنصر تأخر النيل عن الفيضان وحصل شرق عظيم تهدد بلاد مصر بالقحط فارسل المستنصر البطريرك ميخاييل في بعثة الى السودان ومنها البلاد الحبشة ليعرف اسباب عدم فيضان النيل فلما سمع امبراطور الحبشة بقدومه نزل لمقابلته وتبارك منه وساله عن مجيئه فاخبره البطريرك ان الداعي هو تأخر النيل عن فيضانه المعتاد ولقلة المياه كثيرا هذه السنة يتألم سكان مصر تألماً عظيماً وسيقعون في مجاعة عظيمة . ففي الحال امر الامبراطور رجاله ان يفتحوا وادياً من الاودية التي يجري منها النيل لمصر فعلوا ذلك الا وارتفع النيل ثلاثة ياردات في تلك الليلة في مصر وما زال يفيض حتى اغرق البلاد . ثم عاد البطريرك الى مصر فخلع عليه الخليفة المستنصر وعامله احسن معاملة بعد ان اكرم وفادته واحتفل بقدومه احتفالاً عظيماً

ولكنهم اعترضوا على انتخابه بدعوى انه من ثمرة ثاني زواج(١)
غير ان الاساقفة عند التحقيق ظهر لهم انه ابن ابيه لزوجة ثانية أي ان أباه هو الذي تزوج دفعتين لا أمه فلم تفلح حجته واذ كان لا يريد منصب البطريركية احتج بحجة أخرى فاعترض على القبول بامضاء الشروط التي يوقعها كل بطريرك جديد لدفع مرتب الاسكندريين السنوي بالنظر لمطامعهم الكثيرة وانه يأبى ان يقيد نفسه بهذا القيد الثقيل ولكنه اذا كان ولا بد من قبوله المنصب فانه يكون حراً فيعطي على قدر ماتسمح له ظروفه وحالة الكنيسة المالية . ولكنهم لم يبالوا بكل تلك العراقيل بل صمموا على انتخابه وشرعوا في تهديده كما جرت عادتهم عند رسم كل بطريرك جديد فلما رأى ذلك خرج من وسطهم وفر الى ديره ليعيش فيه بالزهادة والتقشف

فلما حار الاساقفة في أمرهم وبلغ ذلك مسامع اهل الاسكندرية خفضوا من غلوائهم ورضوا بقبوله على شرط ان يدفع لهم حتى ولو اقل من نصف مرتبهم السنوي

وفي السنة الثانية من انتخابه بطريركا سقطت عكا في ايدي الصليبيين بعد ماحاصروها برا وبحرا وكان ذلك سنة ٤٩٧ للهجرة ولما طال المطال

(١) من ضمن شروط انتخاب البطاركة في قانون كنيسة مصر ان البطريرك لا ينتخب الا اذا كانت امه لم تتزوج الا زوجاً واحداً بمعنى انه لو توفي زوجها الاول وتزوجت باخر فاولادها من الزوج الثاني لا يصح ان ينتخب منهم بطريركا

على الصليبيين هجموا على المدينة بقوة وشدة بأس وافتتحوها عنوة وفتكوا بالذين فيها فتكا ذريعاً وكانت عكا تابعة لمصر وعليها حاكم من قبل الافضل يلقب بامير الجيوش واسمه زاهر فقر من بين ايديهم ونجا بنفسه . وفي ذلك الوقت اتحدت كلمة الصليبيين تحت قيادة الكونت سنجيل فاغتنموا فرصة انقسام القوات الاسلامية وساروا الى طرابلس وضيقوا عليها الحصار فاستنجد اهلها بالخليفة في مصر فامدهم الافضل بجيش جرار واسطول قوي ولكن النجدة وصلت متأخرة فسلمت المدينة ليد الكونت وكان ذلك سنة ١١١٠ مسيحية و٥٥٣ هجرية

وما زال الصليبيون يفتحون البلاد في سوريا حتى استولوا على طرسوس وحمص وجبيل ولم يتركوا للخلافة الفاطمية فيها اثراً رغماً عن استبسال الافضل ودفاعه عنها . غير ان الافضل جعل همه الدفاع عن مصر حاسباً ان السلامة كل السلامة في بقائها مصونة من يد الاعداء لانه علم جيدا انه لولا انقسام الصليبيين بادئ بدء لما بقيت الى ذلك الوقت آمنة صروف الحدثان

ولكن اقباط مصر كانوا يتمنون ان يستمر الصليبيون على امعانهم في سوريا فتحاً ونهباً واستيلاء على ارباضها وان يفعلوا كذلك بمصر رغماً عن علمهم انهم لا يستريحون مع اللاتين باكثر مما يستريحون تحت حكم المسلمين . وقد جاء حكم الواقع مصدقاً لما دار بخلدهم لان بلدوين الذي خلف جودفري على قيادة الجيوش الصليبية ملك على سوريا وفلسطين وجعل بيت القدس

عاصمة المملكة استصدر أمراً من البابا يقضي بضم البلاد التي فتحها الى بطريركية اللاتين في اورشليم فلما حصل على ذلك الامر خرج من بيت المقدس بجيش جرار الى مصر فوصل الى مدينة الفورمة التي بنيت على انقاض مدينة بلوزيوم القديمة في زمن الفراعنة وحاصرها وهدم مبانيها وجوامعها وفتك باهلها ومنها قام الى مصر ولكنه لم ينل منها مأربا لانه اصيب بمرض عضال وهو سائر في الطريق فكر راجعاً بجيوشه الى بيت المقدس فمات على مقربة من العريش فنزعوا احشاءه منه ودفنوها هنالك واقاموا عليها حجراً كبيرا ولا تزال تلك البقعة تدعى الى الآن برمال بلدوين اما جثته فحملوها الى المقدس فلما رحلت الجيوش الصليبية عن مصر هدأت الخواطر وقرت الاعين واطمأن بال الافضل وقضي حيوته بسلام وكان للاقباط في عهده خير كثير

وفي كل هذا الزمان كان الخليفة الآمر باحكام الله محتجباً في قصره عن عيون الرعية لايخرج الا نادراً ولا يعرف سوى الابهة والشرف ولم يدر مما كان يجري شيئاً وكانت يد الافضل النشيطة تدرأ عنه الاخطار وبلغ من العمر يومئذ خمساً وثلاثين عاماً ولم تحدثه نفسه باعلان رشده وتولي زمام الامور بيديه . وبعد ذلك خطر له ان يظهر نفسه فلم ير وسيلة لذلك الا قتل الافضل وزيره المخلص فاستقدم بعض الهمل العائثين الذين كانوا منتشرين في اطراف سوريا ويسميهم بعض المؤرخين بالاسماعيليين نسبة الى اسماعيل رئيسهم الذي كان يغتال النفوس بطرق وحشية على مثال

ما يجري من النهليست والفوضويين في هذا العصر وطلب اليهم ان يقتلوا الافضل فقتلوه ولم يلبث ان قتل هو ايضاً بايدي رجال تلك الشرذمة البطالة

واغتنم اسماعيل فرصة اشتغال الصليبيين بالحروب فاستقل بالقرى الجبلية القريبة من دمشق واستفحلت شوكته بها والتف عليه كثيرون فبنى الحصون والمعاقل وارهب السكان من نصارى ومسلمين وضرب عليهم الجزية فاعطوها له صاغرين تخلصاً من فتكه وبأسه وفي سنة ٥٣٤ هجرية انفذ بعض دهاته الى الحاكم بامر الله فقتلوه وهو ذاهب الى زيارة احدى عشيقاته من البدو بعد ان حكم ٣٠ سنة بالاسم لا بالفعل

ومات الافضل (١) عن ابن وحيد خلفه في حكم مصر فعلاً كما كان ابوه اما الآمر باحكام الله فلم يكن له اولاد ذكور فلما مات وكانت زوجته حبلى نادوا باين عمه عبد المجيد بن القاسم الحافظ لدين الله نائباً للملك الا انها وضعت انثى فبايعوه بالخلافة ولقبوه بالحافظ لدين الله

وقبل وفاة الافضل حدث زلزال عظيم شعرت به البلاد المصرية من اقصاها الى اقصاها تهدمت بسببه كنيسة المختار والمقول ان للافضل يداً في ذلك لانه اغتنم فرصة حصول الزلزال وهدمها اذ كانت قائمة في وسط بستان جميل

(١) ان الافضل هو الذي امر سنة ١١٠٧ مسيحية باستبدال التاريخ القبطي بالتاريخ الهجري في سائر دواوين الحكومة

وظلت الخلافة الفاطمية تنتقل من واحد الى آخر بطريق الاغتيال وقتل الكبراء زمناً هذا مقداره وقد قتل ابن الافضل وحفيده وفيما كان المسلمون يتنازعون كان الاقباط آمنين شرهم

وتوفي البطريرك مغاريوس سنة ١١٢٩ مسيحية بعد ان شغل منصب البطريركية اربعة وعشرين سنة ونيف وكانت كل سني حيوته سرا ورخاء على امته وبعد وفاته بقي الكرسي خاليا نحو سنتين لاسباب لم تعلم حتى انه لما استدعي الاساقفة للحضور كالعادة لانتخاب خلف له لم يحضر الا بعض الكهنة والشمامسة وغيرهم من العلمانيين ولم يلب احد الاساقفة الدعوة فانصرف المجتمعون على غير نتيجة وتوجه بعضهم الى كنيسة دير القديس مغاريوس لينظروا في هذه الاحوال الخارقة العادة. وبعد ذلك انتخبوا رجلا يدعى غبريال كان يلقب بالعربي بأبي العلا سعد بن تارك وهو سليل عائلة قبطية قديمة كان في اول امره علمانيا وصرف زمنا في خدمة الحكومة فلما عزل صار شماسا في كنيسة القديس سرجيوس في بابليون فحصل على وقار كثير نظرا لمعارفه العلمية وتقواه وكان يعرف العربية كمعرفته القبطية وشغف بجمع الكتب القديمة

وفي ذلك الوقت كان الخليفة الحافظ لدين الله مشتغلا بوضع حد للقلاقل التي كانت قائمة بين رعيته بشأن تولية وزير للدولة فلكي يرضي جميع الاحزاب اسند منصب الوزارة الى رجل ارمني هو شقيق البطريرك الارمني فهدأت احوال الاقباط وتعزز مركز المسيحيين. فقام ذلك الوزير بمهمته خير قيام

واشتهر بمودته للمسلمين غير انهم غدروا به بعد ذلك وثاروا عليه بحجة ان للمسيحيين من النفوذ بسببه ما يمكنهم من السلطة ويعيد البلاد الى قبضة ايديهم

وكان القائم بهذه الثورة رجل يدعى رضوان لطمعه في الحصول على الوزارة فلما رأى الوزير الارمني الملقب بتاج الدولة ما كان ابى ان يكون سبب نزاع يؤول الى فتنة وهياج فاستعفى من منصبه ورجع الى طيبة ليقيم مع اخ له كان حاكماً القوصية فوجد ان رضوان سبقه اليها وفتن اهلها على المسيحيين وقتل اخا تاج الدولة شر قتلة. وابى سكان المدينة على تاج الدولة ان يحل بمدينتهم فلما رأى ذلك هاج به الغضب وعزم على ان يجمع انصاره ويحاصرها ولكنه عاد فاثنى عن عزمه وذهب الى احد الاديرة ليعيش فيه مترهبا

وفي ذلك الوقت كان رضوان يتقدم برجاله على مصر القديمة وبابليون والقاهرة ويأمر جيوشه بسلب المسيحيين ونهب امتعتهم وجعل همه الضغط على الاقباط ومصادرتهم والادعاء عليهم بانهم غير اكفاء للوظائف فضاعف الضرائب المقررة عليهم. ولكنه فاته انه بذلك افسد شؤون الحكومة التي لم تكن تستغني عن الموظفين من الاقباط في الاعمال الكتابية اذ كان لزومهم للوظائف الكتابية كلزوم اعمدة الكنائس للجوامع التي شادها المسلمون في عصور الاضطهاد ولكن خطة الوزير رضوان العوجاء لم تفلح لان المسلمين انفسهم نقموا عليه وطردوه خارجا اسفا قبل ان يتم له ما كان قد

دبره من ذبح الاقباط والارمن الذين استوطنوا مصر بكثرة على عهد بدر الجمالي امير الجيوش.

فارتبك الخليفة في اختيار وزير لدولته وكان يود ارجاع تاج الدولة ولكنه خاف من انه اذا اعلن هذا العزم ينقم عليه المسلمون فارسل اليه سرا يرجوه ان يعود الى مركزه فابى العودة بدعوى انه صار راهباً ولكنه يقبل بان يساعده في الثورة بغير ان يخرج من ديره.

وكان عدد الارمن في مصر عظيما وتفوذهم متزايدا من زمن الوزير بدر الجمالي فلما مات بطريركهم طلبوا من البطريرك غبريال ان يرسم لهم اسقف اطيفح الارمني بطريركا وان يرسم تاج الدولة اسقفا بدلا منه وكان البطريرك غبريال عاقلاً بصيرا بعواقب الامور فخشي معارضة الكنيسة الارمنية له واعتبارها ذلك تطفلا منه فابى ولكنه لما رأى الارمن مصرين وقد رغبوا الى بعض الاساقفة ان يجيبوهم الى طلبهم عاد الى الرضى واجابهم الى ماطلبوا وكان جميع الذين تقدموه يعتذرون عن قبول التقادم والرسوم لدى رسامة اساقفة أو بطاركة ثم يعودون فيقبلونها اما هو فابى القبول قطعيا ولم يأخذ من الثلاثة والخمسين اسقفا الذين رسمهم في عهده القصير الذي لا يزيد عن ستة عشر سنة مليما واحدا

وفي ذلك الوقت أتى اليه وفد من قبل امبراطور الحبشة يحمل خطابين مهمين أحدهما اليه والآخر الى الخليفة يعترض فيهما امبراطور الحبشة على القانون الكنائسي القاضي بقصر عدد أساقفة الحبشة الموجودين

تحت رئاسة مطرانها على سبعة فقط ويطلب التجاوز عن هذا القانون والسماح بالمزيد. وقد كان قانون الكنيسة القبطية يحظر زيادة الاساقفة في الحبشة عن هذا العدد خيفة من ان تستقل الكنيسة الحبشية عن أمها الكنيسة المرقسية لانه اذا بلغ عدد الاساقفة اثنى عشر فانه يجوز لهم ان ينتخبوا منهم بطريركا وربما كان غرض امبراطور الحبشة بذلك الاعتراض الوصول الى هذه الامنية. وقد كان الاسقف الحبشي الذي يرشح لدرجة المطرانية يسافر الى مصر ليرسمه البطريرك نفسه اما الآن فطران الحبشة يجب ان يكون من الاساقفة المصريين ويرسمه البطريرك ويرسله الى هناك

والغالب ان هذا الخوف كان في غير محله لان علاقة الممالك المسيحية بعضها كانت مبنية على أسس المحبة والاخلاص فرأي امبراطور الحبشة ان سعة بلاده لاتخول الاساقفة السبعة الوقت الكافي للاشراف على حاجات الامة الدينية فرجا البطريرك ان يكف عن تحديد العدد. وأرسل الخليفة بناء على الحاح امبراطور الحبشة الى البطريرك يطلب منه التساهل مع الامبراطور في مطالبه فابى البطريرك قبول ذلك الطلب واعتذر الى الخليفة مبيناً له ان قبوله بذلك يؤول الى فتور العلائق وخروج البلاد من تحت سلطته. فاقتنع الخليفة بذلك ومهما يكن البطريرك غبريال مصيباً فلا مشاحة في انه أضر بالحبشة ومنع تقدمها وصلاحها.

وبعد ذلك سن البطريرك غبريال قانوناً يحتوي على ثلاثين مادة

واضافه على قوانين الكنيسة المرعية يحرم في احداها على الاكليروس حضور الالعاب والمراقص ونحوها وفي غيرها منعهم عن الرقص والخلاعة في ايام الاعراس وتأجيل الاحتفال بالاكليل الى المساء ومنع في مادة اخرى الصلوة على الموتى في ايام الاحاد وممارسة سر المعمودية في خلال الصلوة في الكنيسة وألغى عادة دفن الموتى في الكنائس وحتم على الكهنة في المادة الرابعة والعشرين منه بعدم السماح لغير زوجاتهم وامهاتهم وعماتهم وخالاتهم وجداتهم بالسكنى في منازلهم ولم يذكر بناتهم لانهن داخلات ضمن الدائرة الاكثر قربى

وتوفى البطريرك غبريال سنة ١١٤٦ مسيحية وانتخبوا له خلفا راهبا معروفا بشدة التقوى والنسك وكان اميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة سواء بالقبطية او العربية غير انه كان يحفظ القداس عن ظهر قلبه فلم يمنع ذلك من انتخابه لشدة لياقته لذلك المنصب الخطير فرسموه في كنيسة بابليون باحتفال عظيم غير انه لم يطل زمنه فتوفى مسموما . قيل ان الذي اقدم على سمه واحد من الرهبان اتباعه ممن لم يحتمل صرامة تأديبه ورسم الاساقفة بدلا منه واحداً من الاثنين اللذين كانا مرشحين للانتخاب عند انتخابه.

وفي سنة ١١٤٨ مسيحية نشبت حرب صليبية اخرى انزعجت لهولها نفوس الناس وتهددت مصر ايضا وبيان ذلك ان الكونت روجير الثاني ملك سيسليا وقائد النورمانديين وصل بجيوشه براً الى حدود مصر شمالا وهدد الاسكندرية فجاءة غير انه رحل عنها بجيوشه لسبب غير معلوم

وفي ذلك الوقت ظهر رضوان مرة أخرى يعثو في البلاد ويشن الغارة على السكان وجعل نفسه حاكماً على الاربع مدن. اما الخليفة الحافظ فاختفى في قصره ولم يبدِ مقاومة. ولكن رضوان لم يلبث هذه المرة سالماً من الاذى طويلا اذ قام عليه احد اعوانه وقتلهُ وبعد ذلك بقليل توفي الحافظ عن ثمانين سنة تاركاً اربعة اولاد ارشدهم المدعو اسماعيل بن منصور الظافر لامر الله المعروف بالظافر

الفصل الحادي والخمسون

انشقاق مرقس بن قنبر

سنة ١١٤٩ ميلادية و ٨٦٥ للشهداء و٥٤٤ للهجرة

جلس اسماعيل ابو منصور الملقب بالظافر على عرش الخلافة الفاطمية وكان عمره وقتئذ ثمانية عشر سنة فقط وكان كثير الميل الى دواعي اللهو والترف والالتهاء بالجواري وصرف حياته في هذا العمل غير مراعٍ شؤون مملكته ولا ناظراً الى الدسائس التي تحدث في بلاطه غير حاسب لها حساباً مع علمه انها تؤول الى خراب مملكته وبتقدم جيوش الصليبيين عليه ولم يبدِ حراكا كأنه شاعر بقرب انحلال دولته . وكانت شؤون الحكومة المصرية موكولة لوزيره المدعو عباس الذي نال الوزارة بعد جهد شديد اذ فاز بقتل خصمه وصار صاحب القدح المعلى في الحكومة

المصرية وكان يمكن للظافر ان يعيش عمراً طويلاً ولو بلا عمل يذكر في مملكته ويتمتع بملاذه الدنيوية مثل المستنصر لما كان يسعى وراء الملاذ العالمية التي حطت من مقامه الا انه لم يرق له ذلك بل سعى الى حتفه بظلفه لعدم امتناعه عن العبث بشرف عائلة وزيره عباس الباطش . وكان مهملاً فلم يحتفظ على نفسه وغرق في شهواته واهوائه فافضى ذلك الى قتله وذلك انه بعد جلوسه باربعة سنوات اي سنة ٥٤٩ هجرية شق على وزيره العباس ذلك السلوك السيء سيما ماشاع يومئذ على السنة الناس من انثلام عرضه كما ألمعنا فاراد العباس ان يتخلص منه فدعاه الى وليمة في داره واشار الى ابنه بقتله فقتله سراً وكان ذلك في شهر محرم سنة ٥٤٩ هجرية ولكي يخفي حيلته اتى الى قصر الخليفة وطلب مقابلته زاعماً انه لم يعرف عن امره شيئاً فبحثوا عنه فلم يجدوه فسألوا عنه الحريم فقلن انه لم يبت عندهن تلك الليلة فتحققوا مقتله ولكي يثبت العباس حيلته وينفي التهمة عنه وعن ابنه اخرج يوسف وجبريل اخوي الظافر واتهمهما بقتل اخيهما امير المؤمنين فاكبرا ذلك وانكراه وكانا طبعاً صادقين في هذا الانكار فقتلهما في الحال على هذه التهمة . اما ابن الظافر فكان طفلاً صغيراً اسمه عيسى لا يزيد عمره عن خمسة سنوات وهذا لما شاهد مقتل عميه ورأى جثتيهما تتخبط بالدماء على الارض فزع من ذلك المنظر واضطرب اضطراباً شديداً حتى صار كالمعتوه وبال على كتف العباس الذي حمله وقتئذ وسار به في وسط الامراء ونادى قائلاً هذا ابن مولانا

المقتول فاطيعوه فقبلوا طاعته وبويع خليفة في الحال وسموه الفائز الناصر بالله وردوه الى حضن امه مصروعاً مختلجاً

فانفرد بعد ذلك العباس بالتصرف في كل شيء لكنه شعر بشططه لانه علم ان اهل القصر علموا بمكيدته وصاروا يدبرون له الحيلة في قتله مع ابنه وبعد ان اهاجوا الجيش عليه وخصوصاً الفرق السودانية كاتبوا بذلك طايع بن رزيك الارمني الملقب بالصالح وكان وقتئذ حاكم المنيا (منية خصيب) واستقدموه الى كرسي الخلافة وولوه الوزارة بدل العباس الذي لما رأى الخطر محدقاً به خرج لساعته من القاهرة مع ابنه نصر وحمل ما امكنه حمله من المال وفر هارباً مع جماعة يسيرة من اتباعه الى الشام وذلك في ١٤ ربيع اول سنة ٥٤٩ هـ . فكتبت اخت الظاهر وراءه للافرنج بعسقلان ليخرجوا عليه ويمسكوه وجعلت لهم مالاً جزيلاً نظير ذلك . فخرجوا عليه واخذوا ماله وولده وقتلوه بعد انهزامه مع اصحابه امامهم ثم ارسلوا ابنه نصر لاخت الظاهر بمصر داخل قفص حديد مع رسل فسلموه لرجالها واستلموا المال الذي وعدتهم به مكافأة لهم على قتل العباس . ثم أخذ رجال اخت الظاهر نصراً وجلدوه بالسياط وحرقوه . وصلبوه على باب زويلة وانزلوه بعد موته يوم عاشوراً سنة ٥٥١

اما الصالح فبعد ان قدم بجيوشه الى القاهرة تكفل بالخليفة الطفل وشؤون المملكة بدل العباس ولكن طمعه لم يقف عند حد محدود حتى لما رقي الى درجة الوزير الاكبر تاقت نفسه الى العلى فلقب نفسه الملك

الصالح . ولكن لم يقم بما يبرهن تعزيز دعواه لان الدلتا الشرقية كانت في ذلك الوقت مهددة بالغزو يغير عليها فيألق الافرنج الذين بعسقلان وغزة ولم يكن بجسر ان يحاربهم اوان يقف في وجوههم لما فيه من الجبن ولذلك اشترى راحته بدفع جزية لملكهم بيت المقدس .

وضايق الاقباط مضايقة شديدة واوقع عليهم ضرراً بالغاً كان تأثيره عليهم اشد وقعاً من الاضطهاد الحقيقي السابق فارتعدت فرائصهم وحل بهم الوجل والاضطراب

وبيان ذلك ان مدينة المطرية كانت تعتبر لدى الاقباط مقدسة نظرا لزيارة العذراء المباركة والسيد المسيح لها كما ورد في الانجيل ولا يزال كثيرون من انحاء العالم يترددون على زيارة هذا الاثر الشريف وجعلهم من البلاد الغربية وفيهم كثيرون من انكلترا هذا فضلا عما اشتهرت به من البساتين الجميلة والحدائق الخضراء والرياض الغناء والينابيع الدافقة والروائح الزكية كل ذلك مما بعث على اشتهار صيتها كانما هي خصت ببركة السيد المسيح وكانت المطرية اشبه ببابليون من حيث سكنى الاقباط بها وبناء كنائسهم فيها . وفي تلك الايام اغتصب الملك الصالح احدى تلك الكنائس وحولها جامعا

وفي تلك الاثناء كانت الكنيسة القبطية تقيم الصلوات وتكثر من الاحتفالات الدينية فحدث ان رهبان بعض الاقاليم اضافوا على الصلوة التي تتلى على القربان المقدس لفظة معطي الحيوة فاعترض اسقف ابرشية سمنود على هذه البدعة ورفع الامر الى غبطة البطريرك فامر هذا بعقد

مجمع من الاساقفة وبعد النظر في ذلك قرروا صوابية الاضافة وانفضت المشكلة على سلام الا انه حدث في جو الكنيسة مشكلة اخرى

وبيان ذلك انه قام بعضهم يومئذ واعترضوا على استعمال البخور في الكنائس الذي يقوم باحراق اللبان في المبخرة. ومن المعلوم ان البخور لم يكن يستعمل في الاجيال الثلاثة الاولى من العصر المسيحي وهو عادة وثنية الا ان المسيحيين صاروا يستعملونه في كنائسهم من بعد القرن الرابع بدعوى انه يطرد الروائح الكريهة الناجمة عن ازدحام جماهير المصلين ولم يكونوا يباركونه قبلاً ولا يعلقون عليه كبير اهمية ولكن من بداءة الجيل السادس صاروا يباركونه فيقول الكاهن عند ما يحمل المبخرة فليبارك الرب هذا اللبان لازالة كل رائحة كريهة وسامة وليبارك في وقوده لرائحته الزكية ومن ذلك الوقت صار يعتبر طقساً دينيا كانما هو وسيلة لاصعاد صلوات الشعب الى العرش الاعلى حتى اعتاد الكاهن ان يقول فلتكن صلواتي امامك كبخور لبان يارب

وكذلك الاعتراف السري امام الكاهن فانه عادة عامة في جميع الكنائس المسيحية الا انها سرت في الشرق قبل سريانها في الغرب ولم تكن فريضة الزامية الا في اواخر القرن الرابع. وذلك انهم رأوا ان اعتراف الانسان سراً يفضي الى فظائع هائلة. ولهذا نهى أنبا باسيليوس مطران اورشليم احدى النساء عن الاعتراف جهارا بخطية الزنى خوفا من ان يبلغ ذلك الى سامع زوجها فيقوم عليها ليقتلها ومن ذلك الحين اخذ المسيحيون يعترفون

سرا امام الكاهن وصار للكاهن ان يميز بين الخطايا الواجب الاعتراف بها علناً وتلك التي يجب ان يعترف بها سرا وبمرور الزمن صار الرؤساء الروحانيون يقيمون كاهنا لكل كنيسة كبرى يختص باقتبال الاعترافات وصار هذا الامر فرعا دينيا من فروع التقاليد غير انه الغي من الكنائس الشرقية وبالجملة من الكنيسة المصرية في نهاية القرن الرابع . ولم يزل الاعتراف سرا امام الكاهن جاريا في الكنائس القبطية حتى يومنا هذا انما بغير قانون خاص به كما في الكنائس الغربية كما وانه لم يكن يتحتم وقوعه قبل تناول الاسرار المقدسة وذلك لانهم يعتقدون ان الانسان لا يدخل في مصاف الرجال ويناقش الحساب على الخطاء الامتى تزوج ولذلك كانوا يبادرون الى تزويج الاحداث ومتى تزوج الحدث لا يتناول السر المقدس قبل ان يعترف امام الكاهن سواء في منزله او في الكنيسة . اما قبل الزواج فانهم كانوا يعتقدون ان الفتى يكون قاصرا ويحرسه سر المعمودية من الوقوع في الخطية. وكان المعترفون بعد الاعتراف بخطاياهم العلنية التي لا يخشون الاباحة بها يركعون ويعترفون في سرهم بالخطايا السرية التي لا يقدرون على التصريح بها وفي اثناء ذلك يطلق البخور ويطوف الكاهن بالمبخرة حول كل الكنيسة والهيكل وبتكرار هذه العادة صار الناس يعتقدون ان البخور من لوازم الصلوة وانه يحمل اعتراف الخطاة الى امام عرش الله

وزاد الاعتقاد في البخور بهذا المقدار في القرن الثاني عشر للمسيح حتى ان العامة كانوا يستغنون عن الكاهن في اقتبال الاعتراف ويحرقون

اللبان في منازلهم ويجثو الواحد منهم لدى المبخرة ويتوسل توسلات شديدة معترفا بخطاياه بخشوع وتقوى وهو يزعم ان البخور يرفع توبته الى المولى ويستنزل رحمته تعالى عليه . وسبب ذلك ان الاعتراف لدى الكهنة تسبب عنه فضائح مشينة وكان الشعب ينظرون اليه بعين الريبة وخصوصا اذا بدا من النساء فجرت العادة ان يعتبر البخور حاملا للاعتراف ووسيلة الى جلب الغفران

فقام كاهن قبطي في عصر البطريرك يوحنا الخامس وقاوم هذه العادة مقاومة شديدة وكان يدعى مرقس بن قنبر(١) تمييزا له من رجل يدعي مرقص كان في زمانه بطريركا

وكان ابن قنبر كاهنا بأقليم الصعيد رسمه اسقف دمياط وكان رجلاً فصيحا نبيلا يخطب في الشعب فيختلب الالباب بقوة البيان وفصاحة الخطاب وكان يحث الشعب على وجوب الاعتراف السري ونوال الحل من الكاهن وجاهر بان لا مقدرة للبخور على العتق من الخطايا

ولما كان الاعتراف لدى المبخرة جائزا بأمر بطريركي كان جهاد بن قنبر عبثا فضلا عن كونه مثيرا لسخط الاساقفة والعلماء فاعتصبوا عليه وطلبوا الى البطريرك ان يحرمه . فتمهل يوحنا الخامس في حرمه لانه لم يراه مخطئا وانما اوقع عليه تأديبا بصفته سيء الاخلاق . وبعد ذلك اتصل

(١) نرى ترجمة مرقص بن قنبر باسهاب لذيذ في تاريخ ابي صالح من صحيفة ٢٠—٤٣ وقد نقلنا عنه ملخص ترجمته

الى البطريرك ان بن قنبر قد هجر زوجته وانتظم في سلك الرهبنة لا لعلة الا لكونه طامعاً في الحصول على درجه الاسقفية فالبطريركية فلا تكون زوجته حجر عثرة في سبيل رقياه فلما علم البطريرك بذلك ايقن بصحة دعوى المشتكين عليه فحرمه وقطعه من الكنيسة ولكن بن قنبر لم يكترث بهذا الحرم بل عكف على الوعظ والتبشير فالتف حوله جمع كثير لدرجة خيف معها وقوع الشقاق بين الشعب . وقد قاوم عادة الختان التي كانت جارية يومئذ بين الاقباط بدعوى انها من بقايا تقاليد اليهود ومخالفة لتعليم ووصايا الرسل فصار لابن قنبر وقار عظيم لدى جميع اهالي الصعيد وذكر اسمه على كل شفة ولسان

ومات البطريرك يوحنا الخامس في تلك الظروف الحرجة وخلفه مرقص بن زعره تميزا له من مرقص بن قنبر فلما جلس على كرسي البطريركية كتب اليه اساقفة الصعيد بشأن مرقص بن قنبر الذي كان عاكفاً على عقد الاجتماعات وتحريض الشعب على وجوب التيقظ الديني ورفض الخرافات المصنعة فاستدعاه البطريرك ولامه على ذلك وابان له انه مخطيء في فهمه فتأثر من نصائحه وسجد له ووعده بالكف عن ذلك فحله البطريرك من الحرم واعاده الى وظيفة الكهنوت ولكنه لما رجع الى مركزه اجتمعت الناس عليه وابتهجوا برجوعه واظهروا تعضيدهم له فوقع بين نارين اما ان ينقاد الى مشورة البطريرك ويخسر التأثير الذي له او ان يثابر على عمله ويخالف البطريرك وبعد التأمل رجحت كفة الامر الثاني على الاول فشرع يبشر

كالعادة فاقبلت اليه الجماهير بالهدايا والتقادم من نقود ومحصول » وكفوا عن تقديم العشور للخدام القانونيين

فلما رأى البطريرك ما كان خاف من استفحال الفتنة فعقد مجمعاً مؤلفا من ٦٠ اسقفا واقر على حرمه فحرمه وجرده من رتبة الكهنوت

فلما رأى ذلك مرقس بن قنبر نهج في المسألة نهجاً غريباً اسف على حصوله فيما بعد اسفاً لا مزيد عليه وهو انه وفع دعواه الى الحكومة الاسلامية وقال انه لم يعظ بشيء ينافي القوانين الكنائسية وطلب اعادة النظر في دعواه بحضور الحكام المسلمين فاظهر الحكام استعداداً للتداخل في ذلك الامر ولكن البطريرك واساقفته رفضوا تداخل الحكومة رفضاً باتاً بدعوى ان تلك المسألة دينية محضة وبعد ذلك رضى البطريرك بقبول تحكيم مخائيل بطريرك انطاكية «١»

فسعى مخائيل في فض الخلاف بالحسنى ولكنه لم يرض الطرفين لانه اشار بان يقلل البطريرك من اهمية الاعتراف السمعي وان يتنازل بن قنبر عن المبالغة والتهويل فادى ذلك الى فتور العلائق قليلاً بين بطريركية مصر وانطاكية اما ابن قنبر فانه لما رأى ان بطريرك انطاكيا لم يقم بتعضيده لم ينتظر الى ان يأتيه الحكم بالقطع من الكنيسة بل ذهب مع عدد غفير من اتباعه الى الكنيسة الملكية اليونانية وقد كانت في ذلك الوقت منحطة ولم يكن لبطاركتها قوة نافذة في مصر وكانوا يتركون رعيتهم القليلة العدد

(١) بطريركية انطاكية من القائلين بان للمسيح طبيعة واحده

ويقضون معظم العمر في القسطنطينية والرعية غائصة في بحار الخرافات والجهالة وعما قليل ندم بن قنبر على ما فعل وعاد يتوسل الى البطريرك فقبله في حضن الكنيسة وحله من الحرم الذي اوقعه عليه . وعرف بن قنبر ان افعاله الاخيرة اضاعت نفوذه لان القبطي يشعر ان انحرافه عن الايمان الارثذكسي وعدم اخلاصه لكنيسته ليس من الايمان . فآل ذلك الى اعتقاد الاقباط فيه انه غير بطل فلم يصبر على تلك الاهانة الادبية خشية من حسن السمعة والاحدوثة فرجع الى الكنيسة اليونانية وعاد الى العصيان ولكنه لم يلبث طويلاً حتى تاب ورجع فلم يشأ البطريرك قبوله لانه خان الكنيسة ثلاث مرات فوقع ذلك المسكين في ظلمة دامسة ويأس عظيم

وكل ذلك نظر عدم ثباته على مبداء واحد ولم نعلم عنه بعد ذلك الموت الادبي شيئاً الا انه مات (١) بعد ذلك بسنين طويلة وكانت تلك الاعوام حتى عام ١١٦٠ مسيحية (٥٥٥) هجرية ذات حوادث عظيمة وكثيرة في مصر اضعفت شأن البلاد . وفي تلك السنة توفى الخليفة وعمره احد عشر سنة ولم يحكم الا ست سنوات فقط واقام الوزير الملقب بالملك الصالح عبد الله ابن يوسف بن الحافظ لدين الله خليفة وهو قاصر وبايعه

(١) المقول انه لم يمت الا بعد تولية البابا النوسنت رأى (الذي بلا عيب) الثالث بابا على روميه وقرر ضرورة الاعتراف السماعي في الكنايس الغربية لدى الكاهن لا امام البخور وطابق في ذلك اعتقاد ابن قنبر وكان انتخاب هذا البابا سنة ١١٩٨ مسيحية ولكن ذلك المبدأ لم يعمل به بين الكنايس المصرية

بالخلافة ولقبه بالعاضد لدين الله وهو الوارث الثاني للخلافة وفي زمانه ضعفت شوكة الدولة الفاطمية وكان هذا الخليفة العاضد لدين الله آخر من سمي من الفاطميين ولما كان النفوذ جميعه بيد الوزير الصالح لقب نفسه سلطان بابليون ولم يعد الصليبيون بعد يسمعون بلفظة خليفة من ذلك الحين

الفصل الثاني والخمسون

حريق بابليون

سنة ١١٦٠ مسيحية و ٨٧٦ للشهداء و سنة ٥٥٥ للهجرة

ولم يحكم الخليفة الفائز بنصر الله الا سنة واحدة وتوفى سنة ٥٥٥ هجرية مقتولاً بمساعي أخت الخليفة السابق وبوفاته وقعت مصر في ارتباكات عظيمة وهبطت الى مهاوي الضعف حتى كان رجال حكومتها ينقدون الصليبيين مبالغ وافرة ترضية لهم حتى لا يغزوهم من جهة غزه او عسقلان . وبويع ابن الفائز مكان ابيه لكنه لم يحكم الا زمناً قصيراً وكان وقتئذ اثنان مرشحين للخلافة وهما الامير ضرغام الملقب بابي الاشبال وشاروا وكان هذان الرجلان في مقدمة الامراء الذين كان انشأهم الملك الصالح طلائع ابن رزيك في وزارته وكان يدعوهم البيرقية . وما زال ضرغام يرقي الى ان صار حاجباً . اما شاور فتولى الوزراه . فطمع فيه درغام واراد ان يسلبه وظيفته فتحفز الاثنان بجنودهما للاقتتال . وبعد ان لبث شاور

في الوزراة تسعة اشهر ثار ضرغام في رمضان سنه ٥٥٨ هـ وطرده من القاهرة بعد ان قتل بكره فهرب الى الشام والتجاء الى والي دمشق وكانت يومئذ تابعة للدولة التركية التي تأسست في القرن السابق وسلطانها هو اتابك نور الدين الذي غزا سوريا وكان عدو الصليبين الالد فاستنجد شاور باتابك نور الدين المعروف بالخليفة العباسي في بغداد ليرد اليه وزارة مصر فاجابه الى طلبه وغزا مصر وقد كان في نيته ان يفعل ذلك قبل ان يدعوه اليه شاور. فاتفق نور الدين مع شاور على ارسال حمله عسكرية الى مصر تحت قيادة رجل مشهور يدعى اسد الدين شير كريه. وكان شير كويه كردياً وبطلاً مقداماً من قبيلة الروادية وهي اشهر قبائل الاكراد وكان هو وأخوه نجم الدين ايوب مخلصين في خدمة الاتابك نور الدين وكان يثق بهما ثقة تامة. فدعاهما الى قياده الحملة الى مصر. فلما تاهب شركويه للسفر طلب منه ابن اخيه يوسف نجم الدين ايوب ان يسير معه الى مصر فابى والده نجم الدين شقيق شير كويه ان يسير مع عمه في تلك الاخطار نظراً لحداثة سنه ومنعه نور الدين ايضاً ولكن يوسف صمم على الرحيل في طلب العلى والمجد. ولعل المقادير دعته الى هذا التصميم ليتم له ما كان مسطوراً في الغيب من الشهرة فان سلطته امتدت الى اقصى الممالك الاسلامية وصار البطل الضرغام الذي سارت بذكره الركبان في كل اين وآن وهو السلطان صلاح الدين الايوبي وكان مولده في قلعة اكريت سنة ٥٣٢ هجريه.

ولما آنس والده فيه اصراراً على الذهاب مع عمه صرح له وقام شير كويه بالجيوش ومعه ابن أخيه وشيعهما نور الدين بنفسه حتى حدود مصر بقصد ان يوهم الصليبين الذين أمامه انه آت بجيوشه لمحاربتهم كي ينكمشوا من ذلك الوهم ولا يتحرشون بحملة شير كويه ويصل سالماً الى مصر

وقبل ان يقوم شاور الى مصر مع الحمله ويفارق نور الدين وعده ان يدفع له ثلث ايراد الحكومة المصرية مكافئة له على اعادته الى منصب الوزارة

اما ضرغام فاستقر في الوزارة بعد هروب شاور الى دمشق ولقبه الخليفه العادل لدين الله بالملك المنصور فشكره الناس في بادىء الامر لانه كان فارساً جميل الصورة لطيف المحاضرة الا انه كان سريع التهيج ينتقم لاقل سيئة من اصحابه حتى انه لما بلغه ان رفاقه البرقية يسعون الى خلعه وتولية الوزير شاور بدله جمعهم في دار الوزارة وقتلهم ليلاً بالسيف عن اخرهم وكانوا نحو سبعين اميراً عدا الذين يلوذون بهم فضعفت البلاد بموت ذوي الرأي من اكابرها فمقته المصريون سيما بعد حملته على الافرنج وذلك ان ارموري او امالريك ملك الصليبين في اورشليم طلب من ضرغام المتأخر من الجعل الذي تعهد المصريون بدفعه لقاء الهدنة من زمن السلطان الصالح طلائع وهو عبارة عن ٣٣ الف دينار تدفع سنوياً لبلدوين ملك الصليبيين باوروشليم. فلما تأخر ضرغام عن دفع تلك الجزيه قام

الافرنج على مصر بجيش جرار ليفتحوها فارسل اليهم ضرغام اخاه هماماً بقوة عسكرية الى الحدود فحاربهم فغلبوه وتبعوه الى قامة بلبيس فبادر همام الى قطع جسر النهر ففاضت المياه على الارض وغمرت جانباً عظيماً منها فصارت حاجزاً بينه وبين الاعداء

وبعد هذه الموقعة قدم اسد الدين شركوبه من الشام برجاله البواسل فلما رأى الافرنج ما كان خافوا وعادوا من حيث اتوا اما ضرغام فلما علم بقدوم شاور وعرف انه سيقع بين نارين نار الافرنج ونار سلطانه دمشق أرسل الى أموري ملك الافرنج باورشليم ووعده بمضاعفة مقدار الجزية اذا هو اعانه على سلطان دمشق. وقبل الوصول الى نتيجة فاجأه شيركويه وشاور بجندهما على مقربة من قليوب يوم الخميس ٦ جماد آخر سنة ٥٥٩ هـ

فلما رأى ضرغام ان لاقوة له على دفع ذلك الجيش العرمرم هرب الى القاهرة وحشد طائفتي الريحانية والجيوشية واستعد للقاء شاور الذي بعد ان أقام بضعة أيام بجيشه في قليوب سار الى القاهرة وعسكر بجي الازبكية فخرج عليه ضرغام بكل قوته فهزمه شاور شر هزيمة وسار الى مصر القديمة . ومال المصريون الى شاور كما هي عادتهم في مثل هذه الاحوال فنصروه وخصوصاً بعد مارأوا من ضرغام جوراً زائد المقدار اذ كان يعبث بالحقوق ويستحيل مال الايتام. واستمر شاور في مطاردته والفتك برجاله فلما رأت رجال ضرغام ان لاقبل لهم بالوقوف امام تلك القوات أغاروا على شاور فانحلت عصبيته سيا بعد ان أمر العاضد المحاربين

بالكف عن القتال . فصار درغام يدق الطبول وينفخ في الابواق من فوق الاسوار فلم يخرج اليه أحد . فوقف على باب الذهب من أبواب القصر ومعه ٥٠٠ فارس وتوسل الى الخليفة حتى يشرف عليه فلم يجبه أحد وظل كذلك حتى العصر وتفرقت عنه الناس ولم يبق معه سوى ٣٠ فارساً وأخيرا ورد اليه مكتوب يقول كاتبه فيه انج بنفسك. ومن ثم دخل جيش شاور الى القصر فهرب ضرغام الى باب زويله فادركه الناس ورجلوه عن فرسه بين القاهرة ومصر القديمة قرب جامع السيدة نفيسه وقطعوا رأسه وكان ذلك يوم ٣٠ جماد الثاني من تلك السنة. وهرب أخوه الى المطرية فقتلوه وقتلوا أخاه الثاني عند بركة الفيل وبقي ضرغام ملقى على الارض يومين وبعد ذلك حملوه ودفنوه في القرافة .

وانحازت جميع الناس الى شاور فرأى انه ملك البلاد والنفس بالطبع امارة بالسوء فجنحت نفسه الى المعالي فنكث عهده مع سلطان دمشق وابى دفع تلك الجزية الراتبة وهي ثلث ايراد الحكومة المصرية وامر شيركويه بالخروج برجاله من بلاد مصر حالا فاستأ شيركويه من ذلك وابى القيام بجنده وظل معسكراً امام القاهرة جملة ايام وبعد ذلك قام حتى وصل الى بلبيس من اعمال الشرقية وعسكر فيها فانتشرت جنوده كالجراد في طول البلاد وعرضها ترتكب الفظائع والقسوة لافرق في ذلك بين مسلمين ومسيحيين نكاية في شاور الذي اعلم شيركويه انه ساع في عقد معاهدة مع الصليبين لاخراجه بالقوة من مصر حتى يستقل بالسلطان

ويستغنى عن جيوش السلطان نور الدين الذي كان سبباً في رجوعه الى تلك النعمة .

وظلت جنود شيركويه تسوم الاقباط عذاباً حتى ترك بعضهم دينه واعتنق الاسلام واضاع المسلمون وطنيتهم وسعوا في استرضاء الاتراك بدلاً من ان يتحدوا مع الاقباط ويقاوموهم . ولم تقم النخوة في صدور رجال الفريقين من مسلمين وأقباط للمحاماة عن اعراضهم ومقتنياتهم والمدافعة عن نسائهم وبناتهم اللاتي كن يبعن بيع الجواري في جيوش شيركويه الا انه لما ازداد الضغط على الاقباط قاموا قومة كرجل واحد في بعض الايام لدفع الظالمين فاقتتل الفريقان واستشهد من الاقباط كثيرون في ذلك الحين

اما شاور فارسل الى اموري ملك الصليبيين يستنجده في اخراج شيركويه وجيوشه من مصر . فاجاب اموري الطلب فعاد الى مصر بعد ان كان قد رحل بجيوشه الى سوريا وحاصر بلبس التي كان يعسكر فيها شيركويه بجنده . وبعد حصار شهرين . اتفق قيام السلطان نور الدين نفسه بجيش جرار الى مصر لنجدة شيركويه فلما علم الصليبيون بذلك خافوا وطلبوا الى شيركويه ان يخلي بلبس ويسترجع اسراه ويعود الى سوريا .

ولما كان شيركويه غير عالم بقدوم السلطان نور الدين قبل هذه الشروط ورضي من الغنيمة بالاياب . وعاد الى سوريا فالتقى بنور الدين

يحارب الصليبيين وهو قادم الى نجدته فانضم اليه ونصره عليهم غير ان انتصاره على الصليبيين لم يقلل من اشتياقه الى افتتاح مصر وكان لا يفتأ يحث نور الدين على المبادرة بذلك نظراً لما رآه من خصوبة ارضها ووافر ثروتها فطمحت نفسه الى امتلاكها والتمتع بخيراتها وكان اشتياق شيركويه الى فتح مصر لا يقل عن شوق الاتابك نور الدين الذي كان يريد من ارسال شيركويه بجنده اليها ان يفتتحها لسببين الاول — لينجد شاور الذي استغاث به ويعيده الى الوزراة والثاني — المعرفة باحوال مصر نظرا لما بلغه عن ضعف جنديتها وارتباكها وكان قد اتفق مع شاور سرا ان يسلمه مصر فيطيه ثلث ايرادها

ولم يكن الصليبيون اقل معرفة بما لمصر من الخصب والجمال من شيركوية وسلطانه فبذلوا المجهود في افتتاحها . وقطعوا الطريق على جيوش نور الدين السائرة الى مصر . فلم يبال نور الدين بذلك وقطع سوريا وبلغ حدود مصر ودخلها في ربيع اول سنة ٥٦٢ هجرية . قبل ان يظفر به الصليبيون ويقطعوا عليه الطريق فعادوا الى غزه فالعريش فبلبيس ولما اتوا الى بلبيس كان نور الدين وشيركويه قد بارحاها وعسكرا بقرب القاهرة فلما علم شاور بذلك خاف خوفاً شديدا وعلم انه ان لم يسارع الى ملافاة الخطب تقع مصر في يد الاتابكة وبعد ذلك علم ايضاً بقدوم جيش نور الدين ومجيء جيوش الصليبيين وراءها في سنة ١١٦٠ مسيحية وليس للفريقين مطمع الا في الاستيلاء على بلاده . ففضل محالفة الصليبيين على

الانحياز الى الاتراك ولو كانوا من ابناء جنسه فسلم اليهم القاهرة واتحد معهم على قتال شيركويه وكان شيركويه معسكراً على بعد اثنى عشر ميلاً من القاهرة فرأى انه لايستطع بعد عبور صحراء المقطم ان يهجم على تلك المدينة الحصينة فقطع النيل وعسكر على الضفة الغربية . فلما دخل الصليبيون الى القاهرة لم يوافقوا شاور على ما اراد الا بعد ان تعهد لهم بزيادة الجزية السنوية وعقد الطرفان معاهدة بذلك بواسطة مندوبين من كلا القومين فدفع لهم شاور ٢٠٠٠٠٠ دينار وتعهد ان يدفع مثل هذا المقدار بعد مدة يسيره

الا ان ذلك لم يقنع الصليبيين لانهم عرفوا ان شاور سريع التقلب وربما لايلبث ان ينتقض عليهم خصوصاً وانهم علموا بما صار منه مع السلطان نور الدين وكيف انه نكث وعده ولم يدفع له ثلث ايراد مصر في نظير نصره اياه على ضرغام وتوطيد قدمه فلم يرضوا ان يقبلوا شروطه الا بحضرة الخليفة نفسه فاجتهد شاور ان يقنعهم باستحالة ذلك بالنظر لعظم مركز الخليفة وانه لايجوز في شرع المسلمين ان يمثل أحد بين يدي امير المؤمنين الا المؤمنين بالله ورسوله وبما ان الافرنج مسيحيون فلا يجوز لهم الوقوف أمام خليفة النبي صلعم .

ولكنهم لم يقنعوا بتلك الخدع وابوا الا ان يكون ما طلبوا فرضي شاور بذلك وانتدب الافرنج الذين اعتمدوهم لمقابلة الخليفة منهم هوج صاحب قيصيرية وجوفري فيلكس ووليم بنز وغيرهم من اشراف

الصليبيين واجتهد شاور في تنظيم الحرس وزخرفة السراي التي يقيم فيها الخليفه ليوهم الصليبيين حتى يخشوا من عظمته وصف الجنود السودانية عن الجانبين ورتب الذخائر والنفائس والجواهر والاسلحة في الدهاليز بصورة مدهشة حتى صار الافرنج من مشاهدة تلك الحجارة الكريمة والاواني الزجاجيه وانواع الوشي والتطريز والكلل المزركشة والستائر البديعة المرفوعة على باب الحجرة التي يجلس فيها الخليفة . فلما بلغوها ورفعت الاستار سجد ثلاثاً يشاور وقبل الارض ثلاثاء والقى سيفه ودخل الى الخليفه والقى سيفه ودخل الى الخليفة واستأذنه بدخول مندوبي الافرنج فسمح لهم بالدخول بعد ان اعطاهم شاور التعليمات عند كيفية مقابلته . فقابلوه ورضي الطرفان بتلك الشروط . ولكنه لم يكتف الافرنج بذلك بل طلبوا ان يعاهدهم الخليفه على ذلك بمصافحتهم باليد علامة على الرضى فاعلمهم رجال البلاط ان ذلك لا يمكن نظراً لان يد الخليفة اطهر من ان يمسها غير المؤمنين فاصر الافرنج على الطلب فصافحهم الخليفه علامة على الرضى والاتفاق فاقتنعوا بذلك وذهبوا الى حال سبيلهم وفي اثناء ذلك تقدم شيركويه ليلاً وعسكر في الجيزه امام مصر القاهره . فاراد اموري ملك الصليبيين ان يصنع جسرا من القوارب ويعبر بجنوده عليه ويهاجمه فكانوا كلما ابتدوا في بنا الجسر يشغلهم شيركويه عن اتمامه فبقى الجيشان على هذه الحالة نحواً من خمسين يوما تمكن فيها شيركويه من الاستيلاء على ضفة النيل الغربية وارتحل بجيشه نحو مصر العليا فسلمه

اياها اهلها بغير معارضه وتبعه الصليبيون بعد ما تركوا حاميات في جميع حصون القاهرة حتى سراي الخليفه . ولما ادرك الصليبيون والمصريون شيركويه التحم الفريقان في معركة عند مضيق يدعى البابين وافتتلا يوما كاملاً فانتصر شيركويه وطاردهم فعادوا عنه الى القاهره وكر بجيوشه ورأهم بعدان ترك حامية في مصر العليا وسار لاخضاع مصر السفلى وفتح الاسكندريه واقام عليها اخيه يوسف صلاح الدين . ولما سمع الصليبيون في سوريا ان اموري فتح القاهرة وصار على جانب عظيم من القوة جاؤوا اليه يطلبون ان يقاسمهم في خيرات مصر

ولما رأى شيركويه تكاثر عدد العدو عليه وانه لم يعد في طاقته مقاومتهم بما بقى لهم من الرجال سيما بعدان قطع الصليبيون عنه سبل المدد من سوريا اتحد مع شاور والصليبيين وتعهد ان يخلي مدينة الاسكندرية لشاور على شرط ان تحسب جنود الصليبيين والسوريين الى سوريا وان تبقى مصر لشاور وحده فقبل الفريقان بهذه المعاهدة ورحل شيركويه وابن اخيه الى دمشق . اما الصليبيون فابوا مبارحة القاهره الا اذ تعهد لهم شاور بدفع مائه الف دينار (عبارة عن ستين الف جنيه انكليزى) في نظر خروجهم منها بذلك فترك الصليبيون قوما منهم في القاهرة الى ان يقوم شاور بدفع المبلغ وخرجوا وشاور غير مصدق من شدة الفرح ولما انسحب اموري الى سوريا وجد اخوانه الصليبيين حانقين عليه انه اضاع الجزيه الكبرى التي كان يلزم ان يتقاضاها من مصر ومع انه لا يزال باب الامل مفتوحا للعودة الى فتحها

اذا تأخرت الجزية لكن ذلك لم ينقذه من الندم وتوبيخ نفسه على مافعل اذ اخلص للذين عاهدوه غير مخلصين وصمم على العوده لفتح مصر

واتفق ان حامية الصليبيين في القاهرة اخذت تحاول الاستيلا على مصر غير مبالية بتلك المعاهدة فكتبوا الى ملكهم اموري ان يمدهم بجيش لاستلام امور مصر سرا قبل ان يعلم بذلك نور الدين ويرسل جنوده السورية لما كسته فما . عتم ان وصل ذلك الكتاب اليه وجاء مطابقا لما يضمره حتى اسرع وجند جيوشه وكر راجعا الى مصر بغته فوصل بلبيس بعد عشرة ايام وحاصرها ثلاثة ايام . ثم دخلها برجاله فامنعوا فيها سلباً ونهباً وقتلوا كل سكانها ما عدا الذين استحيوهم ليسترقوهم وكان اموري يريد بذلك القاء الرعب في قلوب مسلمي القاهرة . وزحف اموري بقوة بأس الى القاهرة فوصلها في خلال يومين ولم يبال بتعب الجنود وروي بعض المؤرخين ان جنوده تألمت من مشهد سبي بلبيس فلم يمكنهم متابعة المسير قبل ان يستريحوا وتزول من مخيلتهم صورة ذلك النظر الفظيع وقال بعضهم ان اموري لم يكن ينوي فتح مصر بل يقصد تقرير ضريبة على شاور اكبر من التي فرضها عليه فمهد بذلك السبيل الى فتح باب المخابرات مع شاور فتحير شاور واخيراً كتب الى نور الدين يستنجده فاراد نور الدين ان يذهب بنفسه لكنه خاف ان يغتال احد الاعداء بلاده فارسل اليه نجدة تحت قيادة شيركويه

اما اهالي القاهرة فلما سمعوا بما فعل الصليبيون باهالي بلبيس بد

حصارها (١) ثلاثة ايام اقسموا ان يدافعوا عن بلادهم حتى اخر نسمه من حياتهم

وكيفما كان الحال فان تأخير شاور في دفع الجزية الاولى في الحال اضر بالاقباط ضرراً لا يوصف فانهم كانوا دائماً اول من يقع عليه الارزاء واخر من يتألم من نتايج سياسة حكام الاسلام الخرقاء الذين حكموا مصر زمناً طويلاً .

وكانت مصر ذات اربعة اركان بالنظر للتدابير الحربية فصارت ركنين فقط . من الشمال للقاهرة او مصر القديمة . ومن الجنوب لبابليون والفسطاط وبين هاتين النقطتين البيوت الجميلة والحدائق الغناء . وكان نصف سكان القسم الشمالي اقباط ونصفهم مسلمون . اما قسم العاصمة الثاني وهو الجنوبي اي الفسطاط وبابليون فكان كل ساكنيه اقباطاً . وكانت حامية الصليبيين التي تركها اموري قبل خروجه من مصر تحتل القاهرة

وترآءى لشاور ان ديانة الاقباط والصليبيين واحدة لا تختلف عنها

(١) اتفق اكثر من واحد من مؤرخي اوربا ان مدينة بلوزيوم هي التي نهبها اموري في هذه الغزوة ليست بلبيس مع ان المؤرخين المصريين يذكرون صريحاً أن مدينة بلبيس بلده صغيرة لم تكن معروفة كثيرا عند كتاب الغرب مثل بابلون فلذلك ظنوا ان ذكرها جاء خطاء والواقع انها كانت في ذلك الحين من ضمن حصون مصر العظيمة وعلى كل حال فالمدينتان كبيرتان فبلوزيوم قائمة في طريق القادمين من سوريا الى الاسكندرية و بلبيس في طريق القادمين الى القاهرة

كثيرا في الاصل والمبدأ فتخوف من ذلك كثيراً وحسب لذلك حساباً كبيرا فتوهم ان المسيحيين احتاطوا به من كل صوب اقباط كانوا ام افرنج وتصور انه لا بد ان يأتي يوم يقوم فيه المسيحيون فيستأصلون المسلمين ويخرجونهم من املاكهم في مصر في حين انه يخلص لاموري ويقوم له بدفع الجزية فلما تمكن منه هذا الوهم دعا مسلمي مصر الى القيام بحرب دينية عامة ضد المسيحيين كلهم واشعل النار في بابليون حتى لا يعسكر فيها الصليبيون وقطع النيل حتى يمنع ورود المدد على الاعداء ومرت ايام وليالي والدخان يتصاعد من تلك المدينة العظيمة الى السما (١)

(١) حاول بعض المورخين اثبات حصول الحريق في ضواحي القاهرة ولكن مما لاشك فيه ان مدينة بابليون وجزء عظيم من الفسطاط مع الصحراء التي بين هذه والقاهرة حرقت وذهبت في ذلك الحريق اشهر كنائس الاقباط في ذلك العصر وهي دير ابو سيفين القائم في ذلك المهد على شاطي النيل بين الفسطاط وبابليون وقد اعيدت الكنيسة والدير في مكانهما الاصلي على شاطي النيل غير ان النيل تحول عن مجراه الطبيعي الى الخلف قليلاً والطريق الذي تهدمت فيه اسوار الدير القديم تجري عليها الان سكة حديد حلوان . ولما كانت الاسوار قديمة المهد وقوية البنيان ولم تاكل النار الا جزءا منها فتري اثارها باقية الى الان نحو الشمال الغربي من جامع عمرو القريب منها جداً ولم نسمع كما ولم يذكر التاريخ ان جامع عمرو اصيب في ذلك الحريق كما ولا كنيسة العذرا وانما شنوده القائمتين داخل سور ابي سيفين وسند كنيسة القديس مقاريوس الحاليه يدل على انها كنيسة العذراء وليس كنيسة القديس المذكور المعروفه بابي سيفين وحرقت في بابليون

وخرب جزء عظيم من الفسطاط خراباً تاماً واستمر اللهيب يأكل في المدينة اربعة وخمسين يوماً بدون انقطاع. ولم يستطع احد أن يحصي عدد الذين هلكوا في النار ولا ان يخبر عما حل بالمسيحيين الهاربين الذين يظن انهم عبروا النهر الى بلاد الجيزة .(١) وامتدت النار الى مسافات مترامية حتى كان لهيبها المرعب يفزع الناظرين اليها من الاقباط المساكين. وبعد ان فنيت الامتعة والموجودات انطفأت ولم تترك الا اثارا بالية واطلالا خاوية وتلالا تعلوها الاتربة ولم يظهر منها غير بعض قباب الكنائس والمنازل التي كانت قائمة داخل الاسوار الصلبة الباقية من حصن الرومانيين المتهدم

وكان ذلك المنظر يومئذ تتفتت له الاكباد حسرة على شقاء البلاد التي انتابها الشقاء والدمار وحل بها الخراب والبوار. والمنقب في اطلالها قليلا يجد كثيرا من النقود والسبج والعقود والحبوب والشقافة ونحو ذلك. ولم يكن في وسع الاقباط وقتئذ ان يعود الى بناء كنائسهم الا في مكان او اثنين من مما التقطوه من الحجارة المتفرقة والفسيفساء الجميلة التي كانت لم تزل باقية في مواضعها يحرسها الكهنة الذين لم يهربوا من النار. ووجدوا ايضا ستة كنائس باقية داخل حصن الرومانيين لم تصب بضرر ففرح بها الاقباط فرحاً عظيما وتعزوا بها عما اصابهم من الخسائر

ولا تزال مدينة بابليون تذكر الى الآن باسم الكنيسة الموجودة في

(١) من ضمن الذين هربوا من هذا الحريق بطريرك الارمن اذ قد هرب اسلى وريا والتجأ الى كنيسة باروشليم كما يقول ابو صالح المؤرخ

مصر القديمة التي تدعى كنيسة بابليون

وهي الان كنيسة حقيرة سورها من الطوب المتهشم وهو مما يدعو الى الاسف والتحسر على زوال ذلك المجد البازخ العظيم

الفصل الثالث والخمسون

الفتح الكردي

سنة ١١٦٨ مسيحية ٨٨٤ للشهداء و٥٦٤ هجرية

ولم يهداء شاور عن اعماله وتدابيره اثناء حريق الفسطاط بل كان مستمرا في مشاغلة الصليبيين بواسطة مخابرته مع اموري قائد جيوشهم وازداد نشاطاً في ذلك لما جائته الانباء بعودة شيركوية بجيشه الجرار الى مصر فحاول الاتحاد مع اموري واقناعه بان وجودهم بهذه الصفة في مصر لا تامن منه قدوم نور الدين ايضا بجيشه بقيادة شيركويه فلم تدخل هذه التدابير في ذهن الملك اموري فعرض عليه شاور مبلغا وافرا من النقود مقابل انسحابه الى سوريا. ولما كان اموري معروفا بالطمع وحب المال قبل منه ذلك تحت شرط ان يجعل قيمة الجزية المتفق عليها من اية الف دينار الى مليون دينار فقبل شاور بذلك رغم ارادته ولكن فضلا عن قبول شاور بتلك الجزية الفادحة فان اموري رفض الانسحاب قبل ان يدفع له شاور على الاقل مبلغ المائة الف دينار فورا وباقي المليون يدفعه له على اجل

مسمى فدفع له شاور ما اراد فانسحب بجيشه الى سوريا محبة للمال . فاستاء رجال جيشه من ذلك الانسحاب وتقموا عليه لعدم دخولهم القاهرة التي كان الصليبيون يعتقدون باهميتها ويحلمون بغزوها ونهب مافيها من الكنوز والغنائم ولكن لاعجب فان التاريخ ملآن بامثال اموري الذين يبيعون تعب الجنود وفخر النصر والفتح بمبالغ مالية قليلة الاهمية

ولما سار اموري قائد الصليبيين قاصدا سوريا بجنده التقى عند بلبيس بالقائد شيركويه قادما بجيش جرار من قبل الاتابك نور الدين يقصد تخليص مصر من يد شاور وذلك لان الخليفة العاضد انتهز فرصة اشتغال شاور بمخابراته مع اموري في موضوع الجلاء عن مصر وغرق هو ايضا في مخابرات سرية مع الاتابك نور الدين وتم المعاهدة معه على انه اذا كان ينجيه من شاور واستبداده يعطيه ثلث خراج مصر . فقبل منه نور الدين تلك المعاهدة على شرط انه عند وصول شيركويه بجنده الى مصر يوليه وزيرا بدل شاور بعد هزيمته . وعلى ذلك اسرع شيركويه بجنده فرحاناً الى مصر فالتقى بجيوش الصليبيين عند بلبيس كما قدمنا فتحارب الجيشين وانتهى الامر بانهزام اموري واسراعه بالرحيل الى سوريا فاغتم شاور واغتاظ سرا من انتصار شيركويه الذي بعد فرار الصليبيون دخل القاهرة في ربيع الثاني سنة ٥٦٤ هجرية بابهة عظيمة وقصد سراي الخليفة رأسا . فرحب به الاهالي والخليفة معاً بصفته مخلصهم من ظلم شاور

وبعداً خلع عليه الخليفة واكرم مثواه بالهدايا الفاخرة له ولسائر جنده .

فاغتاظ شاور من ذلك الاكرام ولكن لم يعدفي وسعه اظهار ذلك الغيظ والجنود السورية حوله كالتفاف السوار على العظم . فكتظم الغيظ وتظاهر بالوداد والمحبة لشيركويه وصار يزوره في معسكره على نية ان يدعوه الى وليمة عنده فيقضي عليه فيها . ولكن ابت المقادير الا ان تظهر ليوسف صلاح الدين الايوبي ابن اخ شيركويه بعض نوايا شاور لعمه وبلغ ذلك ايضاً مسامع كبار الجند السواري فدبروا لشاور ما كان يدبره لامـيرهم شيركويه وعند بلوغه معسكرهم بقصد زيارة شيركويه قبضوا عليه وكبلوه بالحديد ولما علم بذلك شيركويه امرهم ان لايأتوا به سوءاً ولكن الخليفة العاضد لما علم ان رجال شيركويه قبضوا على شاور امرهم ان يأتوا برأسه اليه فجزوا رأسه بالسيف وارسلوها له في الحال وبعد ان راها وارتاح ضميره وامر سكان القاهرة بنهب سرايه وكل ممتلكاته

وبعد ان انسر الخليفة العاضد جداً لنجاته من وزيره الذي جعله باستبداده وسوء تدبيره رقاً بل اذل من الرق . ولى شيركويه وزيراً له بدله اثاماً للمعاهدة التي بينه وبين الاتابك نور الدين ولقبه بالملك المنصور . وكان امر توليته يوم الاربع ١٧ ربيع الاول سنة ٥٦٤ هجرية . وبعد استلامه زمام مصر ضغط على الاقباط وامرهم بشد الزنانير على اوساطهم ومنعهم من ارخا الذوابه المعروفه بالعزبه . (القلقشوه)

ولكن لحسن حظهم لم تطل مدة وزارته اذ عاجلته المنيه في ٢٢ جماد الثاني سنة ٥٦٤ هجرية فلم تدوم مدة احكامه الا شهرين وخمسة ايام فقط

وبعد وفاته احب الخليفة العاضد ان يبين محبته لشيركوه فولى مكان شاور ابن اخيه يوسف صلاح الدين ولقبه بالملك الناصر وكان لا يزال شاباً . فكان الخليفة يفضل الوزراء الشبان عن سواهم لزعمه بمقدرتهم على جذب ثقة الجند اليه فيأمن شرهم . ولكن لم يدر في خلده ان ذلك الشاب اليافع سيكون اشد نفوذاً واعظم تأثيراً في الجند ممن تقدمه من الوزراء لانه كان لين العريكة فصيحاً متواضعاً وكان متمسكا بالتقاليد الاسلامية القديمة ومتطرفاً جداً في تادية فروضه الدينية . وكان يحتقر ويزدري الرفاه والنعم . كما كان يستخف ويهزأ بالعلوم والفنون على السواء . ويعتقد ان الصنايع الفنيه والفنون الجميلة ضرب من عمل الشيطان . اما مطامعه في الشهرة العالميه كانت لاتحد . وقد قوى فيه ذلك الطبع لانه كان قد حلم مدة حداثته انه لايموت قبل ان يكون سلطان دمشق وبابليون اي سوريا ومصر او المملكة البابيلونيه كما كانوا يدعونها . ولحسن حظه وتمهيداً لما يكنه له المستقبل انه اتي مع عمه الى مصر رغم ارادته . ولكن لو لم يحضر ابوه وعمه الى مصر واخذوه معهم لم يكن له حظاً بتولي الوزارة المصرية بعد عمه شيركويه . ولما كانت قوة الجند المعنوية ليست في يد الخليفة العاضد . بل كان فقط شاغلا مركز الرئاسة الدينية العظمي وكان كل الفاتحين كانهم يحجون اليه مع تبعهم وخضوعهم لخليفة بغداد العباسي . وكان الخليفة العاضد مقيماً في قصره كسجيناً . واهم مراكز الحكومة كان يشغلها اتباع صلاح الدين

ولما استلم صلاح الدين زمام الوزارة عصته الجيوش السورية لحداثة سنه فامالهم اليه بلينه ورقته فعادوا الى ولائه والضرب بسيفه .

وعمل الحسد في قلب جوهر الخصي الملقب بمؤتمن الخلافة وحدثته نفسه بخلع صلاح الدين وأخذ مركزه واوفقه على ذلك امرأ مصر وجنودها واتفقوا على ان يستدعوا الصليبين الى مصر حتى اذا خرج صلاح الدين بجنده لطردهم اتحدوا هم مع هؤلاء لطرده هو وجيشه من مصر . ثم ارسل موءتمن الدين كتاباً مخبوءاً في نعل حذأ مع رسولاً الى الافرنج فقابل ذلك الرسول احد اصحاب صلاح الدين فاشتبه فيه لانه رجلاً رثا وحاملاً حذأ في يديه وليس على الجزء اثر المشي فاخذ منه الحذاء ومزقه فوجد الكتاب بين النعل فحمله الى صلاح الدين الذي علم بعد التحقيق ان الذي كتب ذلك الكتاب يهودياً فامر بقتله فاسلم فعفى عنه فقص له ما كان من موأمرة موءتمن الدولة ضده . فاعرض صلاح الدين عنه حتى انتهز فرصة خروج موءتمن الدولة الى بستانه في الخرقانية فارسل عليه قوة عظيمة من الرجال فقتلوه يوم الاربعاء ٢٥ ذي الحجة سنة ٥٦٤ واتوا برأسه الى صلاح الدين فهاج جميع المصريين لذلك بما فيهم الجند ضد صلاح الدين واجتمعت طائفة العبيد والطوايف الريحانية والجيوشيه والفرنجيه امام جيش صلاح الدين الذي جمع مع أخيه طوائف الغز وغيرهم وقام القتال سجالاً بين الطرفين وآل الامر الى انهزام صلاح الدين لو لم يدركه حسن طالعه بقتل قائد طائفة العبيد فهبطت عزيمتهم وهجمت عليهم طائفة

الغز هجوم الاستقتال حتى كسروهم وطردوهم الى باب الذهب . وكان الخليفة العاضد وقتئذ يشرف على الواقعة من اعلى منظرته بالقصر وصار يحرض الجنود المصرية التي باعلا القصر برمي النشاب سراً على الغز وجنود صلاح الدين حتى هلك منهم كثيرون اوكادوا ينهزمون امام السودانيين. فلما علم بذلك صلاح الدين أمر باحراق المنظرة فاحضر اخوه شمس الدولة النفاطين لحرقها فخاف الخليفة العاضد على نفسه وخرج من المنظره وصاح قائلا (امير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد والكلاب اخرجوهم من بلادكم) فخارت بذلك عزائم العبيد وظل صلاح الدين واخيه شمس الدولة يعلان فيهم بالسيف والنار قتلاً وحرقاً ويطاردهم حتى باب الزويله وكان مغلوقاً فحصروا فيه ودار فيهم القتل يومين حتى صاحوا الامان فامنوهم يوم السبت ٢٨ ذي القعدة سنة ٥٦٥ ففتح لهم باب زويله وهرب من بقي منهم الى الجزيره وتتبعهم شمس الدولة بالسيف حتى لم يقلت منهم الا الشهداء وبهذه الواقعة المعروفة في التاريخ بواقعة العبيد تلاشت سطوة العاضد وكان هو اخر خليفة تلاشت على يديه الدولة الفاطمية . ومن غريب الاتفاق ان الذي فتح مصر للدولة الفاطمية وبنى القاهرة يدعى جوهر وهو جوهر القائد الشهير والذي كان سبباً في تقليص ظل تلك الدولة وكان خراب القاهرة على يده يدعى جوهر ايضاً وهو مؤسس الدولة الذي قام بمؤامرة ضد صلاح الدين وفشل . وهكذا بعد ان استأصل صلاح الدين جرثومة الفساد من البلاد كافأ أخوه شمس الدولة طوران

شاهد لما اظهره من البسالة في واقعة العبيد بان اقطعة اقليمي قوص واصوان وكان دخله منهما سنوياً نحو ٢٦٦٠٠٠ دينار فاشتد ساعده فغزى النوبة وابريم وسبي وغنم وعاد سنة ٥٦٨ هـ ثم خرج الى اليمن سنة ٥٦٩ وفتحها عنوة ولقب بالملك المعظم وخطب لنفسة بعد الخليفة العباسي

اما الاتابك نور الدين فعظم سلطانه وقويت شوكته باعتزاز صلاح الدين وانتصاراته فاتى مصر واراد معاكسة الصليبيين وانشاء دونمة مصرية وقام تجول بها في البحر الابيض المتوسط ثم اتى بذلك الاسطول الى شواطئ سوريا بقصد منع مرور تقاصدي الارض المقدسة ولكي يستولى على الامداد الذي يرد الى الصليبيين الذين تضايقوا من ذلك شديدا الذين بعد المداولة فيما بينهم اقروا على انتداب فردريك بطرك مور مع يوحنا اسقف عكا لاستمداد قوة ملوك فرنسا وانكلترا وايطاليا وباقي الامرأ المسيحيين ولكنهم لم يفلحوا في ذلك . فارسل امبراطور القسطنطينيه اسطولا موءلفا من ماية وخمسين مركبا شراعية جرين ملان الموءن والذخائر والجند واتحدوا بجند عسقلان وقام الجميع براً وبحراً الى مصر بقيادة اموري حتى وصلوا دمياط وعسكروا بينها وبين البحر في شهر صفر سنة ٥٦٥

فاحب اموري ان يأخذ دمياط هجومياً فلم يفلح لانها دافعت دفاعا هائلاً فالتزم بمحاصرتها فغشل في الحصار كما فشل في الهجوم لان الدمياطيون كانوا مستكملين الموون والعدد فلم يبالوا بالحصار الذي طال امده حتى نفذت مؤونة الصليبيين فقصدوا الدخول في فم النيل ليأتوا

بالراد فصدتهم سلسلة قوية من الحديد ممكنة من أحد الطرفين بمتاريس المدينة والطرف الآخر ببرج هائل منيع الجانب وكان قد وضع ذلك الحاجز مسلمو هذا دمياط نكاية بالصليبيين . فوقف الصليبيون في موضعهم ينتظرون المدد من سوريا عبثا بينما كانت الامدادات تصل الى الدمياطيين تباعا من القاهرة بهمة صلاح الدين . اما الصليبيون فلما لم يصلهم مددا قام الشقاق بين العناصر المختلفة المؤلف منها مجموعهم سيما بين الفرنساويين والسوريين واليونان . ودب فيهم الجوع الذي افضى الى انفصام عرى اتحادهم فكانوا يتخاصمون على كسرة خبز ويمضغون افنان النخل حتى انفصلوا انفصالا تاما . ولسوء طالعهم قامت انواء وزوابع بحرية وامطار متواصلة جعل جندهم البري كانه في طوفان ومراكبهم البحرية تلاطمت وتلاحمت من بعضها وكسرت بعضها بعضا وصارت بين قوتين جاذبتين . تكاثر اعصار النوء في النيل حتى جعلته سريع الجري من جهة وتهيج العواصف ومياه البحر المتوسط ضد مجرى النيل من جهة اخرى فتحطمت المراكب عن اخرها الا ماندر منها ومع كل فان تعاستهم زادت باشتغال النار في باقي السنين فاحترقتها

فبعد ان قاسوا اهوال تلك المصائب والجوع مدة خمسين يوما انسحبوا عائدين بخفي حنين بعد ان تعهد لهم المسلمين بعدم معارضتهم ولا مطاردتهم بالقتال اثناء انسحابهم الى سوريا .

وكان صلاح الدين قد وصل من القاهرة بعد انسحابهم بقليل ومعه

جيشاً جراراً بمعداته ليكون مددا للقوة الموجودة في دمياط فشق عليه أمر انسحابهم قبل القضاء عليهم ووبخ الامراء ونوابه وقواد جنده الذين سمحوا لهم بالانسحاب .

وفي السنة التالية جرد صلاح الدين جيشا عظيماً وقام به الى سوريا قاصدا الانتقام من اعدائه فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ هـ وحاصر ديرا قديماً للنصارى معروفا في التاريخ بقلعه داورن وهو على بعد اربعة امتال من غزة واتخذه حصنا له فلما علم بذلك اموري ملك الصليبيين وهو في عسقلان وقتئذ اتي بجيشه لمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان ولما بلغ صلاح الدين ذلك سار لملاقاته في الطريق وقامت واقعة بين الطرفين كان قوص النصر فيها حليف صلاح الدين فنزل على غزه واستولى عليها . فاستبشر المسلمون خيرا باتتعمار صلاح الدين المتوالي ولم يطمع في خلاف غزه بل اكتفى بها انتقاما بثأره فقط ثم ترك فيها حامية كافية لها وعاد الى القاهرة في ربيع سنة ١١٧١ مسيحية

ولما قويت شوكة صلاح الدين في مصر وعظم نفوذه حتى انكسف امامه نفوذ العاضد الذي أصبح خليفة اسما على غير مسمى . فلاح لنور الدين خليفة بغداد ان الاسلام في مصر اضحى في غنى عن سلطة الخليفة الفاطمي العاضد التي اصبحت لا معنى لها

فبعد وصول صلاح الدين من غزه بقليل وصله امرا من خليفة الرسمي وهو الاتابك نور الدين في بغداد يطلب فيه منه ابطال الخطبة

في مصر بأسم العاضد خليفة الفاطميين وان يخطبوا عوضا عنه للمستضيء بنور الله الخليفة الثالث والثلاثين من بني العباس في بغداد . فاعتذر صلاح الدين بعدم امكانه تنفيذ ذلك الامر فورا خوفا من قيام احزاب الدولة الفاطمية عليه وحصول مالا يحمد عقباه . ولم يقل ذلك صلاح الدين حبا في الخلافة الفاطميه أو خوفا من قيام الاحزاب عليه كما يدعي بل كان من حسن سياسته انه يود وجود الخليفه العاضد في مركزه رسما فقط فيستفاد من ضعفه وعدم نفوذه رجوع كل القوة والسلطان اليه في امور مصر فبقاء العاضد في مركزه ولو انه خليفة ضعيف في العقيدة والتقاليد الاسلاميه افضل لصلاح الدين من تتبعه لخليفة العباسيين قوي البطش حتى لا يقدر على مخالفته في امر فيصبح وقتئذ مسيرا في مصر لا مخيرا وشبه مستقل كما هو .

ولكن اعتذاره لم يصادف قبولاً لدى نور الدين ووصله امرا به اخر يحتم عليه تنفيذ الامر الاول فجمع صلاح الدين امراءه ومشيريه واطلعهم على امر نور الدين فبعضهم وافق والآخر استعظمه واخيرا قام من بينهم امير فارس اسمه امير عالم وحرض صلاح الدين على وجوب اتباع امر نور الدين واخذ هو على عاتقه مباشرة تنفيذه .

وقد كان يوم الجمعة الاولى من محرم سنة ٥٦٧ هـ الموافق ١٠ سبتمبر سنة ١١٧١ مسيحيه توجه امير عالم الى اكبر جوامع القاهرة وصعد المنبر وخطب في الناس وصلى باسم الخليفة المستضيء بامر الله العباسي فلم يعارضه احد

من العباسيين

فسر صلاح الدين لذلك سروراً عظيماً وأمر باعادة ذلك في جميع جوامع القاهرة والفسطاط يوم الجمعه الثاني فقبل الجميع الخطبة وبذا دخلت مصر تحت حماية الخلافة العباسية الدينية التي قاعدتها بغداد بعد ان كانت انفصلت عنها مدة ٢٠٧ سنوات . ولم يؤثر تغيير الخليفة على سكان مصر بشيء لان الامر عندهم سيان لان غرض العنصرين المسلم والقبطي وجود حكومة حية تعطيهم الحرية في فلح الارض وتثيرها طالما يدفعون ضرائب لها على اطيانهم ولا يجنون منها مقابل ما يدفعون نظراً للحروب وضياع الامن فالتزم الاتراك والاكراد والمماليك والعرب الذين تتكون منهم الطبقة العليا من سكان مصر ان لا يهتموا بامر الخلفاء بل مالوا للخضوع تحت سيادة صلاح الدين ووردوا توليته سلطاناً عليهم لعلمهم ان حروبه لا تنتهي فيغنمون من وراءها الغنائم الكثيرة .

ولم يخيب صلاح الدين ظنهم اذ وزع عليهم وعلى امرائه وجنوده كل الذخائر والكنوز تعلق الخليفة العاضد التي كانت ثمينة جداً لانه بعد ان نهب ناصر الدولة ذخائر الخليفة المستنصر التي لا تثمن من اية سنة مضت قبل زمن العاضد تمكن في اثنائها الخلفاء الذين اخلفوا المستنصر ان يجمعوا كثيرا من الكنوز والمجوهرات الثمينة التي نهبت عن يد صلاح الدين في عصر اخر خليفة من الخلفاء الفاطميين وهو العاضد المسكين وفي اثناء المائة سنة المذكورة تألف عند الخلفاء مكتبة جديدة جمع فيها من

الكتب القديمة عددا عظيما من ايدي الذين لايدرون بقيمتها واتصلت اليهم عفوا من زمن ناصر الدولة وكان صلاح الدين ينظر الى الكتب بالعين التي كان ينظر بها الخليفة عمر .

ومزق صلاح الدين كتب تلك المكتبة التي تبلغ المايه الف مجلد على علمأ عصره من المسلمين المصريين على امل ان يكسب بذلك محبتهم وثقتهم به . ولم يزل موجوداً الآن من المجلدات المذكورة محفوظة في مكتبة ليدن العظمي وكان لم يزل الى عهد قريب في هذا العصر بضع كتب موجودة بخط اليد باللغة العربية تدل على عظمة مكتبة الدولة الفاطمية

اما الخليفة العاضد فقيض عليه صلاح الدين واستفتى الفقهاء في قتله فافتوه بجواز ذلك لما كان عليه العاضد واتباعه من انحلال العقيدة وكثرة الوقوع في الصحابة والاشتهار بذلك

ولكن تركه صلاح الدين بدون قتل لان بقاءه وموته على حد سوى

اما العاضد فمن حسرته وحزنه من الاحتقار والاهانة التي لحقت به فضلا عن ضياع الخلافة من يده سقط في مرض عضال ثم حجز عليه في احدى غرف القصر الداخلية وكان ذلك المرض قاضيا عليه اذ توفى بعد ايام قليله من تلك الحسرة يوم الاثنين ١٩ محرم سنة ٥٦٧ هـ

وهكذا الدهر دولاب والدول كالافراد تموت وتحيى فماتت تلك الدولة الفاطمية العظيمة الشأن بموت الخليفة العاضد لدين الله ولكن كان موتها في حالة الخجل والضعف وانحات من نفسها كانحلال الشمعة تحت

شعلتها بعد تلك العظمة والسؤدد التي رآها خلفاؤها بعد ان عاشت نيف ومايتان سنة طبقت اثناءها الافاق في شهرتها وجلالها التي لم يحلم بها يوليوس قيصر امبراطور الرومان العظيم الذي كان يقول — (قداتيت — وفتحت ودوخت مصر العظيمه)فسبحان الحي الباقي

الفصل الرابع والخمسون

سنة ١١٦٨ مسيحيه و ٤٨٨ للشهداء و ٥٦٤ للهجرة

سلطنة صلاح الدين يوسف

وصرف السلطان صلاح الدين معظم ايام حكمه في الحروب. فكان دائماً يقوم بغزوات شديده وحملات منكرة ضد الصليبيين في سوريا من جهة ومن جهة اخرى ضد ابن مولاه نور الدين . وانتهت تلك الحروب بان صار المسلمون يخطبون باسمه في الجوامع بالنيابة عن الخليفة العباسي وبهذا العمل قد اعلن سنة ١١٧٤ مسيحيه (٥٧٠ للهجرة) استقلاله سلطاناً على سوريا ومصر وجزء من اسيا الصغرى مستثنياً من ذلك بيت المقدس الذي كان مقر الصليبيين وحصنهم الوحيد وقتئذ كما كانت بعض مدن عظيمة اخرى في حوزتهم . ثم عاد الى مصر سنة ١١٧٦ مسيحيه يستطلع احوالها ولم يمكث فيها طويلاً بل كر راجعاً الى فلسطين واقام حروباً عظيمة فيها تعزيزاً لسلطنته ولم تكن حروبه قاصره فقط على فلسطين بل تعداها الى جنوب سوريا ليطهر حدود مملكته الجديدة من الاعداء

وفي اثناء اشتغال صلاح الدين بحروبه في سوريا لاح لملك النوبه المسيحي ان يغزوا مصر نظرا لما شعر به من الضيقات والعذابات الشديدة التي كانت محيطة باخوانه الاقباط سيما بعد حريق بابليون وخاصة من زيادة عسف وظلم جبابرة الاسلام اثناء حروبهم ضد بعضهم

فتقدم بجيوشه الى حدود مصر من جهة وادى حلفا ثم تقدم الى اصوان فدخلها عنوة وكان من المحتمل تقدمه من اصوان الى الشمال قاصدا مصر العليا ومنها يدخل العاصمة ولكن لم يقعده عن عزمه الا ماسمعه من انقراض الدولة الفاطمية الخامسه وقيام سلطان قادر قاهر في الحروب وعلى انقاضها . ولما بلغ صلاح الدين امر حملة ملك النوبة هذه اصدر أمره في الحال بتسيير حمله قوية ضدها وارجاع ملك النوبه من حيث أتى . فلما علم ملك النوبه بقيام جيش صلاح الدين لمقاتلته فتبصر في الامر بفطانته وحزمه واختار ان يرضى من الغنيمة بالاياب فانسحب متقهقرا نحو الجنوب ثانياً قبل ان تدركه جيوش الاعداء وبنظره للعواقب قدر يعلم ان قوة وعد درجال جيوش صلاح الدين تفوق مامعه بكثير فرأى ان الانسحاب فى مثل هذه الظروف هو الحكمة بعينها . ولكن ابت المقادير الا ان تعانده اذ لحقته جيوش صلاح الدين وهو منسحباً قبل ان يفارق الحدود المصريه وضربت مؤخر جيشه فالتزم ملك النوبه بالمقاومة والتحم الفريقان فى موقعه هائلة ولم يقدر يتغلب احدهما على الآخر فلما رأى قواد الجيشين انهم خسروا خسارة عظيمة جدا بدون

انهزام احد الطرفين التزموا بالكف عن القتال وتقهقر جيش ملك النوبة للجنوب وجيش صلاح الدين الى الشمال حتى عاد للقاهرة .

ولما علم صلاح الدين بعدم اقتدار حمله هذه على قهر ملك النوبه استشاط غيظا ولم يقتنع بما الحقه جيشه بجيش النوبيين من الخسائر الفادحه فاستقدم اخيه شمس الدولة وعهد اليه قيادة حمله قوية وامره بالسفر الى النوبة والاقتصاص من ملكها واهلها جزاء اقدامهم على غزو مصر .

فقام شمس الدولة بتلك الحمله اذعانا الامر اخيه وساربها حتى وصل الى حصن دير ابراهيم (المعروف محله الآن ببلدة ابريم) وكانت اول حدود النوبة وحاصره ثم فتحه بعد حصار ثلاثة ايام وكان في ذلك الحصن قلعة ذو طوابي منيعة جداً قائمة على سفح الجبل تجاه اول بلدة من بلاد النوبه وكان لهذه البلدة كنيسة عظيمة باسم العذرا مريم وكان مشيداً على بابها من الخارج صليباً كبيرا جدا .

فلما دخل شمس الدولة الى تلك البلدة برجاله اباح فيها السلب والنهب وسبي اهلها واطلق سراح الاسرى المسلمين الذين كانوا وقعوا في قبضة ملك النوبة وقت حملته هذه الاخيرة على مصر . وبعد ان انتهى شمس الدوله من قتل ونهب اهالي تلك المدينة التعيسة صار يبيع المسيحيين الباقين فيها احياء بيع الرقيق ثم نهب مقتنيات الكنيسة وخزينتها وكل ما فيها من الاشياء الثمينة وبعدئذ اوقع ذلك الصليب العظيم من فوق القبه

وحرقه وحول الكنيسة الى جامع للمسلمين وجعل برجها العالي ماذنة له

اما اسقف تلك الابروشية فقبض عليه شمس الدولة وسامه عذابات اليمة جداً كي يعترف له عن ثروته التي ظنها تخبأت. ولكن تحقق له بعد ذلك انه لم يكن عند هذا الاسقف شيئاً مخبوءاً فكف عن عذابه ثم باعه رقاً مع باقي من باعهم من المسيحيين.

وكان شمس الدولة يريد ان يغزوا النوبة. ولكنه علم ان ذلك ليس امراً سهلاً كغزو مصر فلم يتوغل الى ابعد من هذه البلدة وهي دير ابريم. واخيرا عزم ان يتركها ويعود ثانياً الى مصر لان الحركاد ان يقتله هو ورجاله. غير انه كان ضمن قواده رجلاً كردياً يدعى ابراهيم طلب منه ان يملكه هذه النقطة عوضاً عن تركها بعد ان تعب في فتحها فاجابه شمس الدولة الى طلبه وملكه هذه النقطة وتركه فيها وترك معه حامية من جيشه وكر راجعاً الى الشمال مع باقي الجنود حتى وصل قوص فعسكر فيها واتخذها مقراً له.

اما ابراهيم ومن بقي معه من الجنود الاكراد المتبربرين فظلوا في دير ابراهيم وعاثوا في تلك الجهة فساداً وقد مضى عليهم سنين هناك تضوها في السلب والنهب والقتل وقطع الطرق وتقليع المزروعات وسرقة المواشي فصرخ الاهالي منهم الى ملكهم فالتزم هذا بان يرسل سفيراً من قبله الى شمس الدولة في قوص ومعه عبد وجارية بصفة هدية فطلب منه عقد الصلح معه حتى يعود الصفاء والسلام بين البلادين كما كان

فلما وصل ذلك السفير بهديته الى شمس الدولة وعرض عليه الخطاب الذي معه من سيده ملك النوبة قبل منه شمس الدولة الهدية الا انه اعطى للسفير بدلها زوجان من نبال الحرب فقط علامة على ازدرائه بمأموريته ولم يشأ ان يجاوب ملك النوبة بشيء. ثم انه لحظ من ميل مسيحي النوبه الغريب في طلبهم الصلح والسلام ضعف حالة تلك البلاد ودخله الطمع فيها فاوفد مع السفير عند عودته رسولا بقصد الوقوف على حقيقة الميل لعقد الصلح واعطاه تعليمات سرية ليتجسس احوال بلاد النوبة عند وصوله اليها ويعود فيخبره بحقيقة احوالها ودرجة استعدادها للحرب والقتال والمكافحة والنزال وكان ذلك الرسول رجلاً حلبياً يدعى مسعود

فلما وصل الى بلاد النوبة لاقى حظا وراحة اكثر مما كان ينتظر. لانه ولو ان ملك النوبة لم يشأ مقابلته الا انه سمح له بالعودة لبلاده سالما ولم يبد له اقل شيء يجرح احساسات الاسلام كما ابدى شمس الدولة لسفير ملك النوبه.

وقبل ان يعود مسعود الى مصر قابل الملك بنوع الصدفة وكان حينئذ وحده راكباً جوادا بسيطاً لاشيء من ابهة الملك عليه. فلح مسعود على الملك ان يقترب منه ويسلم عليه فضحك الملك وامره ان يضع يديه فوق بعضها بشكل صليب ثم سمح له بالسلام عليه. وبعدئذ امر باعطائه خمسين رطلاً من الدقيق واطلقه لحال سبيله الى مصر.

ولم يتجول مسعود في بلاد النوبه اكثر من مدينة دنقلا التي قال عنها

انها لاتحتوي على شيء يستحق الذكر سوى قصر الملك. ولكن كيفما كان الحال فان اميال صلاح الدين كانت كاميال جوهر الذي تقدمه في حكم مصر وهو عدم الرغبة في ضم ممالك السودان المسيحيه على مملكته

وبعد ذلك بزمن قليل غرق ابراهيم الكردي مع كثيرين من اصحابه عند عبورهم النيل اثناء استعدادهم للسطو على احدى البلاد . فالتزم باقي رجاله ان يتركوا حصن دير ابريم ويعودوا لمصر فعاد النوبيون وامتلكوه كما كان

وفي سنة ١١٧٦ مسيحية الموافقة ٥٧٢ للهجرة قام اقباط مدينة قفط بشيء من التمرد والعصيان ضد الاسلام فاطفأ نار تلك الفتنة قبل استفحالها العادل أخو صلاح الدين الايوبي الذي جاء الى تلك المدينة التعيسة الحظ وشرع في الاخذ بثار المسلمين من الاقباط بافظع الطرق . وذكر المقريزي في تاريخه ان العادل هذا قصد الاخذ بثار اخوانه المسلمين بواسطة صلب ثلاثة آلاف رجلاً قبطياً من سكان قفط على الاشجار المحيطة بها واستعمل أحزمتهم وعماماتهم واسطة لصلبهم بافظع أنواع الصلب والهلاك

وفي عام ١١٨٢ ميلادية (٥٧٨ للهجرة) توفى ابن الاتابك نور الدين فكانت وفاته من حسن حظ صلاح الدين وفرصة مناسبة في استقلاله بملك مصر وسوريا لانه لو عاش ابن نور الدين المذكور لاخاف صلاح الدين في سلطنته ولكن بموته صارت السلطنة لاولاد صلاح الدين الذي

فرح لذلك فرحا لامزيد عليه وحمل في الحال حملات شديدة ضد الصليبيين فانتصر عليهم وأخذ منهم في سنة واحدة بين عامي ١١٨٥ و١١٨٦ بلاد طبرية والقيصرية وحيفا ويافا وسدوم وبيروت وعكا وبعض مدن كثيرة أخرى صغيرة وفي عام ١١٨٧ تقدم بجيشه الى بيت المقدس ففتحها وأسر ملكها . لان بيت المقدس كانت خالية من القوة التي تمكن من مقاومة حصار جيش العرب لها . وكان جل مافي داخلها فريق من العوام والفقراء الذين لا طاقة لهم على القتال ولم يكن لها جيش سوي ١٤٠٠ رجلا من الفرسان فدافعوا عن المدينة مع الكهنة المسيحيين والشمامسة الذين كانوا يعتقدون انهم يدافعون ويجاهدون جهاداً دينياً وفرضاً واجباً عليهم للمحافظة على هذه المدينة المقدسة ولكن عاد الشعب فالتفت حول البطريرك وعلا صياحه وضجيجه وهاج ضد الكهنة من داخل المدينة طالباً التسليم بشروط مناسبة وبعد جهاد دام أربعة عشر يوما سلم البطريرك المدينة تحت شرط انه بعد ان يدخلها المسلمون لا يأخذون سكانها المسيحيين أسرى بل تكون قاعدة الصلح ان يودي كل مسيحي عشرين دينارا فدية عن نفسه وكل مسيحية عشرة دنانير وكل طفل دينارين فمن أحضر فديته نجا بنفسه والا أخذ أسيرا وكان بين الاهالي أربعة عشر الف نفس غير قادرين على دفع الجزية المفروضة عليهم فأطلق صلاح الدين سبيل بعضهم دون فدية لانه رآهم لا يصلحون لاي عمل وأسر النصف الآخر بعد ان نكس الصليب القائم على قبة الصخرة وكان عظيم الحجم

وقد وافق يوم دخوله المدينة واستلامه أياها ليلة المعراج ١٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ ففرح المسلمون لذلك فرحا عظيما وتقاطروا من كل صوب يهنئون سلطانهم على ما أحرزه من النصر وعلى سقوط أورشليم في يده وخضوع سوريا كلها لسلطانه ماعدا مدن ترسوس وطرابلس وانتيوخ التي كانت باقية في يد المسيحيين

وما بلغ ملوك أوروبا خبر سقوط أورشليم للمرة الثانية في يد الاسلام بعد بقائها ٩٦ سنه في يد المسيحيين حتى هالهم الامر واستولى عليهم الرعب المفزع فاجتمعوا متحدين مع بعضهم بعضاً لقتال جيوش صلاح الدين واعادة الحرب الصليبية كما كانت حيث قام امبراطور الغرب فردريك بروسيا حاملا صليبه وكتب الى صلاح الدين يدعوه الى القتال ويقول له انه من سلالة الرومانيين القدماء وخليفتهم أي السيد المطلق على مملكتهم شرقا وغرباً . فاجابه صلاح الدين بكتاب لايقل عن كتابه حماسه وانفصل طالباً منه القتال قائلا له باعجاب وغطرسه (لم يكن قصد المسلمين التسلط على المسيحيين وقهرهم فقط في الشرق بل في عزمهم مهاجمة أوروبا واكتساحها كلها وسوف نؤخذ كل بلادك منك بقوة الخالق - بحانه وتعالى .... لان المسيحيين باتحادهم الديني قاموا ضدنا مرتين في بابليون . ومرة في دمياط وأخرى في الاسكندرية .... وأنت لاشك تعلم كيف انتهى الحال بالمسيحيين وردوا على أعقابهم خاسرين في كل حمله) وذيل كتابه هذا بامضائه الحامل لثلاثة عشر لقباً

أعطاها لنفسه كلقب (المخلص) و(المصلح) و (منظم العالم) و(مصحح القانون) و(منقح الشريعة) الخ

وما وصل هذا الكتاب الى الامبراطور فردريك حتى قاد جيشاً عرمرما من جميع أمم اوروبا وسار به لمقاتلة المسلمين ولكن سوء الطالع أدركه فغرق في الطريق وكانت هذه الحادثة أول صاعقة وقعت على رأس هذا الجيش في مسيره بينما كان المقيمون من الافرنج في فلسطين قد حاصروا مدينة عكه في شهر اغسطس سنة ١١٨٩ دون ان ينتظروا مجيء اخوانهم الصليبيين القادمين لنجدتهم من أوروبا ولم يكن في وسع صلاح الدين طردهم عنها فاستمروا على حصارها مدة سنتين . ولو ان صلاح الدين أرسل ليتقدم أسطول مصر الراسى في الاسكندرية محملاً بالمؤن والذخائر وجمع كل قواه حول المدينة لما استطاع خلاصها من أيدي المحاصرين لها لان الصليبيين أوحملة فردريك قد أتوا من أوروبا وهم الفا فارس وثلاثون الف مقاتل من المتدربين فاشتركوا مع أفرنج فلسطين في تضييق الحصار على المدينة وكان بين الصليبيين القادمين من أوروبا الملك فليب ملك فرنسا وريكاردوس (قلب الاسد) ملك انكلترا

ولما رأي صلاح الدين انه لايستطيع مقاومة تلك القوة الهائلة اضطر ان يسلم المدينة تحت شروط اشترطها عليه الصليبيون لاتمس بشرفه ولا بشرف الاسلام هذه ومفادها أولا تسليم المدينة وثانياً تسليم الصليب الحقيقي الذي صلب عليه السيد المسيح وأخذه المسلمون يوم فتح

اورشليم وثالثاً اطلاق سراح الفي نفس من اشراف المسيحيين اسرهم صلاح الدين وخمسماية شخص من طبقات مختلفة من المسيحيين ورابعاً ان يقوم المسلمون بدفع ٢٠٠ الف دينار بصفة غرامة حربية

فقام صلاح الدين وكبار المسلمين الذين معه بتنفيذ الثلاث بنود الاولى من شروط الصلح . اما البند الرابع وهو الغرامه الحربية فقد تأجل دفعها الى وقت آخر لعدم وجود قيمتها في خزينة الحكومة مسلما بدلها للصليبيين كل أشراف المسلمين واولادهم بصفة اسري تحت امر ملكهم . حتى تسدد هذه الغرامة الكبيرة. فقبل ريكاردوس (قلب الاسد) ذلك الاقتراح من صلاح الدين ولكن لما ابطأ في تنفيذ البند الثالث كما وفي تسديد الغرامة الحربية كوعده قام ريكاردوس ملك الصليبيين وصلب اولئك الاشراف المسلمين وكانوا ٢٧٠٠ علنا خارج مدينة عكا انتقاما من صلاح الدين ومن المسلمين .

وقد خسر الصليبيون اثناء ذلك الحصار الطويل ستة بطاركه ومطارنة واثني عشر اسقفاً واربعين اميراً بدرجة (كونت) وخمسماية من النبلاء والاشراف بخلاف باقي الطبقات والدرجات الاخرى من كهنة وعلمانيين اما المسيحيين الذين كانوا اسرى عند صلاح الدين وعددهم ١٢ الف نفس فقد خلا سبيلهم بعد كل تلك الحوادث بالرغم عن ضعف ايمانهم بالله وارسلهم الى بابليون في مصر بحراسة قوه صغيره من الجنود التركية . واتفق في هذه الاثناء ان قام الملك ريكاردوس بحرسه الى داخلية الواقعة

على مقربة من دائرته لمعرفة البلاد ما فيها واكتشاف اثارها (وهو مع قلة الجنود التي كانت معه يومئذ فان شهرته في القوة والبأس قامت مقام القوة الحربية الكافية له بحيث ان الجنود الاتراك الذين كانوا يحرسون الاسرى بمجرد ما وقع نظرهم على علم ريكاردوس دب في قلوبهم الرعب والارتجاف فتركوا الاسرى وفروا هاربين من وجهه ولما رأى ريكاردوس ذلك انقض على المسلمين الذي كانوا مع الاسرى المسيحيين وامر حرسه بذبحهم واسر عشرين ضابطاً منهم واطلق سراح الاسرى جميعهم

ودام العداء سنه من الزمان بين ريكاردوس وصلاح الدين الايوبي حتي تعبا من جراء ذاك العداء واتفقا اخيرا على عقد هدنه دامت مدة ثلاث سنوات واشترط ريكاردوس انه في خلال تلك الثلاث سنوات يصرح للمسيحيين بزيارة القبر المقدس فقبل صلاح الدين بذلك وقامت جمعيات وفريق عظيم من المسيحيين والمحاربين الصليبيين لتأدية فريضة الحج قبل عودتهم الى أوربا . اما الملك ريكاردوس فاعتبر نفسه غير مستحق لتلك الزيارة لاعتقاد انه عجز عن فداء القبر وتخليصه من ايدي المسلمين وخرج المسيحيون للحج في السنة الثالثة برئاسة اسقف سولسبرى الانكليزي الذي كان تقابل مع صلاح الدين وتحصل منه على رخصه بذلك وكان كهنة الكنيسه اليونانية في ذلك الحين وما قبله هم القائمون بخدمة القبر المقدس . فلما وصل اسقف سولسبري لهناك اعتبر اولئك الكهنة هراطقه وسعى حتى وضع بأمر صلاح الدين كاهنين وشماسين من

الكنيسة اللاتينيه التابعة لبابا رومية لخدمة كنيسة القبر المقدس وعين مثل هولاء ايضاً لخدمة كنيستي بيت لحم والناصرية .

و بعد انقضاء الثلاث سنوات الهدنة دام السلم مستمراً بين صلاح الدين وريكاردوس . وفي يوم الاربعاء ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ هـ تم الصلح بينهما بعد مداولات ومخابرات يطول شرحها . ونادى المنادون ان البلاد الاسلامية والنصرانية واحده فمن احب من كل طائفة ان يتردد الى بلاد الطائفة الاخرى فله ذلك دون خوف ولا حذر . وكان ذلك اليوم يوماً مشهودا فرحت به الطائفتان وعادت الصلات الى مجاريها وعم السلام في ربوع سوريا وصار الزائرون يفدون الى بيت المقدس من كل صوب . ثم توجه السلطان صلاح الدين نفسه ليتفقد احوال تلك المدينة وتودد تودداً عظيما مع ريكاردوس قلب الاسد حتى صار صديقين حميمين حيث انس كل منهما في صاحبه العزم والحزم والبطش والمقدرة . ويقول بعض المؤرخين انهما لم يتصادقا الا لما تعرفا ببعضهما بواسطة الرموز الماسونية فتحققا لهما الاخا . ولولا ذلك لما تساهل البطل صلاح الدين مع النصاري الى هذا الحد .

على ان المنية مع عجزها على مهاجمة ذلك الباسل في ساحة الحرب والقتال لم تخش مهاجمته وهو على فراشه بين اولاده واخوانه

ففي يوم الجمعة ١٥ صفر ركب السلطان لملاقاة الحجاج فعاد الى منزله ضعيفاً ثم اصابته الحمى الصفراء فزادته ضعفاً الى ان توفاه الله في مدينة دمشق

صبيحة الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ الموافق سنة ١١٩٣ ميلادية فحزن عليه ريكاردوس قلب الاسد حزناً شديداً لانه توفى قبل ان يرجع ريكاردوس الى انكلترا بستة شهور .

وكان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام بمثله منذ ان فقد الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) وغشى القلعة والملك والسلطنة والدنيا كلها وحشة عظيمه وكان الناس يتمنون فداء ذلك العزيز بنفوسهم الذي مات بعد ان عاش ٥٧ سنه وحكم ٢٤ سنه في مصر و ١٩ في سوريا ومن يتأمل في تاريخ صلاح الدين وحياته العملية في العالم يندهش كيف انه في بحر الاربعة وعشرين سنه التي اقامها في مصر قد رفع نفسه بمواهبه من ضابط صغير في حملة عسكرية كردية اتت اتفاقاً الى مصر الى ان ملك على عرش السلطنة الاسلامية التي اسسها في مصر وسوريا بجده واجتهاده وهو ليس كل ما كانت تسمح اليه نفسه العزيزه ولكنه بما ان النفس خلقت تطلب المزيد مهما بلغت من نيل ما تمنت فان السلطان صلاح الدين كان يطمع في اكتساح روسيا والهند وضمهما الى سلطنته وما اخره عن ذلك الا هادم اللذات.

واجتمع في تشييع جنازته خلق عظيم جداً ودفنوه باحتفال عظيم داخل الدار التي كان مريضا فيها . وفرقت شقيقته المدعوة ست الشام الصدقات الكثيرة من جيبها الخاص . لان بعض المؤرخين يقولون انهم لم يجدوا في خزينته الخصوصية الا دينارا واحدا و٤٧ درهما من الفضة ولم يجدوا أثرا للذهب او لغيره من الحجارة والذخائر الثمينة التي يتركها عادة السلاطين امثاله وذلك

مما يدل على فرط كرمه لانه كان يجود بكل ماتصل اليه يده على ذويه واقاربه

وفى الغالب ان الملك الذي يطمع بالاعتداء على أملاك غيره لا يتاح له ذلك الا بعد ان يرى مملكته الاصلية فى حالة الرغد والهناء وهكذا كان حال صلاح الدين فى مصر في اوائل حكمه واثناء الحروب التي كان يقيمها السلطان في فلسطين لم يكن يدفع مرتبات للجنود بل في الغالب كانوا يأخذون اجرتهم من سلب البلاد التي يفتحونها وما كانت مصر تمد الجنود المحاربه في فلسطين الا بقليل من المال اما المؤونة والذخائر فكانت ترسل لهم عن سعة

وجبابرة الاسلام الذين كانوا يعيشون في مصر على السلب والنهب وقطع الطرق قد فارقوا مصر وانضموا لجيش صلاح الدين المحارب في فلسطين حيث وجدوا ان هناك مغنماً اوفى وبغيابهم عن مصر عادت البلاد الى قوتها الاصلية الصحيحة وعاش أهلها فى هناء وسلام

ومما يذكر عن سيرة صلاح الدين انه فى اثناء حروبه بفلسطين اسند عرشه فى مصر الى بهاء الدين أحد خصيانه السود حيث كان يثق به وباخلاصه الثقة التامة. وأطلق عليه المصريون بعد تناوله مسند الوزارة لقب قرقوش (اعني العصفور الاسود اوطير الشحرور). وسموه بذلك وازدراء به اذ قد استأوا من ان عبداً جاهلاً أميا مثله صار ملكا عليهم وصاروا مكلفين بطاعته لان عادة المصريين فى احترام وتبجيل اجدادهم واسلافهم العظام لم تكن قلت اهميتها عندهم او بطلت وكان اول مالاقاه المصريون

من المسلمين والاقباط على السواء من احكام بها الدين قرقوش استهزاءه بقبور موتاهم وامتهانها وتدنيسها وانتهاك حرمتها بحفرها ونبشها ولم يكن قصده من نبش القبور البحث على الذخائر والكنوز كما كان يفعل السلاطين والوزراء الذين تقدموه بل كان عمله هذا خالي من الغرض المذكور لانه كان يعتقد ان وجود الكنوز بين القبور من الخرافات والحكايات الفارغه وفقط كان غرضه من هذا الصنيع اغاظة المصريين وكرهاً لهم من انهم بيض البشرة وهو اسودها فاستنزل بصنيعه هذا سخط المصريين عليه حالة كون السلطان صلاح الدين اوصاه بعد ان ولاه لضرورة استجلاب رضائهم له واكد عليه بضرورة تطهير وتقوية الترع والخلجان لري الاراضى بالراحة ليزيد محصول البلاد ويعيش الاهلون في نعيم ورخاء . وفي الواقع لو كان عمل هذا القرقوش الجبار بجزء مما اوصاه به صلاح الدين لحاز رضا المصريين وممنونيتهم . وقد اوصاه صلاح الدين ايضاً ان يعيد بناء سور القاهرة وبعض عمارات واصلاحات اخرى عمومية التي تحتاج الى احضار حجارة كثيرة وعمل عظيم.

ولكن لجهل ذلك الوزير الغبيء وسوء فكره باحوال البلاد التي يرأسها انه امر بقطع احجار جديدة من الجبال البعيدة بينما كانت السهول الواسعة التي في غرب النيل ملآنة بالحجارة المقطوعة الجاهزة على مسافة عدة اميال وتلك الحجارة المنحوتة الجاهزة هي بقايا خرائب مدينة منفيس القديمة القريبة من مدينة القاهرة الجديدة . لانه كان حطم بجهله كل

الحجارة الموجودة في ذلك المتسع العظيم ودكها في الارض ماعدا الحجارة الكبيرة الحجم منها التي لقيت على جانبي النيل لعدم امكانه تحطيمها اودكها في الارض. واتى بالحجارة الجديده المقطوعة من الجبل مع بعض من تلك الحجارة القديمة واستعملها في اعمال عمومية كثيرة لم يزل اثرها باقياً الى اليوم منها الجسر الذي اقامه على النيل بين الجيزه والاهرام وكان هذا وكان هذا الجسر مركبا من اربعين قبوا وقد اختفى اثره الان ولكن سد المياه لم يزل اثره باقيا للان. ويرى في بولاق مصر وقلعة القاهرة الحالية التي بناها صلاح الدين الايوبي على انقاض القلعة القديمة التي بناها احمد ابن طولون لم تزل شاهدة حتى الآن على سفح جبل المقطم باعمال وعمارات ذلك السلطان العظيم ومن اثار صلاح الدين ايضاً البئر المعروفة بجوار القلعة ببئر يوسف ثم تلك القناة الباقية العظيمة التي كانت تجلب المياه من النيل الى المدينة

وبني ايضا صلاح الدين شونا واهراء ومخازن عظيمة للغلال بقرب الفسطاط ولم تزل بقايا خرائبها الى الان موجودة عند مصر القديمة وهذه النقطة معروفة عند المصريين باسم (مخازن يوسف الصديق). (١)

وارتأى بهاء الدين ان يبني سورا عظيما يحيط باربعة اجزاء المدينة

(١) بناء على اعتقاد المصريين ان تلك الاهراء هي (مخازن يوسف) قد اعتادوا بان يفهموا السواحين الذين يزورونها ان بني تلك المخازن والبئر العظيمة الموجودة بالقلعة هو البطريرك يوسف قبل خروج الاسرائيليين من مصر

وهي بابليون والفسطاط والقاهرة ومصر ويبقى خارج ذلك السور العظيم حصن الرومانيين الموجود في بابليون. ولكن لم يتم ذلك المشروع اما لعجز قراقوش عن تجهيز ادوات البناء او لعدم مصادقة صلاح الدين عليه. والذي عمله قراقوش بناء على مصادقه صلاح الدين هو ترميم سور مصر والقاهرة وتقويته وترك الفسطاط وخرائب بابليون خارج ذلك السور.

واتفق في مدة حكم السلطان صلاح الدين ان حاكم الاسكندرية اراد معارضته ومنع أحد الاعداء من ايقاف مراكبه وربطها قرب سور المدينة. فهدم ذلك العدو على مهل الاربعماية عمود التي كانت الى ذلك الحين قائمة على خرائب سرابيوم والقى حجارتها في البحر وبهذا العمل مهد السبيل الى الاقتراب من سور المدينة. ولم يبق من تلك الاعمدة الاثرية العظيمة الا عمود واحد يسمى الان عامود بومبي وقد رآه عبداللطيف المؤرخ العربي عند زيارته تلك البقعة. واظهر حزنه المفرط عند ما شاهد بقايا الاربعماية عامود الملقاة قطعاً على شاطيء البحر.

ولما كان بهاء الدين يسوق المصريين مسلمين ونصارى معاً للسخرة في تلك الاعمال وبناء السور كرهه العنصران كرها شديدا. اما الاقباط فلم يضطهدهم اضطهادا حقيقيا بل ضايقهم مضايقة شديدة بقدر ما امكنه.

واول عمل اتاه ضدهم انه رفت كل الموظفين منهم في جميع دوائر الحكومة. واخيراً عاد وارجعهم من نفسه لما رأى ما رآه غيره ممن تقدمه في حكم مصر استحالة انتظام الاعمال المصلحية سيما

الحسابية منها بدونهم . ثم عمد بعد ذلك الى الاستبداد بهم حيث امرهم بتعليق اجراس في اعناقهم وصلبان كبيرة في صدورهم وحرم عليهم اقامة معالم الزينات والاحتفالات الدينية والاعياد . وبهذه الاعمال كان مكروهاً وممقوتاً منهم ومن عامة الشعب المصري عموماً . وكان العوام ينتقمون لنفسهم منه بان صاروا يمثلونه العوبة في ملاعبهم وكانوا يستعملون كل مواهب فطنتهم وزكائهم في هجوه وتقريعه حتى جعلوه اضحوكة وسخرية وصار لا يذكر اسم قراقوش الا ويصحبه الهزء والسخرية . وهكذا صاروا يستعملون طرقاً شتى على انواع مختلفة . حتى ان ذلك الوزير المشهور بقراقوش مع انه كان حاكماً على جبابرة الاسلام صار اسمه يذكر على توالي الاجيال حتى اليوم يذكر مع الاحتقار والهوان حتى ان المصريين الآن يتحدثون في انديتهم او يمثلون في مراسحهم صور جهل وحماقة ورذائل حكامهم السابقين يذكرونه بكل هجو وتقريع مصحوباً بالاضاحيك الهزلية ويصورونه في هيئة تمثال سخري مضحك جداً وهو ما يسميه الآن عامة المصريين واولادهم باسم اراجوز . والعاب اراجوز الموجودة الآن بمصر هي من آثار ماكان يلعبه المصريون سابقاً بذلك التمثال تحقيراً بقراقوش الذي تحرف اسمه الآن عند اللاعبين باسم اراجوز . وكانت لعبة قراقوش أو أراجوز أو الالعاب التى مثلها المصريون في عهد بهاء الدين ونقلها الانكليز الآن عن المصريين في ملعب البنش والجودي ولم تزل تظهر عند الانكليز للآن في معارضهم . انما كان مبدأها عند المصريين هو انهم يعلمون عربه

صغيرة وفيها تلك الالعوبة السخرية ويسمونها باسماء والقاب رمزية ويقصدون بها الاستهزاء بالحكام الظالمين . وقليل من المصريين الآن من يعرف ان اصل لعبة اراجوز التي يتفرج عليها صغارهم هي رمزاً عن بهاء الدين قراقوش ذلك الحاكم الجاهل الظالم

الفصل الخامس والخمسون

النزاع والفتن بين الكنيسة الحبشية وامها الكنيسة المصرية

سنة ١١٩٣ مسيحية وسنة ٥٨٩ للهجرة

توفي صلاح الدين عن ستة عشر ولداً وابنة واحدة تدعى مؤنسة تزوجت بابن عمها ناصر الدين محمد ابن سيف الدين . اما الاولاد فقام النزاع بينهم بشأن الملك وجرت مخاصمات وحروب فيما بينهم كما هي العادة عند الشرقيين في مثل هذه الاحوال وانتهت تلك الحروب الاهلية بين اولاد صلاح الدين واخوته بتقسيم الملك فيما بينهم غير ان الحصص لم تكن متساوية فان ثلاثة من اولاده اخذوا اكبرها واقتنع الباقون بمقاطعات صغيرة وتم كل ذلك بموافقة الامراء . فكانت سوريه نصيب ابنه الاكبر وهو المدعو نور الدين ولقب بالافضل واما ثاني اولاده المدعو ابو الفتح فلقب بالملك الظاهر غياث الدين وكان نصيبه حلب وسوريا الغربية ومن ضمنها حوران وتل باشر وعيراز والمنبج وابنه الثالث المدعو عماد

الدين عثمان فلقب بالملك العزيز وكان نصيبه مصر . وبذا تم تقسيم الدولة الايوبية الى ثلاث دول هي الايوبية الحلبية والدمشقية والمصرية.

وبعد ذلك التقسيم عرف كل من اولاد صلاح الدين الثلاثة . نصيبه. وظهر ان اعداء صلاح الدين كانوا غير قادرين على التظاهر بالعداوة امامه وهو على قيد الحياة فزرعوا بذور الشقاق بين اولاده فثبتوا ضد تيار تلك العوامل في بادئ الامر ولكن بعد ئذ قام بينهم الشقاق والتحاسد والتباغض بتأثير ذوي المفاسد

وكان ممن اثروا على الملك العزيز حاكم مصر عمه المدعو سيف الدين الملقب بالملك العادل.

ففي سنة ٥٩٢ هجرية راى ذلك العم (الملك العادل) وهو حاكم الكرك والشوبك وقتئذ ان ملكه صغير بالنسبة لاخوته واولاد اخيه صلاح الدين. فصار يتداخل رويداً رويداً في شؤون مصر وحكومة ابن اخيه الملك العزيز حتى صار له نفوذ عظيم وتأثير كبير عليه ثم حرضه على خلع الملك الافضل اخيه الاكبر عن دمشق وسائر سوريا الغربية والشطوط البحرية واورشليم ودمشق وبالاجمال عن كل الحصة التي كانت من نصيبه كي يتولى هو بدله فخلعوا الافضل المسكين فقر من دمشق الى بغداد يستنجد الخليفة الناصر لدين الله

ولكن لم يكد الافضل يصل الى بغداد حتى شعر العادل بوخز ضميره له على عمله فدعا ابن اخيه الافضل ثانيا وتنازل له عن ملكه المغتصب

وزاد في مرضاته بان تنازل له ايضا عن املاكه الاصلية في الكرك والشوبك. ثم أشار الملك العادل ومن يلوذ به على الملك العزيز عثمان بان يهدم اهرام الجيزة التي لم يكن باقيا بدون هدم منها وقتئذ الا تلك الاهرام الثلاث الكبيرة الباقية تقاوي الدهر حتى اليوم . فسمع الملك العزيز مشورتهم واصدر امره في الحال بالهدم. فوجدوه عسيرا فابتدأوا اولا بهدم الاصغر منها المعروف بالهرم الاحمر . فاستحضر الالغام وقاطعي الاحجار وجمع فعلة من الفلاحين والقرى المجاورة للاهرام وجعل لهم اجور اباهظة. وجعل مباشرة ذلك العمل العظيم تحت ملاحظة بعض أمراء كثيرين فالفوا لجنة مهمة لذلك وجاؤا وحلوا تحت الاهرام حيث يقف التراموای هناك الآن وابتدأوا بالعمل

اشتغل أولئك العملة واللاغمون والقطاعون مدة ثمانية اشهر تمامها شغلا متواصلا وبعد تمام تلك المدة رأوا انهم يضربون في حديد بارداذ قد ربا ذلك العمل الشاق فاستنتجوا ان ماتم هدمه هو بنسبة حجر واحد في كل يوم ولم يهدموا في الثمانية اشهر الا قسما صغيرا من قشرته الخارجية وجعل فيه خرق لم يزل ظاهرا الى اليوم .

واخيراً رات لجنة الامراء ان اتمام الهدم محال فضلا عن انه راحت نفقات طائلة على اتمام هدم ذلك القسم الصغير فانه فقط تشوه تشويهاً . فاقلعت على الكف عن الهدم وكان ذلك سنة ٥٩٣ هجرية فقابل المصريون ذلك الخذلان بالهزء والسخرية وزاد استهجانهم لهؤلاء الحكام الجهلاء

واحتقروا كل مشروعاتهم

لكن الملك العزيز لم يثن عزمه ذلك الخذلان امام الاهرام بل شرع في مشروع اقبح من الاول واليك البيان

كانت ايام فيضان النيل في بلاد مصر سيما في القاهرة تعد من ايام الاعياد عند المصريين عموماً والاقباط منهم خصوصاً اذ ورثوها من أجدادهم الفراعنة العظام الذين كانوا يقدسون النيل تقديساً وذلك لانه في زمن الفيضان تمتلئ الترع والخلجان ولا سيما خليج القاهرة الذي يخترقها. ولما كان الاحتفال بايام الفيضان عيداً عظيماً عند المصريين من اجيال عديدة صار ذلك الاحتفال عندهم قاعدة دينية وطنية. لان في الروايات والاساطير القديمة شيئاً كثيرا يدلنا أن المصريين كانوا في مدة عبادتهم الوثنية اي الاجيال التي تقدمت المسيح كانوا يؤلهون النيل ويقدمون له سنوياً ذبيحة بشرية هي عذراء طاهرة ولذلك تفصيلات عظيمة لامحل لها هنا

أما وقد دخلت الديانة المسيحية أرض الفراعنة فابطلت تلك العادة الشنيعة وحول كنهة الاقباط ذلك العيد الديني الى امراً أخف ضررا بالنوع البشري اذ قرروا استبدال القاء العذراء حية في النيل بوضع يد عذراء محنطة في مياه النيل بشرط ان تكون العذراء المائته مشهورة بانها طاهرة صالحة اعتقاداً منهم بان ذلك يقدس ويبارك النيل . وبالاجمال فانه مهما اختلفت تلك العوايد واساليب الاحتفال بالنيل فان ايام فيضانه

كانت تعتبر لدى المصريين اعياداً وطنية عمومية حتى يومنا هذا. والسائحون الذين يزورون مصر قلما يشاهدون احتفال المصريين بذلك العيد لانه لا يتفق وقوعه وقت زيارتهم لها ففي تلك الايام تقيم له الحكومة مهرجانا هائلاً ويشترك معها الاهالي في ذلك الاحتفال العظيم المعروف عندهم بليلة (جبر الخليج) فترى الذهبيات مزدانه جميعها من اسفلها الى اعلاها بالانوار الملونة الجميلة وتمشي تتخطر كالعروس يميناً وشمالاً في عرض النيل وعلى ظهرها كل دواعي الانس والطرب والذين عليها هائمون فرحاً وسروراً بين عزف الموسيقي وارسال السواريخ النارية في الفضاء وبالاجمال فانه يكون منظراً جميلاً جداً فائق الوصف

وكان ذلك الاحتفال في زمن صلاح الدين الايوبي في طور التغيير والانقلاب لانه بعد أن كان ذلك الاحتفال خاص بالاقباط سرت تلك العادة منهم بحكم المعاشرة الى المسلمين وصار يحتفل العنصران به احتفالاً هائلا فكانت تحصل منازعات ومشاجرات عنيفة من كثرة عدد المحتفلين والمتفرجين وكثرت فيه الخلاعة وانواع الفساد والفجور بين الاهالي . ومع تعكير ذلك الاحتفال الاثري العظيم بعوامل الانحطاط الادبي فان عوام المصريين كانوا ولم يزلوا يعتبرونه اعز واعظم الاعياد الوطنية فهم من قديم الزمن يستأنون جدا من امر ابطاله . وقبل عصر صلاح الدين بحقبي سنة كان الخليفة الحاكم بامر الله قد سعي في ابطاله فلم ينجح مع انه كان في عصره ذا صبغة دينية مسيحية اكثر مما كان عليه في زمن صلاح

الدين . وجاء لملك العزيز ابن صلاح الدين وامر سنة ٥٩٤ هجرية بابطال هـذا العيد ومنع الاحتفال به منعاً كلياً واستخدم لتنفيذ امره طرقاً وحشية قاسية فلم ينجح ايضاً لان الناس بعد أن استرحموه مرات عديدة ولم ينجحوا اجاهروا بالعصيان ضد الملك العزيز ولكن عاجلته المنية فمات ولم يتمم شيئا مما نوى وكانت وفاته في ٢١ محرم سنة ٥٩٥ هـ

واستمر المصريون يعيدون سنويا بايام فيضان النيل ولم يعد أحد من محبي المناظر الجميلة يحرم من رؤياه سنويا . وكان قد مضى زمن طويل على الكنيسة الملكية في البلاد المصرية بدون بطريرك نائب عنها حتى آلت الظروف الى قرب تلاشي حقوق تلك الكنيسة في مصر واشتد الخطب على اتباعها المتفرقين . فلما انس كبار الاكليروس في القسطنطينية علامات السلام والامان في ديار مصر على عهد الوزير بهاء الدين (قراقوش) وتاكدوا انه لم يعد بعد خطر على وجود بطركيتهم في مصر ولدواع سياسية رأوا ضرورة اعادة فرع كنيستهم المصرية ثانيا بقدر الامكان

فرسم بطريرك القسطنطينيه رجلا يدعى مرقص بطريركا على فرع الكنيسة الملكية اليونانية في مصر ثم اعطاه تعليمات اهمها ان الوظيفه الكهنوتيه التي اسندت اليه لا يجب ان يتخذها وظيفه للتعيش و يقعد عطلا بلا عمل كما كانت سابقاً بل يتعين عليه الجد والعمل على استرجاع ولم شعث قطيعه المتشتت في مصر ثم من وجهة سياسية عليه أن يبذل ما في وسعه في استرجاع واعادة النفوذ اليوناني في تلك البلاد (مصر)

فلما حضر مرقص الى مصر وأسس كرسي بطركيته ثانياً صار يرسل خطابات غريبة لبطريرك القسطنطنية عن حالة اتباعه المصريين الذين مضى عليهم زمن طويل لم يسمع عنهم شيئا . ومن جملة ما أدهش البطريرك مرقص وكتب عنه في مراسلاته أنه وجد طرق الصلاة وخدمة القداس هي الطريقة القديمة المعروفة باسم طريقة ماري مرقص واستفسر بطريرك القسطنطينية عن السماح بممارستها أو ابطالها فاجابه البطريرك بان كل شيء من الرسوم الدينية يلزم أن يكون حسب طقوس الكنيسة الملكية ويلزم ابطال طريقة ماري مرقص وابدالها بطريقتي القديسين يوحنا فم الذهب وباسيليوس . وباقي الطقوس الخاصة باسكندرية كتب عنها مرقص أيضا وقال انها طقوس قديمة جدا وتختلف عن الطقوس التي تمارس وقتئذ بالقسطنطنيه فأجابه البطريرك بتغييرها أيضاً وبالاجمال أمره بابطال كل الطقوس والرسوم التي كان يستعملها المصريون

وكان الموجود وقتئذ على كرسي الكنيسة المرقسية القبطية الوطنية البطريرك يوحنا السادس الذي أخلف مرقص بن زعره سنة ١١٨٩ وكان وقت انتخابه بطريركا حديث العهد في ممارسة الكهنوت ويقال عنه انه كان متزوجا . الا أنه في زمن انتخابه كان أرملا . مع انه من الضروري عند الاقباط أن الذي ينتخب بطريركا لا بدأن يكون اعزب من بدء حياته لكن فصاحته وبلاغته وعلمه العالي أكسبته الافضلية في الانتخاب على المترشحين لذلك المركز السامي من رهبان الاديرة والصوامع فتم انتخابه

بطريركا . ولما كان مثل من تقدمه من البطاركة الذين لم تكن كل اختباراتهم ومعارفهم محصورة فقط داخل أسوار الصومعه التى عاشوا فيها وخرجوا منها بل كان عارفاً بكل ما تقتضيه معارف ذلك الوقت . وهكذا كان يوحنا السادس رجلا ملما بكل ما جريات الاحوال فضلا عن علمه الواسع ولذلك ساس الكنيسة المرقسية بكل حكمة ونظام .

وبعضهم قال عنه أنه كان رجلا تاجرا قبل انخراطه في سلك الرهبنة . وكيفما كانت أحواله فأنه يستدل عنه أنه كان ذا مواهب خاصة اهلته لذلك المركز ويظهر أنه استخدم تلك المواهب في الاعمال الخيرية المحضة . ولم يعلم عن سني بطريركته الاولى الا الشيء القليل . ولكن بعد وصول البطريرك اليوناني الجديد خاف الشعب المسيحي كله من أقباط ويونانيين من تجدد الاضطهاد . لانهم علموا أن الملك العزيز لم يكن يقصد فقط ابطال عادة الاحتفال بوفاء النيل ولكن كان يرغب في اقتفاء خطة الحاكم بامر الله بخصوص اضطهاد المسيحيين . ولكنهم عادوا فتنفسوا الصعداء بموت الملك العزيز فجأة قبل تتميم نواياه لانه كان قد ابتدأ في ايجاد المظالم والمنكرات وزاد الضغط على الاهالي حتى صاروا في حالة سيئة سيما من غلو لوازم المعيشة فجاءت المنية للعزيز منصفة المظلوم من الظالم

وقيل ان سبب موته فجاءة انه كان ذهب للقنص والصيد في الفيوم فقفز به جواده قفزة هائلة فاصابه من جراها تلك القفزة ارتجاج في المخ

مصحوباً بحمى شديدة فحمله رجاله الى القاهرة وتوفى فيها الساعة الرابعة من ليلة الاحد سنة ٥٩٥ هجرية كما تقدم الذكر . ففرح المصريين عموما والمسيحيون خصوصا بموته .

مات العزيز وله صبي صغير في السنة الرابعة من العمر وقد خلفه على الاريكة المصرية سنة ١١٩٨ مسيحية و٥٩٨ هجرية واسمه ناصر الدين محمد ولقب بالملك المنصور وتعين وصياً عليه عمه الافضل

لكن ذلك لم يرق في عيني الملك العادل اذ رأى ان الملك الجديد الذي هو في مهد الطفولية سيكون حجر عثره في سبيل مطامعه فقدم من دمشق الى القاهرة بجيش جرار ليتولى الوصاية عليه ويكون نائبا عنه في الملك حتى يتيسر له اغتيال مملكة مصر من ابن اخيه . فلما وصل القاهرة طلب ثبات حقوق الوصاية على هذا الملك الطفل بدعوى انه جده الاكبر وعم وصيه الافضل . فحاول الافضل اقناعه بغلطه فلم يقتنع ونادى بنفسه سلطانا سنة ١١٩٩ مسيحية (سنة ٥٩٦—٧ هـ) ولما استاء الافضل من ذلك حاصره في قصره بالقاهرة فحاول العادل الفرار فقاز بذلك وكر راجعاً الى دمشق ظافرا من الغنيمة بالاياب

وفي تلك الايام عاش المؤرخ العربي الشهير المدعو عبد اللطيف البغدادي . فكتب تاريخاً مهما عن احوال مصر وقد ترجم هذا المؤلف الى اللغة الانكليزية والفرنساوية وكان عبد اللطيف كاتباً ماهراً وطبيبا حاذقا لانه صرف معظم حياته في مطالعة المؤلفات اليونانية القديمة سيما مؤلفات

ارسطاطاليس الحكيم. وقد حضر عبد اللطيف من بغداد الى القاهرة مجذوبا بعوامل الشوق الى رؤية ثلاثة من مشاهير رجالها وقتئذ في العلوم والاداب اذ كان يتوق الى ذوي العلم والادب وخصوصا الى النابغين منهم ومن أولئك الثلاثة الذين جاء عبد اللطيف على شهرتهم رجل يدعى ميمونيدس كان يهوديا اشتهر بالعلم وترك ورائه اسما ذائعا

وكان موسى ميمونيدس من اسبانيا ولد في بلدة قورتوه من اعمال الاندلس ولما كبر وترعرع اعتنق الدين الاسلامي في موطنه غير ان بعض المؤرخين يقولون انه عاد الى ديانة اسلافه بعد ان اتى الديار المصرية بجهة الفسطاط. واول مابدأ به عبد اللطيف عند قدومه الى القاهرة انه زار اهرام الجيزة قبل ان يتشوه خارجها باعمال الهدم التي قام بها الملك العزيز ولما شاهدها وصفها وصفا مسهبا وذكر انها منقوشة من جميع جوانبها بنقوش هيروغليفيه يتعسر على المسلمين فك رموزها وألف بعد ذلك مؤلفا في النباتات المصرية ووصف اثار الدلتا وذكر جاموس البحر في فرعي النيل وأسهب على الخصوص في اثنين منها وقال انهما كانا سبب تلف عظيم في فرع النيل الذي يصب في دمياط وان الحكومة المصرية لما اعيتها الحيل في قتلهما ارسلت الى بلاد النوبة واستقدمت طائفة من الصيادين الحاذقين في صيد ذلك الوحش الضاري فحضروا وظفروا بصيدهما بمهارة فائقة وقتلوهما واحضروا جثتيهما الى القاهرة فرآهما عبد اللطيف وكتب يصفهما وصفا دقيقا. وكان عبد اللطيف كثير الاعجاب بالمباني المصرية الفخيمة

ونقوش احجارها العظيمة وقصور الامراء التي تناطح السحاب وفخامتها واتساعها وكثرة حماماتها الجميلة واقبيتها المتينة حتى بعض البيوت والقصور كانت تتهدم اما تلك الاقبية والحمامات فلم يصبها اذي وبقيت تلك الاثار الفخيمة والنظامات الهندسية من عهد اسلاف عبد العزيز الى ذلك العصر حتى ادهشت ذلك الحكيم الشهير والمؤرخ الحاذق عند رؤيته اياها لانه كان يسمع بشهرتها وهو في دمشق. ووصف عبد اللطيف في تاريخه المجاعة العظيمة التي حلت بمصر وصفاً دقيقاً وذكر الوباء الذي عقبها من سنة ٥٩٧ — ٥٩٨ هجرية اي سنة ١٢٠٠ مسيحية

ومما اثبته في وصف تلك المجاعة ما يأتي قال

كان هم بهاء الدين امير الجيوش منصرفاً الى استخدام انقاض المباني المصرية الاثرية الفخية التي هدمها في بناء اسوار القاهرة عوضاً عن تطهير الترع والخلجان وتيسير وسائل الري في البلدان. وكان نتيجة ذلك الغلط الفاحش أن النيل لم يف بالمراد اذ كان فيضانه قليلاً في تلك السنة التي كان مشغولاً فيها ببناء السور ثم هبط سريعاً وترك البلاد جدباء ولم تدخل المياه الى الترع والخلجان بتة لعدم العناية بتطهيرها فحل الشرق وبارت الاراضي الزراعية وترك الفلاحون التعساء حقولهم واجتمعوا في المدن والبلدان وحلوا على ضفاف النيل ولما لم يكن لديهم نقود أو غلال يعولون عليها فشت فيهم المجاعة وكان الفقراء يعيشون على لحم الكلاب والخيل بعد أن مات منهم كثيرون رجالاً ونساء واشتدت بهم الفاقة الى ان صار

بعضهم يأكلون اولادهم وتفاقم الخطب الى ان صارت اللحوم البشرية تباع في الاسواق . وكان تجار تلك اللحوم يصطادون النساء بالخداع ويخطفون الاطفال ويذبحونهم ويقدمون لحمهم في السوق للبيع كلحم الخراف والعجول . قال عبد اللطيف المؤرخ وقد شاهدت بنفسي جثث جملة اطفال مشوية معروضة للبيع واخيراً اطاعت الهيئة الحاكمة على تلك الفظائع الشنيعة فاراد بهاء الدين وضع حد لتلك الضحايا البشرية فامر بالقبض على تجار تلك اللحوم وقتلة النساء والاطفال وامر بحرقهم احياء في النار . فاحرق منهم ماينيف عن ثلاثين رجلاً في بحر بضعة ايام في مدينة القاهرة وحدها . وكل صفحة تقلبها من تاريخ عبد اللطيف عن مصر تجدها مشحونة بتفاصيل تلك الفظائع المريعة . وبالاجمال فان مجاورة جامع احمد ابن طولون كانت دائما مملوءة من الجزارين بائعي اللحوم البشرية وكانوا دائما يقفون منتظرين من يمر بهم من النسوة أو الاطفال حتى يقتنصوه اذ ينقضون عليه انقضاض الصاعقة ويذبحونه ويسلخونه وكان يقع في مخالبهم كثير من الخلق وقد خص عبد اللطيف بالذكر بائع كتب وقع بين أيديهم وكان سميناً كثير اللحم فوصف كيفية القبض عليه وذبحه وصفاً وافياً لامحل له هنا . وذكر في كتاباته الصادقة أن تلك الذبائح البشرية لم تكن قاصرة فقط على القاهرة بل كانت فاشية في كل مدن القطر المصري وأخصها بالذكر اصوان وقوص والفيوم والمحلة الكبرى والاسكندرية ودمياط . وكانت جثث الذين يموتون جوعا

تلقى بدون دفن على قارعة الطريق وكان ينزع اللحم عن عظم كثير منها ويباع للاكل وتلقى العظام في الطرق فيعثر فيها المارة كما يعثرون في حجار الارض وأصبحت قرى كبيرة خاوية من السكان ولم يبق الا قليل من الاغنياء الذين احتاطوا لانفسهم فخزنوا شيئاً من المؤونة فانهم هم الذين بقوا أحياء ووضعوا أيديهم على القرى والبلاد التي هلك ذووها وكان اولئك الاغنياء محتفظين على بعض البذور للزراعة وقد اضطروا الى تأجير بعض الناس لحمل الجثث المائتة والقائها في النيل فتلوث ماؤه بميكروبات الجيف فكان ذلك سبباً في انتشار الطاعون كما سترى .

وجعل أولئك الاغنياء قطعة من العملة الفضية لكل من يحمل عشر جثث ويلقيها في النيل وكانت الضباع والسباع توفر عليهم مشقة نقل الجثث في بعض الاحيان اذ كانت تنزل الى القرى ليلا وتأكلها . حكي أن صياداً من مدينة تانيس « احدى مدن الدلتا القديمة » انتشل في يوم واحد اربعمائة جثة كانت طافئة على وجه المياه . وقال عبد اللطيف أن الوفا من من الناس كانوا يبيعون أنفسهم وأولادهم ارقاء للحصول على لقمة من العيش تحفظهم من الموت وأخبره بعضهم أن خمسين عذراء وقعن فريسة لأنياب المفترسين وثبت من الاحصاء الذي صار بعد ذلك انه لم يبق من طائفة الصناع وأرباب الحرف بعد تلك المجاعة اثنان في المائة

وكانه قدر على الديار المصرية في تلك الايام أن تكون مهبط البلاء والشقاء فقد حل الوباء بعد تلك المجاعة العظيمة ومد ذراعه كمنجل الحاصد فحصد

الذين ابقام الجوع حصدا فقل عدد السكان في القطر المصري قلة واضحة يدل على ذلك ان الذين كانوا يجنزون يومياً في مدينة الاسكندرية بلغ سبعمائة عداً هذا عدا العدد العديد الذي كان يدفن بغير تجنيز أو يترك من غير دفن كلية واسف عبد اللطيف لان الحكومة والاهالي لم يستدعوه لاظهار مقدرته في انجاذ ذلك الشعب وختم تاريخه ببيان شاف عن الدمار الذي الحقه الطاعون بالبلاد وقد علمنا من مصادر اخرى انه بعد أن كتب تاريخه غادر البلاد المصرية وتوجه الى دمشق وتركها تتلظى على جمر المجاعة. وفوق هذه الارزاء والنكبات فان الاضطهاد في ذلك الحين كان على اشده على الاقباط اصحاب الحرف المعمارية كنقاشي الاحجار ورؤساء البنائين والبنائين الذين ادهشت صناعتهم عبد اللطيف المؤرخ فهاجر مئات منهم الى بلاد الحبشة حيث اكرم الامبراطور وفادتهم واستخدمهم في بناء الكنائس .

وعلاوة على مصائب الجوع والاضطهاد والوباء فان فظائع الحرب قامت على قدم وساق في شمال الدلتا لان الصليبيين بعد ما فشلوا في استرجاع فلسطين دفعتين من ايدي الاسلام في خريف سنة ١٢٠٣ مسيحية وربيع سنة ١٢٠٤ اعادوا الكرة على مصر فدخلوها من فرع النيل الغربي عند رشيد وتوغلوا في البلاد حتى عسكروا عند مدينة فوه ثم تفرقوا في عرض الدلتا وصاروا يذبحون السكان من نصارى ومسلمين على السواء. فالتزم اسقف فوه المدعو كيلوس ان يدبر طريقه ليهرب وينجو بنفسه لانه يظهر ان شعبه تغرق

ايدي سبا او ذبحه الصليبيون. ويظهر ان المصائب في ذلك الوقت قد عقدت خناصرها على خراب مصر فاصابتها زلزلة عظيمة مرعبة اثناء ذبح الصليبيين للمصريين وكانت تلك الزلزلة هائلة جدا حتى شعر بها سكان سوريا وآسيا الصغرى حتى حدود العجم . وكان العادل في ذلك الحين موجودا في سوريا فاسرع الى مصر لمطاردة الافرنج . وبوصوله لم يقم حرب في وجههم بل فتح باب المخابرات السياسية بينهم وانتهت تلك المخابرات الى معاهدة مفادها ان يسلم الملك العادل الى الصليبيين يافا ولدة والرملة في سوريا نظير جلائهم وبعد تلك الحوادث قدم وفد من امبراطور الحبشة الى البطريرك يوحنا السادس يطلب رسم مطران جديد لتلك البلاد . وكان البطريرك شديد الرغبة في انتخاب مطران يكون ذا كفاءة تامة لذلك المنصب الكهنوتي السامي المهم الكائن في بعيد الاقطار . ولكن العوائد القديمة المنتقدة كانت تحتم عليه ان لا ينتخب لذلك المركز الديني الرفيع الا من طبقة الرهبان ولا يمكنه انتخاب رجل من طبقة القسوس الذين يرى فيهم الكفاءة والاهلية . ولذا التزم ان يدور على الصوامع المصرية المختلفة وصار يمتحن الرهبان الذين فيها فرداً فرداً وينتخب اسماء الرهبان الذين يرى فيهم اللياقة للترشيح في الانتخاب وكتب قائمة باسمائهم وابتدأ أن ينظم طريقة انتخاب دقيقة ليختار اهم راغب في الصوامع المصرية وادیرتها . لكن ذلك لم يرق في عيني المندوبين الاحباش حتى ملوا كثرة الانتظار فاشاروا على البطريرك ان يسرع في تعيين ذلك المطران . ثم

كتبوا الى سلطان مصر وارسلوا له هدايا عظيمة وطلبوا منه ان يكلف البطريرك يوحنا بان يسرع في انتخاب المطران حتى يعودوا به الى بلادهم بدون تاخير

لكن ذلك لم يؤثر في البطريرك لانه عدل بالمرة عن انتخاب راهب غير لائق لذلك المنصب ولم يبال بذلك الاستعجال . وتصادف ان اسقف فوه كان بلا قطيع لان شعبه قتل كله في حرب الصليبيين كما قدمنا . وكان ذلك الاسقف ذا خبرة تامة بشؤون وظيفته واخلاق عالية وافكار سامية فرأى البطريرك انه اكثر لياقة لذلك غير أن تعيينه مطرانا للحبشة يعد مخالفاً لقوانين الكنيسة القبطية التي يصعب نسخها لكن لما كان مبدأ البطريرك ساميا ولم يعارضه احد في ذلك ترقي الاسقف كيلوس الى رتبة مطران باحتفال عظيم وسافر في الحال الى مركزه السامي الجديد مع سفراء الاحباش .

ولما وصل حدود الديار الحبشية واستقبله الامبراطور والشعب الحبشي استقبالاً عظيماً . وصنعوا له موكبا مشى فيه الامبراطور نفسه على قدمه ثلاثة ايام من مدينة اكسيوم الى العاصمة وكان يتقدم ذلك الموكب العظيم كل اساقفة وكهنة وشمامسة الاقطار الحبشية يحرسهم جيش جرار من الجنود والضباط الاحباش واثناء مسير الموكب في الطريق خصص الامبراطور للمطران مظلة من الحرير الغالي القيمة المطرز بالذهب وكان يحملها اربعة من كبار الاساقفة الاحباش وظل هذا الموكب

المهيب العظيم سائراً على الاقدام حتى وصل عاصمة الديار الحبشية .

وكتب احد مؤرخي المصريين الاقباط الذي كان مصاحباً الاسقف في سفره وصفاً مدققاً لذلك الاحتفال البهي والمجد والعظمة التي كانت تحيط المطران في كل الاوقات . وبعد استلام المطران كيلوس مقاليد الكنيسة الحبشية صار يسوسها ويديرها باحسن انواع الادارة وسلك مع الاحباش وامبراطورهم احسن سلوك واستمر مدة اربع سنوات على هذا السلوك الحسن والبطريرك يوحنا في مصر يسمع عنه كل ثناء ومديح . ولكن بعد مضي تلك المدة حضر فجاءة الى القاهرة فاندهش البطريرك من ذلك ولما ساله عن سبب ترك مركزه وحضوره فجاءة بدون مناسبة فاجابه ان اسقفاً حبشياً هو شقيق الملكة اغتصب منه مركزه قهراً وقد نجا بحياته وحضر الى وطنه . ولكن ذلك لم يقنع البطريرك وارتاب في صدق الخبر فامر المطران كيلوس بالاقامة في القاهرة وارسل مندوباً الى الحبشة ليستفسر عن الحقيقة وتحقيق الامر مع الاحباش فراح المندوب وبعد غياب سنة تماماً عاد حاملا للبطريرك رواية تخالف رواية المطران كيلوس على خط مستقيم . ومضمون تلك الرواية ان اواني الكنيسة الكاتدرائية في مدينة اكسيوم قد سرقت وكانت مصنوعة من الذهب الخالص وان المطران كيلوس اتهم حامل مفتاح خزينة الكنيسة بسرقتها . وانه بمجرد الشبهة وسؤ الظن فيه القي القبض على ذلك الكاهن الحبشي المسكين وسجنه ثم امر بجلده بالسياط حتى

مات . فاوجب ذلك التصرف الممقوت استياء الاحباش عموماً فتألبوا واحدثوا مشاغبات هائلة ضد المطران كيلوس ولما لم يعد في وسعه دفع القرية عن نفسه فر هارباً الى مصر

وارسل امبراطور الحبشة مندوبين من قبله ايضاً مع مندوب البطريرك الى مصر ليؤيدوا تلك الحقيقة للبطريرك ويطلبوا منه تعيين مطران اخر خلاف كيلوس . وامدهم ايضاً بهدايا ثمينة للسلطان العادل لان السلاطين والخلفاء المسلمين الذين كانوا يحكمون مصر كانوا يحذرون اتصال المخابرات والمواصلات بين كنيستي السودان والحبشة وبين امهما الكنيسة القبطية المصرية دون ان تقوم هاتان الكنيستان بدفع جزية عظيمة لحكام مصر نظير ذلك الترخيص وبين تلك الهدايا التي ارسلها امبراطور الحبشة مع سفرائه للعادل ملك مصر ثلاث حيوانات جليلة وهي اسد وفيل وزرافة وفي ذلك الوقت كان الملك العادل غائباً عن مصر ومشغولا في حروبه مع الافرنج في سوريا فتناول ابنه الكامل ولي عهده على مصر تلك الهدايا بمزيد الشكر واصدر الاوامر بالترخيص للبطريرك بانتخاب مطران جديد للحبشة

أما البطريرك يوحنا فقبل ان ينظر في أمر تعيين المطران الجديد اراد محاكمة المطران كيلوس اولا . فعقد مجمعاً دينياً تحت رئاسته وبعد المداولة مع الاساقفة اعضاء المجمع حكم عليه بتجريده علناً امام الناس من درجته الكهنوتية العالية . وقد عين يوما مخصوصا لتنفيذ ذلك الحكم في نقطة معلومة من احياء مدينة القاهرة فما جاء ذلك اليوم حتى ازدحم الخلق ازدحاما

شديدا بين نصارى ومسلمين في نقطة التنفيذ ليشاهدوا شلح المطران . وكان ازدحام الناس شديدا لشغفهم الزائد برؤية ذلك المنظر الذي لم يسبق له مثيل . وكان كل فرد من المتفرجين يريد ان يستأجر حمارا مسرجا ليركبه الى ذلك المكان حتى يصل قبل سواه فما كان يجد ولو دفع اجرته ثلاثة دراهم (الثلاث دراهم كانت تعتبر اجرة غالية في ذلك الحين) . وبعد ان امتلأ المكان من الجماهير الكثيرة حضر البطريرك وحوله الاساقفة والكهنة والشمامسة وأحاطوا بالمطران كيلوس ووراءهم جمع كمن يسوقون رجلا للشنق ولما وصلوا الى النقطة المعينة للتنفيذ . قرأ احد الاساقفة امام كيلوس قصة ذنبه وصورة حكم المجمع المقدس عليه بالتجريد ثم خلعوا عنه الملابس الكهنوتية باهانة وكان المنظر مؤثراً وبعد ذلك تفرق الجميع

ثم انتخب البطريرك راهبا من دير القديس انطونيوس يدعى اسحق وارسله الى الحبشة فقوبل هناك بكل حفاوة واكرام وساس كنيستها بحكمة فائقة ثم توفى بعد ان عاش اربعين سنة بين الاحباش في صفاء وهناء حتى اعتبروه في مصاف القديسين بعد وفاته . ومن اعماله المأثورة انه استحضر من مصر جماعة من الاقباط المشهورين بالنقش على الحجر فنقشوا له احجارا صخرية صلبة نقشا جميلا وزين بها كل الكنائس الحبشية بناء وترميما وقد ادهشت تلك النقوش الحجرية الجميلة جماعة البرتغاليين الذين زاروا البلاد الحبشية بعد زمن المطران اسحق المشار اليه باجيال عديدة .

وكان الملك العادل اثناء تلك الحوادث مشغولا بمحاربة الصليبيين

في فلسطين وكان القائم باحكام وشؤون مصر ابنه الملك الكامل لذي كان يحبه الاقباط حبا شديدا. حتى ان بعضاً الذين كانوا اسلموا ظاهريا في ايام السلطان صلاح الدين لضغطه عليهم ابتدأوا يؤملون خيرا في الملك الكامل ليصرح لهم ان يعودوا الى ايمانهم الاصلي ودينهم المسيحي اذ لم يتركوا دينهم الا خوفا من الموت حرقا بالنار وهو القصاص الذين كان يصيب كل من يحيد عن الدين الاسلامي في عصر صلاح الدين.

وكان في جملة اولئك الذين اعتنقوا الاسلام قهراً خوفا من الموت حرقا راهب من دير وادي النطرون أجبره السلطان صلاح الدين على اعتناق الديانة الاسلامية أو يذيقه المنون فاسلم وتعين كاتباً في الحكومة وكان ذلك سببا لحصوله على شهرة في الاعمال الحسابية

فلما جاءت ايام الملك الكامل الذي أظهر عطفه على الاقباط كما قدمنا. مثل ذلك الراهب المسلم الكاتب بين يديه وطلب منه الترخيص له بالعودة الى الديانة المسيحية وقال له انه ان لم يقبل منه ذلك الطلب فانه يفضل ان ان يموت شهيدا عن ان يبقى مسلما طول حياته فرأف الكامل بحاله واصدر أمره برفته من ديوانه دون أن يمسه أحد بضرر ففرح الراهب فرحا لا يوصف واستقبله اهله استقبالا عظيما وتاب عن خطاياه وعن تظاهره بالاسلام وعاد الى الرهبنة. وكان حينئذ قبطي آخر من مدينة طيبة قد إسلم قوة واقتدارا فلما سمع بنجاح راهب وادي النطرون في مسعاه قدم هذا أيضاً التماسا مثله الى الملك العادل يطلب فيه الترخيص له بالعودة الى

ديانته المسيحية. ولكن لسوء حظه ولنكد طالع الراهب ايضاً انه ما كاد الكامل يصدر أمره ثانيا بالتصريح له الا وحضر أبوه الملك العادل فجأة من سوريا فلما بلغه ما كان من أمر الراهب الذي عاد الى النصرانية استاء جدا وغضب غضباً شديدا بسبب حنو ورأفة ابنه ثم أصدر أمره في الحال الى ثلة من الجنود لمحاصرة دير وادي النطرون وأمر أحد ضباطه بقتل ذلك الراهب المسكين في الحال ان لم يبادر الى انكار ايمانه ويرجع الى الديانه الاسلامية فارتعدت فرائصه ولبي الطلب وانكر ايمانه ومن شدة خوفه تمادى في الانكار وصار يتملق الى المسلمين ورجال الحكومة واخبرهم انه قادر على ارشادهم الى حيث يخبيء الرهبان ذخائرهم. وكان لما سمع الرهبان بقدوم المسلمين الى الدير انهم اخفوا آنية الكنيسة في بئر لاماء فيها ولم يكن في الدير ذخائر خلاف ذلك. واكد ارشمندريت الدير لجماعة الاسلام الذين جاؤا يفتشون على الذخائر وينهبونها بعدم وجود شيء مما تبالغ لهم. ولكنهم عثروا على البئر بارشاد ذلك الراهب الخائن فاستخرجوا منها كأس الاخارستيا (أي كأس العشاء الرباني) وصينية الخبز التي يوضع عليها العشاء الرباني وحجاب الكنيسة المقدس وعادوا بها الى القاهرة. وبعد ذلك بقليل توسط في أمرهم الكامل فامر العادل برد تلك الذخائر اليهم ففرحوا فرحاً عظيماً لذلك

وبعد ذلك بقليل توفى البطريرك يوحنا وكان محبوباً من الجميع فحزن عليه كل المصريين غير انهم دفنوه بغير ان يحتفلوا به احتفالاً عظيماً لان

من عادة المصريين ان يعجلوا بدفن موتاهم ولما كان موته بغتة لم يتمكن احد من اساقفة الارشيات حضور جنازه

وكان احد اساقفة الكنيسة اليونانية في مصر يبكي عليه عند تشييع جنازته بكاء مرا وهو مما يدل على مكانته وعلو مقامه يشهد بذلك نفس الذين كانوا يسمونه بالهرطقة حتى ان احد المؤرخين المسلمين شهد بعظمته فكتب يقول ان من ضمن اصلاحاته انه الغى العادة الجارية بدفع رسوم الانتخاب ولم يلب مطالب الاسكندرانيين الباهظة . ونهى عن اخذ رسوم تقليد الوظائف الكهنوتية . ولم يكن مديوناً بجميل أو معروف لمسيحي واحد من شعبه طول حياته بل كان ذا فضل عم الجميع من رفيع ووضيع وكان يبغض الرشوة وذلك من افضل السجايا التي يتصف بها حر الشمائل وكان يسخط على الذين يقبلونها وبقي الكرسي البطريركي المرقسي خاليا من بطريرك يتبوأه لعدم اقرار الاساقفة على احد من المرشحين. وكان في ذلك الوقت اثنان مرشحين للبطريركية احدهما يدعي بولس لم يكن مشهورا الشهرة الكافية والاخر رئيس شمامسة كنيسة المعلقة في حصن بابليون . وغير هذين الرجلين كان ثالث يدعي داود ابن يوحنا بن لقلق من اهالي الفيوم اشتهر بين الاقباط بزيادة مطامعه في الترقي وكان له حظ وافر لدى مجمع الاساقفة الذي انعقد لانتخاب البطريرك الجديد فشرع في الحصول على الكرسي البطريركي بكل واسطة مهما كان نوعها مع انه لم يكن حائزا اللياقة لذلك دينياً اوعلمياً او ادبياً وقد سبق له ان اسقفه

حرمه بسبب اثارته شغباً في الكنيسة وكان قد رشح نفسه لوظيفة مطرانية الحبشة فلم يقبل البطريرك السابق يوحنا السادس طلبه وانتهره على تطفله وطلبه ما لا قبل له عليه فأثر ذلك في نفسه ايما تأثير وكان باعثاً له على السعي بما فوق الطاقة للحصول على مركز البطريركية ولم لو تكن الكنيسة القبطية مقيدة بقوانين وطقوس يتحتم اتباعها لفاز داود بالحصول على كرسي البطركية ولم يسبب سعيه متاعب تذكر. ولكنه لسبب ذلك لم يفز بطائل اولا لان شعبه غير موافق على لياقته وثانياً لرفض الاساقفة الاقرار عليه . ولكنه اذا كان صديقاً حميما لناظر الحربية الذي كان قبطياً مسيحياً ولكنه لم يكن غيورا على طقوس الكنيسة سعى في انالته بغيته وحض السلطان العادل على اصدار امره بسيامته بطريركا فاصدر السلطان أمره بذلك وكان يوم الاحد فلما علم الاقباط بذلك هاجوا هياجا شديدا . وحجز ناظر الحربية المذكور جمهورا من الاساقفة ليلة الاحد ليغصبهم على سيامة داود بطريركا طوعا لمنشور الملك العادل فتشاور الاساقفة في ذلك واتفقوا على ان يبلغوا كبار الامة بذلك حتى يتخذوا التدابير الفعالة لمنع التداخل في الشؤون الدينية . فلم يتأخر وجهاء الاقباط عن اجراء اللازم ولما وصلهم الخبر قاموا ليلا ووصلوا الى سراي الملك الكامل وهم في شغب وهياج عظيمين فصحا من نومه على ضوضائهم وهم ينادون وكان يومئذ في قلعة المقطم فقام بشفقته المعهودة وخرج لاستقبالهم فتقدم اليه جماعة منهم وبأيديهم عرائض التظلم

ية وسلون اليه ان يغيثهم ويمنع عنهم النكبة التي حلت بهم ويرفع العذاب الذي يتهدد كنيستهم بالخرب وكان كل الاقباط متجمهرين في الخارج وفي يدهم مشاعل موقدة وهم يصرخون طالبين من الكامل ان ينظر في شكواهم فلما وقف الكامل على امرهم امر باسراج جواده وركب مسرعا لمقابلة والده الملك العادل والمحادثة معه في ذلك ووعدهم خيراً اما ما كان من أمر داوود فانه علم بانه لابد من هياج الشعب فخاف وهرب في جف الاحد من القاهرة ومعه اعوانه والاساقفة الذين كانوا يريدون ان يرسموه بطريركا وجاؤا الى بابليون التي لم يبق منها بعد ذلك الحريق الذي تقدم ذكره غير كنيسة المعلقة التي كانت الكندرائية العظمى في ذلك اليوم وقد حفظت من النار لوجودها داخل الحصن العظيم الذي لا تزال اثاره باقية حتى الآن . فدخلوها واقاموا بها .

ولما وصل الكامل الى قصر ابيه العادل في القاهرة وجد ان داود هرب منها فطفق يحدث اباه بتفاصيل المسألة ويبين له وجوه استياء الاقباط من قبوله بطريركا عليهم لعدم توفر شروط اللياقة فيه بحسب مذهبهم فقبل العادل مطالب ابنه وأصدر أمره في الحال باستحضار الاساقفة من كنيسة المعلقة حيث بدونهم لايتم سيامة داود بطريركا . فقام رجال الحكومة حالا الى تلك الكنيسة وأمر الاساقفة بالخروج حالاً من الكنيسة والذهاب الى القاهرة فامر الملك العادل فما صدقوا ان سمعوا هذه الدعوة التي كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر نظراً لمضايقة داود وناظر الحربية لهم والالحاح عليهم

بسيامته بطريركا .

فلما قام الاساقفة مع مندوبي الحكومة الى القاهرة حبطت مساعي داود وتأجلت سيامته الى اجل غير مسمى . وبعد ذلك اجتمع اربعة من الاساقفة وحرموه وتعاهدوا ان لايحضروا سيامته اذا اتفق اتمام ذلك بالرغم عنهم لانه ظهر لهم انهم لايثقون بالملك العادل وكان داود يبذل قصارى جهده في دس الدسائس لنوال مأربه طالما كان الكرسي البطريركي خالياً من رئيس ديني يتبوأه

ومن تلك المساعي والدسائس أن ناظر الحربية صديق داود عاد الى استئناف مساعيه فأثر على افهام الملك العادل بان داود اوفق ما يوجد لذلك المركز الخطير وان الشعب موافق على هذا كل الموافقة وانه لايعول على تظاهر الذين قاوموا ضده لانهم من رعاع القوم وصعاليك الامة ولا يروقهم الا الهياج واقلاق راحة البلاد لا من العلم وبرهن صحة أقواله للملك بان رشا بعضاً وهدد اخرين من الاساقفة حتى تحصل على امضاء ثلاثة عشر اسقفاً منهم ونقول بملء الاسف ان اثنين منهم ممن اقسموا ان لايحضروا سيامته امضا على العريضة وفاز بالحصول على ختوم اربعين راهباً وجمهور عظيم من العوام وكتب ناظر الحربية عريضة مستوفية الشروط يطلب بها تعيين داود بطريركا فلم يسع السلطان العادل بعد ذلك الا ان أصدر أمره باجراء ما يريده ناظر حربيه فقربت آماني داوود ان تتحقق . ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه فان المقادير عاكسته لان بقية الشعب لم توافقه على رأيه والتجأوا

الى ابن السلطان الملك الكامل بوساطة زعيمهم طيب العادل وكان قبطياً أيضاً فسعى في افساد تدابير ناظر الحربية وحصل على توقيع كثيرين من ذوي الحيثيات بعدم اقرارهم على داود وطلب من الملك ان يطلق الحريه للاقباط ليختاروا من يشأون حسب منطوق طقوسهم الكنائسية فصار الطيب والكامل يشدان الحبل من جهة وناظر الحربية وأعواته من الجهة الاخرى

فتحير الملك العادل من ذلك واخيرا اضطر ان يسلم الى ارادة ابنه وطيبه فأمر بمنع اجبار الاقباط على قبول داود بطريركا كما انه أمر ايضاً بعدم تنصيب سواه فانتصر حزب الطيب والامة على حزب داوود وناظر الحربية وكانت نتيجة ذلك الشجار ان بقي الكرسي البطريركي بغير حبر مدة طويلة

الفصل السادس والخمسون

الصليبيون في مصر

سنة ١٢١٦ مسيحية و٩٣٢ للشهداء و٦١٣ للهجرة

جرت تلك الحوادث في مصر بينما كان الصليبيون يوغلون في فلسطين في حملتهم السادسة على المسلمين سنة ١٢١٣ (٦١٠ هجرية) حيث ضايقوا المسلمين مضايقة شديدة على حدود سوريا وامتلكوا أعظم مدائن سوريا أطمعهم في ذلك انقسام الدولة الايوبية ولكن لما خلا الجو للملك العادل

خلع المنصور في شوال سنة ٥٩٦ بعد ان حكم ٢١ شهراً ثم خلع الافضل عن دمشق وقبض على زمام سلطنة مصر وسوريا وصير الامارات الصغرى تحت سلطانه وجمع شتات القوات الاسلامية غير انه لما علم ان الصليبيين يطمعون في المجيء الى مصر مرة اخرى ولا يرعون حرمة المعاهدة السابقة التي تنازل لهم فيها عن مدن يافا واللد والرملة في سوريا نظير انسحابهم من مصر استاء من نكثهم العهود واتضح له انهم لم يقبلوها يومئذ الا ليشغلوه عنهم فيبقى في مصر حتى يسيروا الى فتح حماة فلذلك خرج اليهم في جيش عظيم والتحم الجيشان في موقعة دمويه هائلة وبلغه وهو يحارب قدوم نجدة للصليبيين فتقهقر الى نابلس وتحصن فيها فطرده الصليبيون فعاد الى سهول صفر وتمكن الاعداء من قطع طرق المواصلات عليه وجالوا في سوريا يذبحون وينهبون حتى صيروها بلاقع ومن ثم حولوا وجوههم الى مصر فوصلوها بحراً وحاصروا دمياط وكان ذلك يوم الثلاثاء ٤ ربيع اول سنة ٦١٥ هـ وكانت عدتهم يومئذ ٤٠٠ الف راجل و ٧٠ الف فارس فحفروا الخنادق وشرعوا في مهاجمة برج دمياط الذي امتنع فيه المسلمون واحاطوه بسلاسل حديدية امتدت من البرج الى السور على النيل لمنع المراكب الحربية القادمة من البحر المتوسط وبذل الصليبيون الجهد في امتلاك البرج ليتسنى لهم العبور في النيل حتى القاهرة وكان في البرج كثيرون من المقاتلة الاشداء فلما رأوا ضيقة الحصار قاتلوا مستقتلين وصاروا يرشقون الاعداء بالسهام والحجارة والحراب حتى دحروهم ولكن ورد المدد على الصليبيين

فعادوا الكرة واستولوا على البرج وكان العادل اثناء ذلك يرسل الامداد من الجنود السورية للدمياطيين ولما بلغ الكامل وقوع دمياط في تلك الحرب بيد الاعداء وخروج ابيه منها وكان لم يزل في سوريا أمر والي أقليم الغربية بجمع العربان وحشد جيش عظيم منهم علاوة على جيشه المنظم وسار به حتى بلغ دمياط وفرق جنده حول السور ليحصر الافرنج ويساعد جيوش ابيه الملك العادل ولكن الملك العادل كان سبق فتوجه الى القاهرة خوفا عليها من فتك الصليبيين بها ولكنه مرض في طريقه ومات في جمادي الاخرى فكتم الملك عيسى ابنه خبر موته خوفا من انحلال جنوده وقضاء الصليبيين عليه واحتال لذلك بان حمله في محفة وجعل خادماً وطبيباً راكباً بجانب المحفة والساقي يقدم الكاس كالمعتاد ويحمله الى الخادم فيشربه ويوهم الناس ان السلطان العادل شربه وظل كذلك الى ان وصل الى دمشق فوضع الملك عيسى خزائن ابيه وجميع ما كان معه في قلعتها واطمأن عليها ثم أعلن وفاة أبيه ودفنه بالقلعة المذكورة ثم نقله الى مدرسة العادلية بمدينة دمشق .

ولما بلغ خبر موته الى ابنه الملك الكامل حزن حزنا شديدا وتبوأ العرش مكانه غير ان الجنود تمردت عليه وابت الخضوع له والاعتراف به سلطانا لانهم كانوا يكرهونه لمحبته في السلام ورفقته بالمسيحيين واختاروا من بينهم قائدا كرديا ليتولى أمورهم ولو كان الصليبيون تقدموا الى فتح مصر حينئذ لظفروا بما كانوا يؤملون بغير كبير مشقة غير انهم كانوا

منقسمين على بعضهم كالمسلمين

وكان كل منهم يريدان يكون رئيساً لان القاصد الرسولي الذي ارسله البابا وصل الى المعسكر واراد ان يسود رؤساء الجند فعارضه جان برين قائد الجيوش الاكبر وابى أن يسلم وظيفته لاحد الاكليروس ومازال الصليبيون يقضون الوقت في المناقشة على الرئاسة حتى أضاعوا الفرصة وكان المسلمون يومئذ قد جمعوا كلمتهم ونظموا اجامعتهم وسببه ان اخا الملك الكامل كان يحب أخاه حباً خالصاً وذلك بخلاف ما نراه في الاخوة ذوي المناصب الرفيعة على وجه العموم وكان اسمه نور الدين ولعله الملك العادل عيسى المعظم الذي كان برفقة أبيه العادل وقت موته كما تقدم

فلما بلغه خبر تمرد الجند على أخيه الكامل أسرع اليه من سوريا وعضده وأيد كلمته والزم الجنود بالخضوع له فاعتزت كلمة الكامل والتفت الى محاربة الصليبيين الذين بقوا على حصار دمياط بضعة اشهر زادت قوتهم في خلالها بقدوم القديس فرنسيس من أوربا واتحاده مع اخوانه وكان معه لفيف من الرهبان يقصدون الاستشهاد في الحرب . وصادف مقدمه الوقت الذي كان فيه الملك الكامل وأخوه يستعدان لرفع الحصار عن دمياط فانبأ القديس فرنسيس ان المسلمين سيهزمونهم في الموقعة القادمة ولقد تمت نبؤته بان قتل من الصليبيين في تلك الموقعة ستة آلاف نفر عداء الذين اسرهم المسلمون غير انه مع ذلك النصر لم يقو المسلمون على فك الحصار عن المدينة وبعد تلك الموقعة خرج القديس فرنسيس مع رفيق له من

معسكر الصليبيين لزيارة معسكر المسلمين فقبض عليهما رجال حرس المعسكر وكبلوهما بالقيود واحضروهما امام السلطان الكامل

فسألهما السلطان عن سبب مجيئهما الى معسكره. فاجابه القديس فرنسيس بانه حضر بارادة الله جل جلاله ليظهر للسلطان وشعبه طريق الخلاص . وكان القديس فرنسيس كباقي الاوروبيين في العصور الحاضرة والخالية غير عالم بقدر الكنيسة القبطية المصرية ولا يدري ان الاقباط المسيحيين متعلقون به وكذلك كان الملك الكامل يجهل ان القديس فرنسيس يعتبر الهرطوقي والمسلم على حد سوى غير مؤمنين وان لديه القبطي والمسلم على مساواة واحدة نظرا لانهما كلاهما على غير المذهب الكاثوليكي

فلما سمع الملك الكامل قوله تبسم ضاحكا من جهله لكنه سر من شجاعته وطلب منه أن يبقى في ضيافته جملة أيام فاجابه انه مستعد ان يجيبه الى طلبه اذا هو رضي بالشرط الذي يشترطه عليه وهو ان يامر السلطان باعداد اتون عظيم يحمى بالنار ويدخل فيه القديس فرنسيس مع احد مشايخ المسلمين الذي ينتخبه السلطان ممن يعهد فيه الطهارة ممن يخاف منهما من قوة النار وكانت النار عليه برداً وسلاماً كان هو صاحب الدين الصحيح فلم يرض السلطان بذلك لعلمه ان ليس أحد من المشايخ من يرضى بذلك فلما رأى القديس فرنسيس ذلك طلب ان يدخل اتون النار وحده بشرط انه اذا خرج حيا يتحتم على الملك الكامل ان يعتنق الديانة المسيحية مع سائر شعبه .

فرفض الكامل ذلك الاقتراح أيضاً خوفا من ان يكون ذلك ضربا من ضروب السحر او الشعوذة ولو كان الملك الكامل يريد اعتناق الديانة المسيحية لما رضي بالتتبع للكنيسة اللاتينية بل بالحري كان يؤثر الكنيسة القبطية عليها ومن ثم امر القديس فرنسيس بالخروج من عنده بكل لطف وقدم اليه هدايا ثمينة فلم يقبل ولكنه قبل خروجه طلب منه ان يأذن له أن يبتهل الى الله حتى يعلن عظمته لسلطان مصر سواء بقي على الاسلام أو تنصر

وبعد ان ايد الملك عيسى أخاه الكامل على سريره ابقى عنده بعضاً من جيشه وعاد الى الشام حذرا من استفحال شوكة الصليبيين اذا وقعت دمياط في ايديهم فلما وصل اليها أمر بهدم سورها حتى اذا ملكوها لم يكن لهم السور قوة على قوة

وبعد ان عاد القديس فرنسيس الى معسكر الصليبيين شرعوا في مضايقة دمياط فلما تأكد الكامل استحالة انقاذ المدينة بقوة الحرب اخذ يتداول معهم في شروط الصلح فقبلوا بذلك لان معظمها لصالحهم فانه رضي في نظير جلائهم دمياط وتخليهم عن حدود مصر ان يسلمه بيت المقدس وسائر املاكه في فلسطين واملاك اخيه خور الدين التي في شمال سوريا والصليب الحقيقي الذي صلب عليه السيد المسيح الذي سبق للسلطان صلاح الدين فوعدهم بتسليمه لهم ولم يبر بوعده هذا كما عدا الغرامة الحربية واطلاق كل الاسرى المسيحيين الذين عنده فكانت تلك البنود غاية في التساهل من الملك الكامل ومع ذلك رفضها

الصليبيون خوفا من ان يعود المسلمون بعد ذلك الى استرجاع اوروشليم فصمموا على البقاء في مصر وابلغوا الكامل انهم لايقبلون بها في حين ان الذين رفضوها قلال جداً ومن ثم استؤنف القتال وهجم الصليبيون هجمة الاستبسال على دمياط ففتحوها عنوة ودخلوها يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ الموافق نوفمبر سنة ١٢١٩ مسيحية بعد حصار دام ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً وقد اشتد الغلاء في دمياط قبل افتتاحها حتى بلغ ثمن البيضة بضعة دنانير فلما دخلها الصليبيون اعملوا فيها السيف فتراكمت الاشلاء وتصاعدت منها الروائح الخبيثة والابخرة المنتنة فلما رأى الصليبيون ان المدينة اضحت بهذ الصورة عدلوا عن اقامة معالم الاحتفال بالظفر خوفاً من الاصابة بالوباء واساءة جمهورهم الى الاقباط وانكروا عليهم حقوقهم الوطنية وعينوا مطراناً لدمياط من قبل كنيسة رومية اللاتينية وحولوا جامع المسلمين العظيم الى كنيسة رومانيه باسم العذراء مريم وتفرقوا في القرى يقتلون وينهبون وداسوا حقوق الكنيسة اليونانية في مصر وتعدوا على بطريركها وذكر رينودون المؤرخ الفرنسوي اسماء اربعة عشر بطريركاً لاتينياً اقيموا على الاسكندرية من عهد ذلك الانشقاق ولكن لم يبق منهم في مصر سوى الاثنين الاولين فقط .

ومما ساعد على ذلك ان الكنيسة القبطية كانت الى ذلك الحين خالية من بطريرك يعارض في الانشقاق الذي احدثه الصليبيون

وكتب نقولا بطريرك اليونان رسالة الى بابا رومية يتوسل اليه ان

يأمر الصليبيين باطلاق سراح الاسرى المسيحيين الذين وقعوا في اسرهم في حرب دمياط وأمر بسجنهم في سجون مصر والاسكندرية وأخبره ان بين الاسرى شماساً لاتينياً طلب منه ان يقيمه رئيساً دينيا عليهم في السجن وانه أى نقولا ابى ان يجيبه الى ذلك مالم يحصل على مصادقة ابيه الروحي الاعظم أي قداسة البابا . لكن البابا لم يطلع على ذلك الكتاب بل أمر بان يكتب الى البطريرك نقولا بوجوب الخضوع لكنيسة رومية وكان بين المحاصرين أستف عكا فلما رأى الصليبيين يبيعون الذين بقوا احياء من سكان دمياط حملته الشفقة على شراء كثيرين منهم حتى قيل انه اشترى نحو ٥٠٠ طفل وعمدهم ولكن لانه لم يتخذ الوسائل الكافية لارضاعهم مات اكثرهم ولم يذكر التاريخ ان كان هذا الاسقف الشفوق بحث عن والدي أولئك الاطفال التعساء الذين عمدهم وعرف ما اذا كانوا مسيحيين ام مسلمين ولا ريب ان كثيرين منهم كانوا أقباطاً فتكرر عمادهم حينئذ والذين بقوا أحياء اعتنى بهم الاسقف مع بعض اصحابه

اما الملك الكامل فانه بعد سقوط دمياط في ايدي الصليبيين اسرع الى مصر وأمر بتحصين القاهرة عاصمة البلاد لتكون مستعدة لدفع النوازل ثم عاد الى طلخا وعسكر هناك ليصد الاعداء عن الايغال في داخلية البلاد وأمر ببناء البيوت والفنادق والاسواق هنالك . فدعيت تلك المباني من ذلك الحين بالمنصورة رمزا الى انتصاره على الصليبيين كما سترى وهذا هو أول تأسيس مدينة المنصورة المشهورة بين مدن القطر المصري الان

ثم استنجد الكامل بكل المسلمين في سوريا ونادى في مصر بالجهاد الديني فالتف حوله خلق كثير جاؤا اليه من اصوان جنوباً الى اسكندريه شمالا عدا النجدات التي لحقته من الشام كالمطر تحت قيادة أخيه الملك عيسى المعظم وتبعه ملوك مسلمون كثيرون حتى بلغ جيش الكامل المنظم فقط نحو خمسين الفاً من الفرسان وخمساية الف من المشاة

اما الصليبيون فبعد ان رتبوا معسكرهم في دمياط وأقاموا فيها حامية كافية ساروا جنوباً قاصدين مقاتلة السلطان الكامل ودخول عاصمته فلما وصلوا المنصورة وجدوه معسكرا فيها ومستعدا للقتال فهالهم امر استعداده لانهم كانوا وقتئذ لا يزيدون عن مئتي الف من المشاة وعشرة الآف من الفرسان . ولما علم الكامل بمجيء الصليبيين قدم اسطوله النيلي امام المنصورة وعدده مائة قطعة حربية وشاغلهم أولا من البحر وأسرع وأرسل الف فارس من العربان ليقطعوا عليهم خط الرجعة من جهة دمياط ثم سير الاسطول بقيادة الامبرال بدر الدين بن حسون ومعه حراقة كبيرة الى رأس بحر المحلة . فانقطعت المسيرة عن الافرنج براً وبحراً فوقعت دمياط في يد المسلمين والصليبيون لا يدرون . ثم شرع في محاربتهم عند المنصورة ووقعت بينهما موقعة دموية لم يستتب فيها النصر لاحد الطرفين لان الفريقين كانا يقاتلان مقاتلة اليأس والاستبسال حتى كادا يفنيان فركب الملك الكامل جواده ودخل المعمعة وصرخ في جنوده ليثير عواطفهم فصاروا يقاتلون قتال الجنون حتى رجحت كفة الميزان عنده وانجلت تلك الموقعة

باتصار المسلمين على النصارى وكانت خسارة الصليبيين يومئذ عظيمة جدا لان المسلمين اسروا منهم نحواً من الفي فارس عدا الجنود التي قتلت واسروا أيضاً خمسة آلاف جندي وستة مراكب حربية عدا الذين غرقوا والذين تبضعت اجسامهم فتضعضع الافرنج وعقدوا هدنة مع المسلمين ومع ان الكامل حاز من النصر الباهر ما كل جبينه بالفوز الا انه خرج منها منهوك القوى بسبب ما كلفته من بذل الاموال وجمع العدة فاضحى في حاجة شديدة الى جمع المال الكافي لمتابعة القتال ولم يكن الحصول على المال في مثل ذلك الوقت الضيق بالامر الهين فقرض الضرائب على الصناع وارباب الحرف وخصوصاً من الاقباط لان الكنيسة اليونانية المصرية كانت قد وصلت الى حالة سيئة بالنظر لفتور العلاقة بينها وبين شعبها على اثر ما شاع من مخاطبة البطريرك نقولا لبابا رومية وتأهبه لمبايعته الرئاسة فآل ذلك الى ابعاد القلوب عنه والى ضعف في ايرادات كنيسته فلما اراد الكامل اخذ المال منها لم يجد فيها ما يسد الرمق فحول نظره الى الكنيسة القبطية المصرية فقبض على نصف الاموال التي كان تركها البطريرك يوحنا السادس لاخته بعد وفاته وابتدأ الكامل ورجال حكومته أن يستميلوا الاقباط الى داود ويقنعوهم بلياقته وقبوله واجتهد الكامل في ذلك اولاً للحصول على رسوم البطريركية التي تدفع لخزينة الحكومة وثانياً لاخذ المال اللازم من داود نفسه في نظير مساعدته له للحصول على مأربه وما كاد يشيع هذا الخبر حتى هرع كثيرون من اساقفة جميع جهات القطر

للاحتجاج على تعيين داود وكان داود يومئذ قداحتفل في ديوان الحكومة بشكر الذين رشحوه الى ذلك المنصب فلما رأى احتجاج الاساقفة وهياج الشعب القبطي حبطت اماله وخاب رجاؤه مرة اخرى

غير انه لما كان قوي العارضه صلب الفكر ومصرا على تنفيذ ما آربه كما سبق وذكرنا في الفصل السابق عمد الى تبوئ الكرسي البطريركي قوة واقتدارا ولم يبال باحتفال او رسامة من اساقفة فلبس لباس البطريركية واحتفل له اعوانه وسار الى كنيسة القديس سرجيوس لاقامة الصلاة وتادية الطقوس الدينية في حصن بابليون فاجتمع من الاقباط خلق كثير وصاروا يصخبون ويصيحون عليه ويهجونه اما هو فكان محترصاً لنفسه فلم يبال بصراخهم واتمّ صلوته وقراءة القداس وسائر الطقوس الدينية رغم الصياح الذي يصم الاذان حتى ان نفس اعوانه لم يكونوا قادرين ان يسمعوا صوت صلاته . فاهتاج لذلك الشعب القبطي في جميع الانحاء فآل الامر الى وقوع الاضطهاد عليهم لانه لما رأى قواد الجيش كثرة عدد الرهبان والاساقفة والشمامسة المنبثين في القطر الذين كانت تسترهم الصوامع والاديرة طمعوا في اذلالهم فقبضوا عليهم وساقوهم الى الاشغال الشاقة فسخروهم في بناء الاستحكامات والحصون في دمياط والمنصورة وخصوصا في الاولى منهما خوفا من وقوعها في يد الصليبيين وبعد ان قاموا بتلك الاشغال الشاقة اخبرهم الحكام المسلمون انهم سيأخذونهم الى المعسكر ويدخلونهم في الخندية فاحتج الاساقفة على ذلك واشتكوا الى الكامل

فقرض عليهم فدية معينة من المال نظير بدل عسكري . وعامل المسلمون رجال اكليروس الكنيسة اليونانية كما عاملوا الكنيسة القبطية . وكان الاقباط جميعاً في عرض الدلتا لا يعرفون لهم مخرجاً من تلك الورطة وشعروا بوقوعهم بين المطرقة والسندان اذا تأكدوا ان وجود الصليبيين في البلاد المصرية لم يعد عليهم بالفائدة المطلوبة لانهم كانوا يعتقدون مساعدتهم على المسلمين بصفتهم اخوانهم في العقيدة المسيحية . في حين أن الصليبيين كانوا يعتقدون فيهم المرطقة مادامو ا خارجين عن المذهب الكاثوليكي وليسوا تحت سلطة البابا وقد زاد التعصب الديني عند الاسلام على المسيحيين عموما لما شاهدوه من تأثير الغزو والفتح الذي قام به المسيحيون اللاتين وكانت عواقب ذلك كله واقعة على رؤوس الاقباط المساكين الذين كانوا دائماً عرضة لكل بلية فسواء كان الغالبون هم الصليبيين أو المسلمين فان للاقباط من كليهما نصيباً وافرا من الضيق والعذاب . وبلغ من عنف المسلمين يومئذ ان الجنود التي ارسلت لانقاذ دمياط من ايدي الصليبيين صارت تهدم كل كنيسة قبطية انتقاماً من النصارى عموما وقاسى الاقباط في داخلية البلاد اضطهادا شديدا . وكانت في الاسكندرية كنيسة قبطية عظيمة قديمة العهد باسم مار مرقس هدمها المسلمون عن اخرها خوفاً من أن يباغت الصليبيون مدينة الاسكندرية من أجلها ويتخذوها حصناً بسبب متانة بنائها وكثرة اعمدتها وبعد أن هدموها حولوها جامعاً ولا تزال اثارها باقية الى اليوم بقرب باب القباري .

ولكن مع اضطهاد الاسلام الاقباط فان سلطانهم الكامل كان يخفف ويلات ذلك الاضطهاد بما عرف عنه من الاخلاق الطيبة والاداب العالية وذلك جعل الاقباط يخلصون له ويستنجدونه وقت الشدة وبهذه السجايا السامية اكتسب أيضاً اخلاص ومحبة اخوته وأفراد عائلته وهو سر من أسرار نجاحه فان أولاد عمه واخوته لما علموا بشدة مضايقته اتوا اليه حالا من الشام بجيوشهم فعززوه وصيروه أقوى من الصليبيين بمراحل.

ولما كان الكامل ميالا للسلام ذكر الصليبيون وقت ماطلبوا الهدنة بعد واقعة المنصورة العظيمة بالشروط التي اقترحها عليهم أولا قبل سقوط دمياط في يدهم فاصروا على البقاء في مصر مالم يأخذوا ٣٠٠ الف دينار في نظير هدم الملك المعظم عيسى اخي الملك الكامل اسواريت المقدس فرفض الكامل ذلك الطلب لما انه هو القاهر الفائز وقتئذ فعاد الى مضايقتهم. ولما كان ذلك الوقت قرب زمن فيضان النيل اجتهد ان يحشد جيشه العظيم في اراض عالية حتى لاتغمر معسكره المياه

فلما ارتفع النيل وفاضت مياهه على الجسور ارسل الكامل سرية من جنوده ليلا في الخفاء من وراء معسكر الافرنج لتقطع سد ترعة المحلة التي كانوا معسكرين ورائها بالقرب من شاطئ النيل كما ذكرنا ولما قطع السد طغت مياه الترعة فاغرقت جميع الاراضي التي تفصل جيش الافرنج من دمياط واغرقت أيضاً جزءاً كبيرا من الارض المعسكر فيها جيشهم. فلما استيقظوا في الصباح رأوا انفسهم في وسط جزيرة وقد حال

الماء بينهم وبين مؤنتهم وذخائرهم ولم يبق لهم بارق امل في الحصول على نجدة تجيئهم من سوريا عن طريق دمياط. فخافوا سوء المصير وبأتوا يشكون قلة الطعام ودبت في جنودهم عوامل القحط والجوع. ولما رأى السلطان الكامل ذلك وانه لم يزل بينهم وبين دمياط معبر ضيق في وسط المياه امر عساكره باقامة جسر وعبروا عليه وملكوا تلك الطريق فحصر الافرنج في تلك الجزيرة فاضطربوا والتزموا في الحال أن يخابروه بقبول شروط الصلح. ولم يجسروا حينئذ على ذكر تعويض مالي او غير مالي لان مركزهم كان حرجاً بل رغبوا اليه ان يسمح لهم بطريق حتى يعبروا وينسحبوا من بلاده فقبل منهم السلطان الكامل شروطهم وكان ذلك في ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ غير انه اشترط عليهم أن يتركوا رهائن تضمن خروجهم بالكلية من القطر فترك له الصليبيون ملك عكا ونائب البابا وكذلك الملك الكامل أعطاهم ابنه الصالح وبعض الامراء

وبناء على ذلك الاتفاق امر الكامل بصنع جسر لعبورهم فعبروا وانسحبوا الى دمياط واخذوا ما كان لهم فيها وتركوها للمسلمين وكان ذلك يوم ١٩ رجب سنة ٦١٨ ونزلوا الى البحر قاصدين بلادهم وهكذا انسحب الصليبيون من مصر راضين من الغنيمة بالاياب وتركوا دمياط بعد ان جاهدوا في فتحها سنة ونصفاً وافنوا حول برجها بدر الاموال ومهج الرجال. وبعد مبارحتهم الشطوط المصرية بقليل اتتهم نجدة عظيمة بطريق البحر من اوروبا. فشكر الكامل تاخر تلك النجدة الى ذلك

الحين . ولما وصل الافرنج الى بلادهم ارسلوا الملك الصالح ومن معه الى ابيه فارسل لهم ايضاً رهائنهم . ودخل الملك الكامل دمياط مع اخوته في احتفال عظيم

وفرح الاقباط بانهزام الصليبيين فرحاً لا يوصف لانهم وجدوا ان معاملة المسلمين لهم افضل من معاملة اولئك غير ان هزيمتهم جاءت ضربة قاضية على امال الكنيسة اليونانية في مصر فصح في ذلك قولهم مصائب قوم عند قوم فوائد . اذ بقدر فرح الاقباط كان غم اليونان هكذا بالغاً . وكتب بطريركهم نقولا خطاباً عجيباً جداً للبابا هونوريوس في رومية بعد تسليم الصليبيين مدينة دمياط للمسلمين وانسحابهم من البلاد المصرية وانكر في كتابه وجود الكنيسه القبطية المصرية بالمرة واخبره ان جميع المسيحيين سكان القطر المصري كانوا مستعدين لتقديم واجبات الطاعة والخضوع للسدة البابوية وناتي هنا افادة للقراء على ترجمة ذلك الخطاب الغريب نقلاً عن نيل المؤرخ الفرنساوي قال —

الى قداسة الاب الاقدس الكلي الوقار والاحترام والسيد المعظم المعصوم من الزلات والخطايا بالنعمة الالهية والحبر الاعظم بابا البابلوات ورئيس رؤساء الكهنة الجالس على اريكة مار بولس الرسول بابا كنيسة رومية المقدسة من الاسقف العام نقولا الجالس بصفته بطريركا على ابرشية الاسكندرية بذات النعمة الالهية . الخاضع لسدتك الكهنوتية بكل فروض الوقار والاحترام التي تليق بقداستك

اما بعد . فان كل المطارنة والاساقفة والقسس ومشايخ الكنائس والكهنة والشماسة والرهبان والكتاب والعلمانيين اجمعين وبالجملة كل المسيحيين الساكنين بارض مصر يتضرعون مبتهلين الى ابويتكم وقداستكم الرسولية بكل تأوّه . وزفرات وانين وصراخ وعويل من تلك المظالم والاضطهادات الاسلامية

فان اتفق سقوط بناء أي كنيسة مسيحية لدى حادث ما لا نقدران نتجاسر على اعادة بنائها . وفي مدة الاربعة عشر سنة الماضية صار كل مسيحي في ارض مصر مكلفاً بتأدية الضرائب الاجبارية عن نفسه بزانتاً (١) واحداً واربعة عشر قيرينه فان كان فقيراً زجّ في السجن حتى يوفي الفلس الاخير . ويوجد كثيرون من المسيحين في هذه الديار يجمع منهم سلطان المسلمين ايرادا لايقل عن مائة الف بزانتاً ذهباً . وما عسى ان اكتب لقداستكم الطاهرة غير ما تقدم اكثر من ان المسيحيين جميعاً في هذه الديار يسخرون في الاشغال الشاقة وكل عمل

(١) البزانت هو قطعه من العملة الذهبية كانت شائعة في العصور الوسطي وهي عملة اسلامبوليه تساوي قيمتها ستين غرشاً مصرياً وكان يوجد قطعة اخرى قيمتها توازي جنيهاً مصرياً ويوجد ايضاً بزانت فضي تساوي قيمة مائة اربعة واربعين مليماً وكانت تلك النقود متداولة كثيرا باوربا كما يسميها اليونان . انما الذي يدفعه المسيحي في ضريبته التي يقول عنها نيل المؤرخ هي البزانت الفضي

(٢) القيرين نوع من النقود الاسلامبوليه الاسلامية كانت شائعة الاستعمال في مصر ويحتمل ان تكون نحاسية

غير لائق وانهم مساقون قهراً لكنس شوارع المدينة ؟ !

وقد صار معلوما لدى العالم المسيحي اجمع كيفية سقوط مدينة دمياط المخجل بايدي المسلمين وهو امر اظنه خطرا عليّ لو كتبته على ورقة وبينته بخطابات لسدتكم الرسولية اذ أن قراءة كلماته مؤلمة ومحزنة للغاية . فبعد أن عرفت هذا كله تحنن علينا وارأف بنا ياسيد . يا ايها الآب الروحاني المعظم يانائب المسيح على الارض . وكما ان القديسين جميعاً قبل مجيء السيد المسيح له المجد كانوا مشتاقين لرؤياه ومجيئه في عصرهم ليخلصهم من رق العبودية الابليسية ويفديهم ويحررهم من اسر الخطية ومن مات منهم قبل مجيئه انما مات على ذلك الرجاء كذلك نحن اولادك جميعاً منتظرون باشتياق شديد مجيء جلالة الامبراطور وليس نحن فقط الذين سنموت على رجاء ذلك المجيء بل وايضاً اكثر من عشرة الاف مسيحيين منفيين ومشتتين في جميع انحاء المملكة الاسلامية

ولا انسى أن اذكر لقداستكم الاجراآت التي يجب ان يتخذها سيدنا وامبراطورنا عند وصوله لبلاد مصر وهذه الاجراآت هي الطريق الوحيد الذي باتباعه يمكن لجلالة الامبراطور ان يخلصنا ويبقي على حيوتنا من الاعداء فنتجو بنعمة الله من كل خطر وهذ الطريقة هي : —

دع جلالة الامبراطور عند اقترابه من مياه الشطوط المصرية أنه يدخل بمراكبه وسفنه الحربية مهما كان عددها من فرع النيل الغربي عند النقطة المسماة بمدخل رشيد عوضاً عن ان يأتي من جهة الفرع الشرقي

عند دمياط . ويدخلون عند رشيد ويستمرون في سيرهم بنهر النيل حتى يصلوا الى جزيرة قائم عليها مدينة تدعي فوّة وبوصولهم الى تلك النقطة يكونون قد ضمنوا امتلاك ارض مصر باذن الله بدون ادني خذلان . ومما يحسن ذكره ان نهر النيل عميق ومتسع والجزيرة المذكورة فيها كل مايحتاج اليه الجيش الفاتح . وحامل هذا الخطاب هو احد من نثق بهم الثقة التامة ويعزز كلامنا هذا شهادته الشخصية لقداستكم . ولاني اعرفه رجلاً حازم الرأي عاقلاً فطناً بصيراً قد اخترته لهذه المهمة ولا يفوتني ان اذكر لقداستكم اعظم المصائب التي حلت بالمسيحيين في مصر . وهو انه قد هدمت مائة وخمسة عشر كنيسة اثناء حرب دمياط وقبل الختام اتوسل اليك ايها الآب الطوباوي ان تتنازل بالسماح لي بلثم موطئ قدميك !! .

ولا عجب بعد ذلك الجواب الغريب اذا اعلمنا التاريخ ان السلطان الكامل كان دائماً مرتاباً كثير الظنون نحو الكنيسة اليونانية المصرية ولذلك لم يسمح لهم ببناء الكنائس التي تهدمت اخيراً في الحروب الاهلية وكانوا دائماً تحت نير المذلة راضخين للجور اما الاقباط فسمح لهم ببناء جميع ماتهدم من كنائسهم وبممارسة عوائدهم وطقوسهم بكل حرية . يدلك على ذلك انه بعض الامراء قبض على بعض الرهبان وسلبهم ٤٠٠ بيزانتاً ذهبياً بدون وجه حق بدعوى انهم تأخروا عن دفع الجزية السنوية وكان هذا المبلغ هو كل ما يمتلكه الرهبان فشكوا الى الملك الكامل فنظر في مظلمتهم وامر بارجاع المال اليهم

ومما يذكر للكامل بالثناء انه رفض قبول كل رشوة قدمت اليه لاجل ترشيح داوود بطريركا . ومن حسناته أيضاً انه اعفى الرهبان من دفع الجزية الشخصية وقدزار بنفسه دير وادي النطرون وتفقد أحواله واحوال الرهبان فيه وزار أيضا دير القديس مقاريوس فوجد أحد كبار موظفي الاسلام سالكا به فامره بالترحال محافظة على احساسات الرهبان.

ولما زار ذينك الديرين كان الرهبان يتضرعون اليه بحرارة حتى يصرح لهم بانتخاب بطريرك ويظهرون له شدة احتياج الكنيسة لذلك . وأخبروه انه تخرج من دير القديس مقاريوس ثمانون راهبا رسمهم المرحوم البطريرك يوحنا السادس كهنة على عدة ابرشيات فلم يبق منهم على قيد الحياة سوى أربعة فقط واعلموه انهم يخدمون جميع الابرشيات مع انهم لم يزالوا رهبانا في حين ان في البلاد أساقفة كثيرين يستطيعون ان يعينوهم رعاة ويمنحوهم رتبة الكهنوت ويوزعونهم على تلك الابرشيات الخالية من الرعاة غير انهم فضلوا البقاء في الخدمة وهم رهبان حتى لايحرموا من سيامتهم كهنة رسميين بواسطة البطريرك الجديد لا بواسطة الاساقفة لانهم يعتبرون قيام البطريرك بتلك الخدمة مزية عظمى

فاجابهم السلطان الكامل بانه غير ملوم على ذلك التأخر وان ليس له أدنى علاقة بالظروف التعيسة التي حلت بكنيستهم وانه يود لو لقي منهم اتحاداً في انتخاب بطريرك ان يصادق عليه كما ويتنازل عن الرسوم التي اعتادت البطريركخانة ان تدفعها للحكومة عند تنصيب كل بطريرك جديد

والغالب ان الكامل كان أرق ملك رآه الاقباط في القرون الخوالي نظرا لما أبداه اليهم من الحنو والانعطاف . وان كل مسؤولية أدبية واقعة على ذلك الطامع الذي طمع فى الرتبة الكهنوتية بغير جدارة أو استحقاق وأعني به داود الذي بتطاوله الى الكرسي البطريركي أوجد الهياج والشغب الكثيرين وحط من كرامة الاقباط وأسقط مقام المسيحيين في عيون الاسلام في حين انه كان أولى بان يرفع في تلك الظروف الجميلة في حكم ذلك السلطان العادل ولكن أبت الاقدار الا وجود هذا الطاغية ليناضل ويقاوم حتى بقي الكرسي البطريركي خاليا ممن يجلس عليه وظل الاساقفة يموتون واحدا بعد آخر وتخلو أبرشياتهم ممن يحل فيها نظرا لعدم وجود بطريرك ينصب بدل المتوفين فكان ذلك موجباً لفرح داود لتناقص عدد خصومه

ولو كان المرحوم البطريرك يوحنا السادس أو غيره من سلفائه عائشاً في ذلك العصر الذهبي الجميل لرقي شؤون الاقباط وأوصلهم الى درجة من رغد العيش والرفاه يحسدون عليها بل كان سعى في اعادة بناء الكنيسة التي هدمتها يد الاضطهاد ولم يتوفق أحد الى تجديدها بل كان اتخذ ميل السلطان الكامل الى المسيحيين ذريعة لى تبشيره بالديانة المسيحية لان السلطان كان يحب الديانة المسيحية محبة شديدة

ومن الاسف انه لما طال الزمان على السلطان الكامل ولم ير من الاقباط الا داوود وفظائعه وأعماله القبيحة وفعال اتباعه الادنياء عيل

صبره الطويل مع الاقباط المنكودي الحظ وسقطت محبته الصادقة لهم من قلبه وفتر ميله الغريزي لديانتهم ونتج عن ذلك انه ندم على كرمه في اعفائه الرهبان من دفع الجزية الشخصية وحسب ذلك تبذيرا وشططا ورسخ في نفسه هذا الاعتقاد لما رأى ان مئات من الاقباط العلمانيين صارون يتشحون بلباس الرهبنة حتى يعفوا من الجزية في حين انهم لا يعرفون شيئاً عن الرهبنة فلما ساء ظن الكامل بهم أمر في غضبه بالبحث عن أولئك المخادعين وفرزهم من الرهبان الحقيقيين بدقة فأسرع رجاله الى ذلك واتخذوا هذا الامر وسيلة للايقاع بالاقباط فكانوا يسلبون الاموال من الرهبان عموماً ولم يميزوا بين الراهب الحقيقي من المتصنع وشاع ان الرهبان الحقيقيين تألموا كثيرا من تلك الفظائع وبالاجمال فان الثلاثين عاماً التي حكم فيها الكامل والاثنان اللذان تقدماه كانت سنى شؤم على الاقباط وخجل على ذوي الشعور منهم نظرا لما بدا لهم من الظروف الطيبة التي لم يغتنموها لتقوية نفوذهم

وكما اننا لا نقدر ان نعرف السبب الذي حدا بالكامل الى الانقلاب على الاقباط كذلك لا نقدر ان نعرف الداعي الذي جعله ان ينقم على اخوته في حين انه كان أحب الناس اليهم وقد لبث في مامضى ثمانية عشر عاما وهو معهم على صفاء عظيم ووداد لم يسبق له مثيل وقد كان كل منهم محباً لرعاياه سالكا بالعدل والانصاف فلم يظهر لهم ند في المعاملة الحسنة فيما تقدم من السلاطين ولطالما امدوه باجنادهم وأموالهم وأنجدوه

على الصليبيين بغير ان يطلب نجدتهم وبغير ان ينالوا منه عوضاً والغريب ان معظم ذلك الانقلاب أصاب شره الملك المعظم عيسى سلطان دمشق الذي لولاه لم تقم له قائمة في مصر كما رأى القارىء فيما تقدم من الكلام عند أوائل حكمه حيث نصره على الاعداء وأيده في مركزه

وبيان ذلك انه لما استتب الملك للكامل وأخمد الثورات والفتن طمع في أملاك اخوته فثار حربا على الملك المعظم عيسى سنة ١٢٣٥ م واغتنم فرصة ضعف الصليبيين فعقد معهم هدنة وأغرى فريدريك على اغتيال أخيه عيسى واستخلاص دمشق من يده فقدم هذا الامبراطور الى عكا وهنالك علم بوفاة عيسى وتنصيب ابنه الملك الناصر صلاح الدين فاستبشر الملك الكامل ووضع يده على مملكة أخيه فاستنجد الملك الناصر عمه الاشرف على عمه الكامل فجاء الاشرف بجيش جرار ولكنه لسبب غير معروف اتحد مع أخيه الكامل ونصره على ابن أخيه الناصر . اما فردريك فسار توا من عكا لافتتاح مملكة دمشق فبعد ان فتح صور التقى بالملك الاشرف فتخاصما على الغنيمة ثم مات الاشرف فخلا الجو لاخيه الملك الكامل وأصبح الوارث لكلتا المملكتين ونائباً لاخويه عيسى المعظم والاشرف

ولما كان الملك الكامل محتاجا الى المال أقدم على عمل ما كان أقسم ان لا يفعله فحنث بيمينه وقبل رجاء اعوان داوود وسمح لهم برسمه بطريركا على أيدي بعض الاساقفة القليلين الذين كانوا باقين وقتئذ على

قيد الحياة. وقد قبل هؤلاء الاساقفة القيام برسمه بعد ان هددهم أولئك الاعوان بالقتل لو رفضوا الطلب فقاموا بذلك تخلصاً من عذاب الاستشهاد . وبذلك انتصرت عصا داود الحديدية بعد دسائس عشرين سنة وسيم بطريركا ووقعت كنيسة آبائه فريسة في يده . وهكذا تغيرت أحوال الملك الكامل تغيراً فجائياً بدون علة ظاهرة والمظنون انه كان للمرض الذي مات به بعد ذلك بسنة تأثير كبير في ذلك الانقلاب فذهب مثقلا باحمال الخطية . وقد كان قبل مماته واقعاً تحت تأثير ذوي المفاسد والشرور الذين يحلو لهم المصائب بزرع الفتن والمفاسد والمظنون ان ثاني انجاله حمله على اتيان تلك الخطة المستهجنة التي اتبعها في أواخر أيامه . والحقيقة مجهولة من هذا القبيل ولا نعرف من أغراه على اتفاقه مع فردريك امبراطور الصليبيين لمصادرة أملاك أخيه الملك المعظم عيسى في سوريا وما كان من أمر وفاته سريعاً بعدئذ كما تقدم . ثم انه بعد وفاة أخويه وتسلطه على مملكتهما لم يسترح له بال بسبب وجود الملك الناصر ابن أخيه الملك المعظم لانه كان يخشى ان يستعين عليه بقوات حربية أجنبية ويسترجع ملك أبيه المغتصب أو يظل على اقلاق راحته فاتحد الملك الكامل مع أخ له آخر كان في أقليم مابين النهرين وهي البلاد الكائنه بين نهري دجلة والفرات على قتل ابن أخيه الصغير الملك الناصر ليخلو له الجو ويتربع على عرش مصر وسوريا . ولكن كانت تدابير العناية أقوى من تدابير الاخين

مات الكامل قبل ان يدرك مايتمناه لابن أخيه المسكين . وذلك انه لما عقد النية على ماتقدم وقام من مصر الى سوريا لهذا الغرض سنة ١٢٣٧ مسيحية وصل الى دمشق ومات فيها في خلال شهر رجب سنة ٦٣٥ هجرية ودفن في قلعتها . وكان محباً للعظمة والافتخار حازم الرأي حسن الاعتقاد محباً للفضيلة والعلم . وكان يصرف لياليه في المباحثة مع العلماء والفضلاء

ولما علم المصريون بوفاته بايعوا ابنه سيف الدين أبي بكر وهو ابنه البكر وكان له القاب كثيرة أشهرها لقاب الملك العادل «الثاني» وكأن أباه شعر بدنو أجله فاقامه على مصر قبل ذهابه الى سوريا لتدبير أمر قتل ابن اخيه الناصر

الفصل السابع والخمسون

البطريرك المرذول

سنة ١٢٣٧ مسيحية و٩٤٣ للشهدا و٦٣٤ للهجرة

ولما ترك الكامل مصر وسار الى سوريا لمحاربة اخوانه الابرياء كما تقدم ابتدأ البطريرك داود مشروعاته المرذولة فظلم الرعية وانحرف في السيرة ولم يكن فيهم من يقدر ان يناقشه الحساب ثم انتحل لقب كيرلس تشبها بكيرلس البطريرك العظيم لذي افاد الكنيسة فائدة جلى غير انه لم يشبهه الا في قوة الارادة فقط اما في غيرها من الاعمال الممدوحة فلا

وعند جلوسه على الكرسي البطريركي احتفل احتفالاً بهيجاً بذلك فاستاء المسلمون منه وفي باديء امره استمال الرأي العام بان رسم بعض الكهنة والشمامسة ولم يحصل منهم الرسوم المعتادة. وكانت الابرشيات في ذلك الحين خالية كلها تقريباً من الاساقفة فتصرف فيها ادرد (كيرلس) تصرفاً زاد عن حد المعقول لانه في وقت قصير باع اربعين ابرشية أي انه صار يعين لها اساقفة من الكهنة الذين يتسابقون في دفع المال فجمع من ذلك مبالغ وافرة زادته قوة بازاء شعبه الضعيف واعترض عليه اعيان الاقباط وبينوا له سوء مغبة هذا التصرف فكان اعتراضهم كصرخة في واد أو نفخة في رماد لان كيرلس أو هو داود اخبرهم انه مضطر الى جمع النقود لسداد المطلوب للحكومة جزاء تنصيبه بطريركاً وكان في تلك الايام راهب يقال له بطرس استاء من تصرفاته المغايرة ولم يطق السكوت على مظالمه وحاز به كثيرون من الرهبان واقروا على الانسحاب من الطائفة مادام ان لا طاقة لهم على اقناعه

ولكن لما كان احتجاج الشعب شديداً على السيمونية أي جمع الاموال بواسطة الرسوم الكهنوتية اضطر ان يعقد جلسة دعا اليها كبار رجال الاكليروس واعيان العلمانيين في كنيسة المعلقة واخبرهم ان جمع المال انما كان لايفاء الاموال الاميرية وصادف ذلك القول الوقت الذي جاء فيه خبر وفاة الملك الكامل بدمشق وقد حلف كيرلس لرجال الجلسة انه بعد ان يتم جمع المال للغرض المذكور سيمنع قطعياً امر (السيمونية)

وهي بيع الرتب الكهنوتية في المستقبل اذ لم يكن ثمت داع لجمع الاموال بهذه الطريقة

وثاني مشروعاته وان لم تكن مختصة ببيع الرتب الكهنوتية فانها تتضمن اعمال عسف ومظالم جسيمة لاشباع مطامعه الاشعبية ورغبته المحرقة في الحصول على الاصفر الرنان وقوة الحكم والسلطان

ومن اعماله الجائرة انه كان في مصر بعض اديرة كدير القديس مغاريوس في وادي النطرون معتبرة أديرة بطريركية محضة بمعنى انها تابعة رأساً ادارياً ودينيا للبطريرك ذاته وهو وحده الذي يعين لها الاساقفة ويمارس كل ما يلزم لها مادياً وأدبياً ويكون دخلها السنوي لمصروفه الخاص وبعبارة أخرى انها مقطوعة على البطاركة بصفة معاش من قديم الزمان ولكن بعض البطاركة المتأخرين حباً في راحة وهناء الكنيسة تنازلوا عن بعض ايرادات تلك الاديرة واقتصروا على أخذ ما يكفيهم فقط من الاموال الضرورية. وبخلاف ذلك فانه يوجد أيضاً كثير من الاديرة والصوامع موضوعة تحت تصرف الاسقف الذي يكون الدير واقعاً في دائرة ابرشيته

فأصدر البطريرك كيرلس منشوراً استبدادياً لجميع الابرشيات والكنائس قرر فيه ان كل الصوامع والاديرة التي في القطر المصري تعتبر من ذلك الحين بطريركية محضة وفي ذلك من الدهاء ما فيه لانه ضمن لنفسه أمرين عظيمين الاول جمع ايرادات تلك الاديرة لنفسه ليزداد بها

دخله ويعظم شأنه والثاني ليكون له حق السلطة العظمى عليها للغاية وقد أصدر أمراً آخر جعل به الايرادات الاسقفية أي الخاصة بالاساقفة تحت سلطته وادارته. وأمرا آخر يعطيه حق السلطة الادارية على كثير من كنائس الابرشيات التي كانت تحت سلطة الاساقفة فقط

وثالث مشروعاته انه لم يكتف باغتيال حقوق اساقفته مادياً وأدبياً بل طمحت أنظاره الى حقوق بطريرك انطاكية ومن ذلك يظهر انه كان طموحاً الى الاستبداد في الحكم كما كان باباوات رومية في القرون الوسطى اذ انه أراد ان يجعل كرسي الكرازة المرقسية حراً من كل مراقبة. ومما جعله يطمح الى التعدي على حقوق كرسي انطاكية حجته بوجود كثيرمن الاقباط المصريين يقطنون بلاد سوريا وهؤلاء لايفهمون لغة الاسقف السوري باورشليم وقت الصلاة (وهو تحت سلطة بطريرك انطاكيه) فتعلل بذلك وكتب للبطريرك المذكور يقول له انه ولو ان اسقفه الاورشليمي من القائلين بطبيعة واحدة للمسيح وهو معتقد الاقباط المصريين الا ان اختلاف الفهم نظراً لاختلاف لهجة اللغة توجد ارتباكاً في الفرائض الدينية

وبناء على ذلك رسم البطريرك كيرلس في مصر مطرانا لاورشليم تابعاً للكرسي المرقسي وارسله حالاً اليها فاعترض الاساقفة والكهنة في مصر على البطريرك اعتراضاً شديدا على هذا الصنيع وعدوه انشقاقاً من كنيسة انطاكية المتفقة معهم في المعتقد فلم يلتفت الى اعتراضهم

لكنهم نجحوا في حمله على ارسال مندوب الى بطريرك انطاكية الذي كان مقيماً وقتئذ في اورشليم يطلب اليه الاعتراف بالمطران الجديد الذي ارسله . فلما وصل المندوب الى اغناطيوس البطريرك الانطاكي وسأله قبوله رفض رفضاً باتاً غير انه لم يحتد ولم تظهر عليه علامات الدهشة ولم يتفوه بما يكدر خاطر المندوب المصري فرجع الى كيرلس واخبره بما كان فاصر هذا على تنفيذ قراره فاستاء اغناطيوس من ذلك العناد وتكدرت عواطفه واصدر حروماً ضد ذلك المطران الدخيل وقطعه وطرده من كنيسة اورشليم فاضطر ان يلتجيء الى اكليروس اللاتين بتلك المدينة الذين يعلمون ان صالحهم المادي والديني يقوم بوجود ذلك الانشقاق فقبلوه وبسطوا حمايتهم عليه

والتزم اغناطيوس ان يقابل الشر بمثله وقصد اغاظة كيرلس البطريرك الاسكندري فعين مطراناً من قبله لكنيسة الحبشة التابعة لسلطان الكنيسة القبطية المصرية وكان المطران الذي رسمه اغناطيوس حبشي الجنس مولوداً في بلاد الاحباش ولم يفصح لنا التاريخ عما اذا كان ذلك المطران تمكن من القيام برغائب اغناطيوس في الحبشة ام لا

وكانت اعمال كيرلس المذكورة كلها تقع موقع الاستغراب لدى السلطان الكامل قبل موته فاستهان به وجعله العوبة لطيفة حتى انه نظير تهمة زهيدة تافهة القى القبض عليه وسجنه فالتزم كيرلس ان يدفع الف وخمسمائة قطعة ذهبية من الاموال التي جمعها بطرق غير شرعية ليخلص

من السجن . وكانت هذه الحادثة اخر ماحدث له من السلطان الكامل اذ توفى بعدئذ بقليل في سوريا كما تقدم فلما تولي ابنه الملك العادل (الثاني) على الديار المصرية نجح كيرلس في سياسته واستمال الملك الجديد اليه واكتسب صداقته وحمايته له بالرشوة دون صداقة وحماية اخوي الملك العادل الثاني اللذين اغتصبا عرش اخيهما بعد حكمه بسنتين كما سيجيء

وبقي كيرلس بعدئذ ثمانية سنوات على كنيسته بمساعدة اصحابه الاسلام مزدريا ومحتقراً كل اشراف وأعيان شعبه من علمانيين وأساقفة ممن كانوا لا يفتأون يدبرون التدابير اللازمة لردعه والحجر عليه منعاً لخراب الكنيسة مع أن أغلبهم لم يحصل على تلك الرتبة الكهنوتية الا بخبثه ولم يكن كيرلس معروفاً لدى عيون شعبه كمن سلفه من البطاركة لانه لم يسكن في الكتدرائية الكبرى في حصن بابليون نظيرهم بل سكن في الاسكندرية ولما توالت شكوى الاقباط عليه اضطر ان يأتي الى مصر ويقابل اساقفته في منزل محافظ العاصمة الذي استجار به الاساقفة واذ كان المحافظ صديقاً حميماً لكيرلس فلما حضر وابتدأ وا يسردون مظالمهم لدى المحافظ وطلبوا اليه ايضاً أن يخلعه حفظاً لما بقى من نظام وناموس كنيستهم ودينهم ولما كان المحافظ قد ارتشى من الطرفين لم يبت في أمر غير أن طلب العدل أدهشه واذ كان صديقاً للبطريرك كما اسلفنا عضده وحامي عنه فأجاب البطريرك ولو اني أعرف أنه لم يسبق في تاريخ البطاركة من عهد ماري مرقس الرسول الى الآن أنه يسوغ

للاساقفة أن يخلعوا البطريرك عن(١) كرسيه لاي علة كانت سيما لمثل تلك التهم الباطلة التي يسردونها ومع كل ذلك فان كانوا في شدة الضيق من معاملتي فالقانون الكنائسي أمامهم فليأخذوه ويبحثوا فيه عما يريحهم أو يسنوا لهم قانوناً يوافق أغراضهم .

وكانت طلبات الاساقفة في تلك الجلسة القضائية معتدلة ومعقولة وهي أولاً — ابطال السيمونية أي بيع الرتب الكهنوتية ومنعها قطعياً. وقد صدر هذا الطلب من أساقفة كانوا هم السبب في ايجادها لانهم دفعوا أموالاً كثيرة للبطريرك حتى رفعهم من كهنة الى أساقفة فهم الذين استعملوا تلك السيمونية القبيحة وقاموا الآن ينادون بابطالها ثانياً الزام البطريرك كيرلس باحترام حقوق البطريرك الانطاكي بارشليم . ثالثاً — حصر سلطة المطران الذي تعين حديثاً لسوريا لغاية حدود غزة فقط — ورابعاً شلح بعض رجال الاكليروس الذين رقاهم البطريرك بدون جدارة واستحقاق على خلاف القانون الكنائسي . خامساً — أنه لا ينبغي للبطريرك تقليد بدع الكنيسة الملكية اليونانية . سادساً — أن يتعين أحد كبار الاساقفة ليكون سكرتيراً للبطريرك ومحاسباً أي مستشاراً له في تصرفاته.

فكان كيرلس يسمع تلك المطالب ويصغي اليها ولكنه لم يجب

(١) يقصد الاساقفة بتلك البدع أن البطريرك كيرلس قلد عوائد الكنيسة الملكية اليونانية في أمر الاعتراف السمعي واستعمله في كنيسته القبطية بعد أن بطلت تلك العادة من زمن مديد

أساقفة المجلس على واحد منها بل رفضها جميعها ووعدهم أنه سيعقد لذلك مجمعاً مقدساً رسمياً وينظر فيها لانها مختصة بالملة ولا دخل للمحافظ أو الحكومة فيها . فصادق على قوله المحافظ وارفضت الجلسة

وبعد ذلك صار الاساقفة يطلبون منه عقد ذلك المجمع حسب وعده وهو يعد ويماطل ومن ثم أخذ يرشو الحكام المسلمين حتى رفت زعيم الحركة الاصلاحية وسجنه وكان ذلك الزعيم راهباً يقال له حامد فلما سجن خمدت نار الحركة واستراح كيرلس من مشاغلة الاساقفة له ولكن أعماله المذمومة زادت عن الحد وأخيراً اجتمع أربعة عشر أسقفاً يداً واحدة سنة ١٢٣٩ واعترضوا على تلك الفعال والتصرفات الذميمة التي وصلت بالكنيسة الى أسفل دركات الهوان وبعد مداولات شديدة بينه وبينهم اضطروه الى عقد مجلس مقدس في كاتدرائية المعلقة للنظر في مطالب الاصلاح . فصرح لهم بعقد المجمع فاجتمع الاساقفة في الكنيسة وأقروا على جملة امور عظيمة بشأن اصلاح الكنيسة وكانت تلك القرارات أشبه بقانون كنائسي عظيم وبعد أن وفوه حقه من التنقيح والتحوير قدموه الى البطريرك ليوقع عليه ليكون قانوناً يرجع اليه وكتابا يحفظ في الكنيسة عليه يتضمن الامور التي ينبغي الجري عليها والاقرار بطبيعة واحدة للمسيح وقد استخرج نيبل المؤرخ الفرنساوي خلاصة ذلك الكتاب في تاريخه نذكرها هنا للقراء —

من الآن فصاعداً لا يجوز ترقية أحد رجال الاكليرس الى وظيفة

أسقف دون أن يكون حائز الصفات الشخصية التي توهله لتلك الوظيفة ودون أن يكون حائزا الكفائة العلمية التامة ودون رضاء الشعب والرأي العام عنه وبدون انتخاب قانوني

«٢» وان سيامة القس وترقية الاساقفة يتم بواسطة البطريرك مجاناً أي بدون مقابل تقدي لذلك العمل «٣» وانه محظور على القضاة الاكليريكيين قطعياً قبول الهدايا لاية علة كانت ومن يتجارى منهم على مخالفة ذلك يجزاؤه الحرم والقطع من الكنيسة «٤» وانه يلزم تعيين لجنة من الاساقفة ذوي الخبرة والدراية التامة لمساعدة البطريرك في عمل مختصر للقوانين الكنائسية وخصوصاً المختصة منها بالعشاء الرباني والزيجة والوصايا «٥» وانه يلزم نشر وتوزيع نسخ ذلك القرار في جميع انحاء القطر المصري وان كل القضايا الاكليريكية تحل في المستقبل طبقاً لهذا القرار «٦» يلزم عقد مجمع مقدس من الاساقفة سنوياً في الاسبوع الثالث بعد عيد العنصرة «عيد الخماسين» «٧» وان التقاليد المختصة بالكنيسة القبطية يجب المحافظة عليها بكل دقة «٨» وان الختان يلزم اجراؤه قبل العماد الا في حالة الضرورة القصوى التي توجب تأخيره بعد العماد . «٩» وانه لا يلزم ترقية من كان أسيرا أو رقيقاً الى درجة الكهنوت ويستثنى من ذلك اثيوبيا «الحبشة» والنوبة «السودان» فان هذه المادة تخفف فيهما اكراما لخاطر الذين يستحقون الترشيح لدرجة الكهنوت . «١٠» وان أولاد الامهات الغير متوجات ممنوع ترقيتهم ونسلهم أيضاً لدرجة

الكهنوت بل يستمرون علمانيين . (١١) وانه يلزم بقاء مطران دمياط في منصبه . (١٢) لا يصرح للبطريرك ولا لاي كان من اساقفته ان يرسم احداً لدرجة كهنوتية خارج حدود ابرشيته . (١٣) وانه لا يحرم البطريرك احد المؤمنين في ابرشية غير تابعة له اداريا قبل ان يحذره وينصحه بواسطة اسقف تلك الابرشية الذي لم ير فائدة من النصح والارشاد فهو وحده الذي ينطق بحرمه وقطعه فان رفض الاسقف اجراء ذلك فللبطريرك الحق في اجراء ما تخوله له سلطته معه

(١٤) هذه القاعدة مرعية الاجراء في الحل كما هي في الحروم (١٥) وان الكنائس البطريركية التي اخذ البطريرك ادارتها يلزم ان ترد ثانيا الى اساقفة ابرشياتها . (١٦) وان ضرائب الصوامع والاديرة التي يدفعها الرهبان للبطريرك يلزم ان تكون بطرق عادلة غير جائرة ولا يعتريها شيء من الاعتساف — ١٧ — لا يجوز للبطريرك ان يجبر اسقفا على رسم من يكون لائقاً لدرجة الكهنوت بدون ارادة ذلك الفرد . — ١٨ — ليس للبطريرك حق في المطالبة بالهدايا والنذور التي يقدمها الشعب للكنائس المختلفة التي في دائرة ابرشيته في الاعياد والمواسم . ما لم يكن ذلك برضا اسقف الابرشية قبل تكريسه تلك الهدايا والنذور واستبدالها بالمعاش (الرغب) المعتاد ارساله لابرشية الاسكندرية — ١٩ — لا يلزم قبول شكوى من الرهبان على بعضهم بكثرة وان الذي ينظر في تلك الشكاوي والدعاوي ويحكم فيها ينبغي ان يكون من غير العلمانيين . — ٢٠ — لا يلزم

حرم أي اسقف كان لعلة بسيطة أو قبل انه يرسل له ثلاث انذارات من البطريرك نفسه مصحوبة بالنصح والارشاد الاول والثاني يكونان رسمياً بالكتابة والثالث شفاهياً . (٢١) ينبغي اعتبار رؤساء الاديرة رؤساء كهنة فيسمح لاي منهم ان ينطق بالحل للكاهن الذي يكون قائماً بالخدمة في الكنيسة وان كان اقل منه مرتبة ومصرح له ان يتناول العشاء الرباني حالا وراء الكاهن الذي قدسه على المذبح . (٢٢) ممنوع قطعياً على كل مؤمن تابع للكنيسة المصرية القبطية الوطنية أن يحضر الخدمة الربانية في الاعياد في كنيسة خارج ابرشيته والا عرض نفسه لعقاب الحروم .

وبعد ان قرأ كيرلس القانون المذكور رفض ان يوقع عليه باسمه وكلل بعلل لم ترق في عيون الاساقفة الذين اتحدوا عليه وصاروا يعارضونه بثبات غريب واخيرا هددوه قائلين انه ان لم يوقع على القرار يلتزمون ان يمتنعوا عن تناول القربان المقدس معه فلما راهم مصرين على ذلك اضطر ان يمضي على ذلك القانون وعلى ذلك عملوا (١) مختصراً للقوانين الكنائسية كما قالوا ووزعوه كما ارادوا على كل الابروشيات وهو عبارة عن كتيب لطيف يحتوي على تسعة عشر قسما في خمسة فصول . قسم منها مخصص للعماد وسبعة اقسام للزيجة وقسم للوصايا وثمانية لتقسيم الميراث واثنان

(١) ان الذي عمل ذلك المختصر للقوانين الكنائسية هو رجل قبطي لاهوتي عظيم اسمه صافي الفضيل الملقب بابن العسال

للكهنوت .

وبعد انعقاد ذلك المجمع المقدس بقليل انتهت سلطة الملك العادل الثاني على مصر اذ اغتصب اخوه منه الخلافة . وذلك انه لما بايع الاسلام الملك العادل (الثاني على مصر بعد ابيه الملك الكامل اقاموا من يدعي الامير يونس المعروف بالملك الجواد اميراً على سوريا وكان الملك الصالح شقيق الملك العادل (الثاني) اميرا على مابين النهرين فلكي يختلس ملك مصر من اخيه تبادل الامارة مع الامير يونس فهذا اخذ امارة مابين النهرين واتى الملك الصالح بذلك اميراً على سوريا فلما شعر الملك العادل بذلك أوجس خيفة من اخيه فسار بجيشه على امل ان يصده في الطريق فما تم الى ان وصل بلبيس حتى رأى نفسه مقيداً في قبضة امرائه فخلعوه عن الخلافة وكان ذلك يوم الجمعة ٨ ذي الحجه سنة ٦٣٧ هـ بدسائس اخيه الملك الصالح الذي استقدموه بعد ئذ اميراً على مصر وبايعوه بالخلافة فدخل القاهرة في موكب عظيم بين اصوات الترحاب والتهليل والدعاء وبذلك انتهت سلطة الملك العادل (الثاني) وكانت مدة خلافته سنتين فقط

وفي اثناء ذلك ثار بعض رعاع الاسلام بوقاحتهم المعتادة وحصلت فوضى في الاحكام وكان للاقباط الحظ الاوفر من مصائب تلك الثورة اما كيرلس بطريركهم فاتخذ تلك الثورة فرصة سانحة واجتهد بان حاز رضا الملك الصالح مختلس ملك اخيه وصار يتحبب اليه حتى

استماله وعلى اثر ذلك حنث بكل يمين وقسم كان قد حلفه نحو اصلاح الكنيسة ونكث عهوده بالمرة مع الشعب والاكليروس وعاد الى سابق فعاله المعيبة وخصاله الذميمة ولم يجد من يصده . ولو كانت فعاله قاصرة على طمعه الاشعبي في جمع المال أو الطموح الى العظمة لهان ولكنه عمل مفاسد ومظالم متنوعة حتى ان رجال الحكومة شرعوا في ايقاعه تحت سلطة القانون لمحاكمته كباقي افراد الرعية . ولكن لم يتحد اسقفان في شهادة واحدة ضده امام المحكمة الاسلامية كما وانه لم يعترف أي احد من الاساقفة بحق الحكومة في التسلط على البطريرك والقضاء عليه وقالوا ان ذلك من اختصاصاتهم مع شعبهم وحدهم . وبعد ئذ عقدوا مجلساً فيما بينهم بحضور كبار واعيان الشعب القبطي واقروا على ان يطلبوا من البطريرك مرة اخرى ان يلاحظ شرائع وناموس الكنيسة ويقوم بتأدية الاصلاح الذي وعد به ولم يتم فاجابهم كيرلس بالازدراء والاحتقار المر وفي الحقيقة كانت جميع مراكز رجال الاكليروس الذين رقاهم الى درجات اعلى مما كانوا فيها بواسطة المال لاتطاق لما اعتراها من فساد النظام لانه بالنسبة لما ظهر وشاع من سوء سلوكه وتصرفه قد اعتراهم الخجل الشديد مما شاع عليهم ايضاً ولم يعد في وسعهم ان يرشوه مرة اخرى لنوال منصب ديني ارفع غير ان واحداً من العلمانيين حملته الغيرة على اصلاح كنيسته فاجتهد مع البطريرك حتى اقنعه ان يوقع على قانون اصلاح اخر من مآله تعيين كاهن طاهر الذمة اميناً لحصر وضبط ايرادات الكنيسة

والاوقاف التي كان البطريرك يحصلها ويصرفها لمنافعه الخصوصية والزمه ايضاً ان يرسم اسقفين لابرشيتين بدون اخذ رسوم وكان كيرلس تاركا هذين المركزين خاليين حتى يرسم عليهما من يدفع له الرسوم ويحصر حق رسامة الاساقفة لنفسه . والزامه ايضاً بتعيين ناظرين لمدرستي القاهرة وبابليون . وان يصرح للاديرة بالبقاء تحت سلطة الاساقفة الذين تكون الاديرة في دائرة ابرشيتهم

ولما عرض ذلك المصلح القانون المذكور على المجمع الاكليركي لم يصادقوا عليه نظرا لعدم احتوائه على مايضمن الاصلاح الحقيقي وارفضت الجلسة ولم تتوفق الى نتيجة مرضية وفي سنة ١٢٤٠ مسيحية استاء احد اصحاب كيرلس وتضجر جداً من بخله عليه فخان عهده معه ووشى به الى أمير القاهرة (اشبه بالمحافظ بالان) فقبض ذلك الامير عليه والقاه في السجن واجتهد ايضاً ان يجعل اساقفته يشهدون عليه او يقيموا البراهين على المتهم التي نسبت اليه فابي اولئك الاساقفة ذلك . ولكنهم عقدوا جلسة مع الامير ليتداولوا سراً في امره وكان وقتئذ الملك الصالح مشغولاً في حروبه باسيا . وبعد المداولة اقر تسعة منهم بصحة التهم المنسوبة للبطريرك . ولكنهم قبل أن يطلبوا محاكمته عرضوا عليه أن يسامحوه عن خطاياه ويحلوه منها بشرط ان يوقع على شروط اصلاح كالتي امضاها السنة الماضية فالتزم كيرلس بقبول هذا الشرط ووقع على قانون الاصلاح ونجا من الشر الذي كان محدقاً به ولكنه سار في الخطة التي كان سائراً فيها

اولاً بالضبط فضاق ذرع الاساقفة من ذلك السلوك المقوت وعيل صبرهم من كثرة وعده باصلاح حاله واستقامة سيرته وعدم قيامه بوعده فالتزم الاساقفة ان يجتمعوا سنة ١٢٤١ مسيحية واقروا على خلعه من الكرسي البطريركي ورفع العار عن كنيستهم واخطروا امير القاهرة بذلك فقال لهم الامير وكان يحب الاقباط حباً كثيراً وهل خلع البطريرك جائز في شرائعكم فاعترفوا له انه غير جائز الا برضى البطريرك نفسه واقراره على قبوله طوعاً واختياراً وانه لا يجوز انعقاد مجمع مقدس للاقرار على خلعه بدون ان يكون البطريرك رئيساً لذلك المجمع ثم قالوا للامير انه حصل مايعائل ذلك مع احد باباوات رومية اذ كان غير حسن السيرة والسلوك فالتزم كطلب اساقفته ان يعقد مجمعاً منهم واشترك معهم في الحكم على نفسه بالعزل من الكرسي البابوي ولكننا لانعتقد البتة بان كيرلس يتشبه بخوة بابا روميه ويحكم على نفسه بالخلع من ذلك المنصب الذي صرف نحو ثلاثين سنة يدس الدسائس ويرشو بالدراهم ويبذل النفس في الحصول عليه وحينئذ شرع الامير يخاطب السلطان الصالح في شانه ففرضت عليه الحكومة غرامة مالية رايية تاديباً له . ولكن بما ان الملتوي ملتو ولا يلين الغصن اذا صار خشبا بقي كيرلس على غوايته واعماله الشريرة وكانت كل نتائج تلك الفعال الذميمة لاتقع الا على رأس شعبه المسكين . ولكن زالت العناية الالهية الا ان ترحم ذلك الشعب البائس بعد ذلك الشقاء العظيم فاستلم الله روح كيرلس البطريرك المرذول ومات في شهر فبراير سنة ١٢٤٣

مسيحية وراح غير مأسوف عليه فتنفس الاقباط الصعداء وكانت استهم جميعاً تلهج بالشكر لله على خلاصهم منه

ويصعب على الكاتب ان يأتي على وصف مقدار الضرر الذي اصاب الكنيسة القبطية من داود سواء كان في مدة العشرين سنة التي قضاها في الدسائس والرشوة لينال الكرسي البابوي بلا استحقاق وتسبب في ترك الكنيسة بدون بطريرك طول هذه المدة أو بعد ان ارتقى الكرسي الذي تصبو اليه نفسه وصار بطريركا وحكم الكنيسة مدة ثمانيه سنوات سامها في خلالها صنوف المذلة والاحتقار واوصلها الى اسفل الدركات ورماها في اوطاء حفرة من الذل والعار وصارت موضع سخرية واحتقار في عيون المسلمين وذلك بعد ان نهب مالها بكلتا يديه . وكانت الاساقفة في عراك وخصام دائمين معه في القاهرة على الاهمال العظيم والشرور المختلفة التي بارتشياتهم . وصار لقب البطريرك الذي كان في السنة المصريين الحقيقيين والاقباط المستقيمين موضع المهابة والوقار مضغة في الافواه وكيفما كانت غلطات البطاركة الذين تقدموه فان اعمال هذه السلسلة العظيمة من بعد ماري مرقص الى يوحنا السادس واعمال اساقفتهم كانت مشابهة لاعمال الملوك العظام . فاصبح اسم البطريرك من ايام داود المسمي كيرلس فصاعداً لايذكر الامصحوباً بالهزء والاحتقار والخيانة . ولسؤ حظ الكنيسة القبطية انه من بعد ايام البطريرك بنيامين لغاية يوحنا السادس لم يتمتع احد البطاركة بالحرية التامة التي تمكن من خدمة كنيسة المسيح مادياً

وادبياً وترقية شؤونها كما في ايام الحرية العظيمة والسلام التام الذي كان على يد كيرلس (داود) الذي خلف يوحنا السادس على عهد السلطان الكامل ولو كان الاقباط وقتئذ ذوي طالع سعيد لكان وجد من يصلح ان يكون بطريركاً حقيقياً مخلصاً يرفع كنيسته وشعبه الى ذرى المجد بمساعدة ذلك الملك الذي كان يعالج المسيحيين ويعضدهم

ولم يقم احد من عهد ماري مرقص البشير من البطاركة على الكنيسة القبطية وعكف على الاهمال وعدم المبالاة بالرعية بهذه الصورة حتي عرض نفسه للانتقاد نظير داود الذي حط من مقامه ومن سمعة الكنيسة ولم نسمع في اشد ازمنة الاضطهاد واقساها ان اسقفا قبطياً اعتنق الديانة المحمدية كما سمعنا في ايام داود . الاماروا ه التاريخ في زمن كيرلس الثالث حينما كانت حالة الكنيسة غير مرضية . حتى انه مع سماح الحكام للمسيحيين بالعيشة بالسلام اعتنق ذلك الاسقف المغرور الديانة الاسلامية

مات كيرلس (داود) وترك الكنيسة في حالة فوضى شديدة مختلة الاحكام فاسدة النظام حتى لم يعد في وسع الشعب مساعدة الاساقفة على اتخاذ الوسائل اللازمة لانتخاب بطريرك جديد فظل الكرسي البطريركي خالياً سبعة اعوام كاملة ممن يجلس عليه كان الاساقفة في خلالها يديرون شؤون الكنيسة كل في ابرشيته . ويتبين من شواهد عديدة ان الاقباط انما سكتوا كل تلك المدة الطويلة عن انتخاب خلف للبطريرك المتوفي واتحد معهم الاساقفة على هذا السكوت انتظاراً لوفاة اثنين من

اعوان كيرلس لرداءة اخلاقهما . وذلك كي يستريحوا من المظالم ويقوموا الى انتخاب رجل عظيم يصلح للكرسي البطريركي فيعيد ما أفسدته ايدي داود وكانت البلاد المصرية جميعاً في ذلك العصر على احسن حال في سلام تام . ولكي نظهر الفرق العظيم بين زمن الخصام والحرب والحالة الوسطى بينهما نأتي هنا على خلاصة ما قاله ابن سعيد — ١ — الرحالة المغربي الشهير عن حالة مصر في زمن السلم عند زيارته لها بين سنة ١٢٤٠ وسنة ١٢٤٩ مسيحية حيث قال — ولما كنت مقيما في مدينة القاهرة تاقت نفسي الى رؤية مدينة الفسطاط فزرتها مع صديق رقيق الجانب فلما بدأنا المسير رأيت عند باب زويلة عدداً كثيراً من الحمير المعدة لركوب الذين يقصدون زيارة الفسطاط ولم يسبق لي رؤية حمير كثيرة بهذا المقدار . ثم ركب مرشدي الذي أشرت اليه حماراً وأشار عليّ بركوب آخر مثله . فلما ركبته شعرت بخجل لعدم تعودي على ذلك وليست هذه الطريقة من ضمن عوائدنا التي ببلاد المغرب فأخبرني صاحبي أن ركوب الحمير ليس عيباً ولا عاراً على الذوات والأعيان . وقد وثقت بكلام المرشد لما لاحظت ان الفقهاء وباقي الذوات والمتشحين بالملابس الثمينة وأصحاب المناصب العالية يفعلون كذلك — فركبت وبعد أن جلست بلطف على ظهر الحمار همز الولد الحمار حماره فأسرع بي ركضاً فأثار غبار الارض على وجهي حتى كاد يتلف

(١) أخذنا ترجمة ابن سعيد من تأليف جناب كوربت بك

بصري وبلوث ملابسي فقاسيت تعباً هائلاً . ومن جهلي بركوب الحمير وعدم تعودي على ذلك قاسيت من التعب أشده فنزلت عنه وأثرت المشي على الركوب وحاسبت الحمّار على اجرته وقلت له — كل ما اريده منك أن تسمح لي بالمشي باقي المسافة على قدمي فأخذ اجرته وانصرف عني ومشيت أنا وحدي حتى وصلت الفسطاط فاذا بالمسافة بينها وبين القاهرة تبلغ ميلين . ولما اقتربت من المدينة اعتراني الحزن والكآبة . اذ رأيت أسواراً مسودة وخرائب متشتتة وحفراً كثيرة التراب والانقار وحارات متفرقة على جانبيها منازل حقيرة مبنية بالطوب الاسود (هو الطوب النيء) وكثيراً من شجر الغاب وجزوع النخل طبقات بعضها فوق بعضها وحول الابواب تراب كثيف يؤلم الزائر فظللت ماشياً وانا اتعثر مما اجد وزادني ضيقاً زحام الناس وكثرة البضائع وقرب المياه المحمولة على ظهور الجمال ولم يعد في امكاني ان احتمل اكثر وما زلت سائراً حتى بلغت الجامع فلاحظت ان أمر ضيق الشوارع المحاطة به بضد ما تكلمت به عن حالة جامع اشبيليا (في اسبانيا) والجامع المراكشي في مراكش فدخلت ذلك الجامع (١) وهو الشهير في المدينة فرأيته جامعاً عظيماً وحجارته منقوشة ومبنية على النسق العربي القديم وليس فيه حلية ولا زخرف ولا نقوش في الحصر التي تكسو جزءاً من اسواره وتفرش ارضه ورأيت الناس رجالاً ونساءً على السواء يمرون

(١) هو جامع عمرو بن العاص

عليها ويدوسونها باقدامهم ويعبرون عليها من باب الى آخر اختصاراً طريق المقصود . والباعة يبيعون في ساحته كل أنواع النقل والمكسرات كالبندق واللوز والجوز وغيره وكذلك باعة الفطير والبسكويت والناس تشتري منهم في وسط الجامع غير مراعين له حرمة لما تأصل فيهم من ردىء العادات ثم رأيت كثيراً من الاولاد يحومون كالجراد في كل أطراف الجامع وفي يدهم قلل مياه يسقون منها الذين يأكلون نظير اخذ شيء بسيط يسدون به جوعهم . ورأيت بقايا الطعام وفضلاته متناثرة في صحن الجامع وزواياه كأن الذين يأكلون يكسلون عن تنظيف موضعهم ثم رفعت نظري الى فوق فرأيت العنكبوت يغشى سقف الجامع وزواياه وحيطانه جميعها ورأيت الاطفال يلعبون ويمرحون في ساحته كانه ميدان ألعاب وعلى الحيطان كتابات ونقوش بالفحم والبوية سطرتها أيدي الجهلة والعوام . ومع كل ذلك التشويه فان الجامع فخيم البناء حسن المنظر لا يتمالك كل من رآه عن الشهادة بعظمته وهو مما لا يشابهه فيه جامع اشبيليا (في اسبانيا) مع ان في وسط هذا الاخير حديقة لم توجد في جامع عمرو لان الناظر الى جامع عمر يشعر بمهابة ووقار عظيمين لا يمكن التعبير عنهما . والنفس لا تتأثر الا من أثر الفخامة الظاهر الذي يبعثه مغناطيس النظر المتصل بخلايا العقل المتحدة بالحواس النفسية والنظر لا يتأثر مغناطيسياً الا باعجابه بالغرائب . ولكني عرفت بعدئذ ان سر ذلك التأثير النفساني هو لان الصحابة قدس الله سرهم وقفوا في ساحته

اثناء بنائه وقد سررت كثيرا لما رأيت عليه دوائر كثيرة متفرقة في جوانبه وكثيرا من جماعة المطالعين ملتفين حول المشايخ الذين يدرسون القرآن الشريف وأصول الدين الاسلامي الحنيف مع نحو وصرف اللغة العربية وزاد سروري لما علمت ان كل استاذ منفرد بتلامذته الملتفين حوله كالتفاف السوار على المعصم في نقطة متباعدة عن الاستاذ الآخر . وهكذا رأيتهم اكواماً اكواماً في صحن الجامع ثم سألت عن مصدر اجور أولئك الاساتذة ومنبع معيشتهم فقيل لي ان ذلك يأتي من الصدقات الخيرية والتكايا وغير ذلك . ولكن قيل لي ايضاً ان جمع تلك الصدقات صعب جداً ولا يتم الا بعد كل تأثير عظيم من أئمة الدين على عقول المتصدقين

ثم خرجت مع رفيقي من الجامع ووصلنا الى شاطىء النيل فرأيت رصيفه وهو مرفأ القسطاط قذراً وسخاً يعلوه الغبار وليس عليه أثر من النظافة بالمرة وليس طويلاً جداً ولا مستقيماً في هندسته وليس مبنياً بالحجارة من جهة المياه التي تنبسط على الارض بأمواجها ومع ذلك فهو مزدحم بالمراكب والقوارب المختلفة الراسية عليه من جميع انحاء الارض . اما عن نهر النيل نفسه فحقاً انه نهر عظيم ولم أر نهراً نظيره مزدحماً بمراكب الميرة والارزاق والنهر ضيق في تلك النقطة لان فيه جزيرة يدعوها المصريون جزيرة الروضة وهي التي بنى عليها سلطان كل أرض مصر الحالي قلعته العظيمة تجاه مدينة القسطاط وجمال اسوارها وحيطانها الشاهقة العلو المبنية بالجص مما يجعل لها منظراً مبهجاً من جهة الشاطىء

والسلطان الذي بناها هو السلطان الحالي الملك الصالح ثاني انجال السلطان الكامل المشهور بحب النصارى . وذكر ابن حوقل في تاريخه ان الجسر المبني على النيل ليصل الفسطاط بالجزيرة ليس طويلاً جداً وعلى الجانب الآخر من الجزيرة وهو شاطئها الغربي المعروف بشاطيء الجيزة جسر آخر يوصل الى بحر الجيزه . ولكن الناس يعبرون النهر الى شاطيء الجيزه أو شاطيء الفسطاط هم ومواشيهم بواسطة القوارب لان ذينك الجسرين مخصصان لمرور السلطان وحاشيته وخواص القوم لوقوعهما امام القلعة ولا يتجاسر أحد ان يمر وهو راكب حصاناً على الجسر الكائن بين الجزيرة والفسطاط بدون ان يؤدي واجبات التعظيم والاحترام لمسكن السلطان . وقد مضينا تلك الليلة في غرفة عالية مبنية على سطح أحد المنازل بجانب النيل

ولم أذق بلساني طول حياتي ماء أحلى من ماء نهر النيل ولم ار قط اناساً اكثر تادباً من سكان الفسطاط حتى انهم اكثر أدباً من اخوانهم سكان القاهرة التي تبعد عنهم نحو ميلين . وخلاصة القول ان سكان الفسطاط في اعظم درجات الرقة والآدب في احوالهم العمومية ولكن تحت تلك المظاهر السطحية يختفي كثير من العوائد الذميمة منها المداهنة والتملق وعدم الاعتناء بشؤون الاخرين وقلة مراعاة الصداقة القديمة مع الناس وعدم الثبات في المباحث الاجتماعية وقتاً طويلا وغير ذلك كثير مما يطول شرحه . اما البضائع الواردة الى الفسطاط عن طريق

اسكندريه وبحر الحجاز (أي البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر) فكثيرة جداً تفوق الوصف . لان هذه الميناهي المرفاء الوحيد للبلاد المصرية التي تجتمع فيها كل الارزاق وليس في القاهره . ومن مرفاء الفسطاط تصدر الارزاق الى جميع انحاء القطر . ورأيت في الفسطاط معامل السكر والصابون ومعامل اخرى كثيرة مثلها فالفسطاط اذاً مدينة صناعية تجارية عظيمة اما القاهرة فبنيت لغرض عسكري شيئاً فشيئاً . ففيها القشلاقات العظيمة . والاستعدادات الحربية فيها اعظم منظرا من التي بالفسطاط وتمتاز القاهرة ايضاً عن الفسطاط بالصناعة الدقيقة ففيها اصحاب الانوال ونساجو الاقمشة القطنية والحريرية وفيها الصياغون وغيرهم من ذوي الصنائع الملوكية الفاخرة . وفي الفسطاط كثير من آثار الخرائب والدمار بعكس القاهرة فانها احسن منها تنظيما وعمراناً واكثر منها سكاناً وعلى ظني ان السكان لم تزدحم فيها الا لان السلطان حول مسكنه من الفسطاط اليها واتخذها مقراً له . ولكنه لغاية يومناهذا (أي في سنة ١٢٤٥ مسيحية) لم تزل ابات وروح الاصلاح والتنظيم تنمو اكثر فاكثر في الفسطاط لاقترابها من الجزيرة الصلاحية (جزيرة الروضة) ونقل اليها كثير من جيوش السلطان ليكونوا على مقربة من تأدية واجباتهم وتعظيمهم له ولم يخدم السلطان كثيرا من جنوده في بناء الاسوار الطويلة والقصور العظيمة التي تسر كل من رآها

الفصل الثامن والخمسون

القديس لويس في مصر

سنة ١٢٤٥ مسيحية و ٩٦١ للشهدا و ٦٤٣ للهجره

لما ثبت قدم الملك الصالح في مصر وخلا له الجو بعد أن أهلك الامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه وولى المخلصين اليه مكانهم وعزل الملك الجواد يونس من امارته وطرده من مصر اغتاظ منه يونس فالتجأ الى الصليبيين فقبلوه لانه كان ذا ثروة واسعة فاغتنموا تلك الفرصة للاتحاد بواسطته مع امراء سورية على اخذ اورشليم وعسقلان في نظير محاربتهم الملك الصالح في مصر

وكان الافرنج قد خجلوا لكثرة فشلهم امام الجيوش الاسلامية فعزموا في سنة ١٢٤٥ مسيحية على تأليف حملة قوية للاغارة على المسلمين وكانت هذه هي الحملة السابعة من نوعها واقروا على أن الذي يترأس هذه الحملة هو ملك فرنسا لويس التاسع فتألفت هذه الحملة من خمسين الف مقاتل واتوا بكثير من الاسلحة والذخائر وباسطول عظيم ومراكب كثيرة تحمل الميرة والذخيرة واختار الملك لويس لتلك الحملة امهر واشهر قواد اوربا في الفنون العسكرية وتأهبوا للهجوم على مصر

وكان الملك الصالح مشغولاً في محاربة امراء سوريا الذين اتحدوا مع رجال الصليبيين هناك على سلخ سوريا من يده فبعد ان ارسل اليهم

الخوارزميين وهزموهم واسترجعوا منهم غزة وبيت المقدس ودمشق كل ذلك رغماً عن النجدات التي ارسلها من مصر . ولكن امير حمص بقي يدافع دفاعاً شديداً ولم يخضع كباقي الامراء فضجر الملك الصالح من طول المحاربات والتزم ان يسير بنفسه لقيادة جنده بعد ان ظل سنتين كاملتين في ارسال النجدات . فقام سلطان مصر — المعروف بسلطان بابيلون — ومعه جند عظيم سنة ١٢٤٨ مسيحية لقهر أمير حمص — فوصل الى دمشق ولكن فاجأه هناك مرض ثقيل وهو ناسور في اليتيه انفتح وعسر برؤه واصيب بقرح في صدره فلزم الفراش فلما علم وهو مريض بعزم الصليبيين في اوربا على مهاجمة مصر بقيادة القديس لويس التاسع ملك فرنسا . وعرف بقرب قدومهم الى الديار المصرية لم يسعه الا مبارحة دمشق في الحال فسار في محفة ووصل الى مصر ونزل في اشمون طناح في محرم سنة ٦٤٧ هـ الموافقه سنة ١٢٤٩ مسيحية . ثم امر وهو على فراشه بجمع كثير من الميرة والذخيرة والآت القتال في مدينة دمياط خوفاً من ان يقع فيها ماوقع على عهد أبيه من أنواع الحصار الشديد . ثم جمع كثيرين من عربان بني كنانة وجعلهم وراء متاريس المدينة التي عهد بقيادة حاميتها المنظمة من جيشه الى الامير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ . وفي ٢٠ صفر من سنة ٦٤٧ هـ وصلت اساطيل الصليبيين الى دمياط فانزل الملك لويس جنوده وعسكر على شاطئ البحر وقبل أن يتقدم الى ضرب المدينه بعث كتاباً الى الملك الصالح هذا نصه «باسم الاب والابن والروح

القدس الا له الواحد امين

(اما بعد . فانه لم يخف عليك اني امين الامة العيسوية كما انك انت أيضاً أمين الامة المحمدية وانت تعرف اهل جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار . وها قد أبدينا لك مافيه الكفاية وبذلنا لك النصح الى النهاية . فلو حلفت لي باغلظ الاقسام وادخلت عليّ القسوس والرهبان . وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلا اليك وقاتلك في اعز البقاع اليك . فاما ان تكون البلاد ليّ واما ان تكون البلاد لك وقد عرفتك وحذرتك من عساكر تملاء السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك باسياف القضاء) فلما قرأ هذا الكتاب على الملك الصالح وقد اشتد المرض بكى ثم امر القاضي بهاء الدين بكتابة رده فكتب يقول

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه اجمعين . أما بعد . فانه وصل الينا كتابك الذي تهددنا فيه بكثرة جيوشك وعدد ابطالك . فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد الا قام بدله افراد ولا بقي غلينا باغٍ الا اهلكناه ولو رأت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا حصونكم وسوا حلكم وتخريبنا ديار الاواخر منكم والاوائل لعضضت اصابعك غيظاً ولدمت وذلت قدمك في يوم أوله لنا وآخره عليك وسيعلم الذين ظلموا أي

منقلب ينقلبون . فاذا قرأت كتابي هذا فتكون فيه أول سورة النحل (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وتكون على آخر سورة (ص) (ولتعلمن نبأه بعد حين) ونعود الى قول الله تعالى وهو اصدق القائلين . كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله ولي الصابرين . وقول الحكماء ان الباغي له مصرع . وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام)

ثم قرأ القاضي بهاء الدين زهير بن محمد هذا الكتاب على السلطان وهو في فراشه فشكره على كتابته وختمه وبعث به الى الملك لويس . وفي اليوم التالي حصلت مناوشة بسيطة بين الافرنج وحامية المدينة قتل فيها بعض امراء المسلمين . وقد شاع بين جنود المسلمين وقوادها ان السلطان الصالح حضر من سوريا وهو مريض في خالة الموت فاشتغلت الجنود في من يكون خليفة له حسب العادة ولم يلتفتوا الى الدفاع عن البلاد كما ينبغي الا القليلين منهم وكان من وراء ذلك ان قتل اولئك الامراء في تلك المناوشة البسيطة وعدم معارضة الجيوش الاسلامية لجيوش سنت لويس عند نزولهم من البحر الى البر . ولما أنس الامير فخر الدين قائد حامية دمياط فتور الجيش فر مساء تلك الليلة وتبعه امراء بني كنانه فتبعهم الصليبيون ليلاً وهزموهم ولحقوا بجنود السلطان في اشمون . وهكذا تركت الحامية المدينة للاعداء بغير مقاومة فدخلوها بأمان واستولوا على كل مافيها من المؤن والذخائر والعدد الحربية التي كان جمعها الملك الصالح احتياطاً للحصار الذي كان ينتظره وكان

دخولهم مدينة دمياط في يوم ٢٩ يونيو سنة ١٢٤٩ مسيحية الموافق ٢٢ صفر سنة ٦٤٧ هجرية فكان ذلك خسارة على السلطان لا تعوض فاستشاط غضباً وجمع رؤساء بني كنانة والامير فخر الدين قائد الحامية وعنفهم تعنيفاً شديداً على تركهم المدينة بدون اذنه فاحتج هؤلاء بهروب القائد وهذا لم يمكنه اقامة برهان معقول على هربه فعقد الكامل مجلساً عسكرياً وحكم على أربعة وخمسين من امراء بني كنانة بالاعدام وعاقب القائد فخر الدين بما يستحق من التوبيخ وأمر الملك الصالح امراءه بحشد الجنود وعسكر في مدينة المنصورة يوم ٢٤ صفر وحصن تلك المدينة تحصيناً عظيماً ليصد الافرنج عن القدوم اليها من طريق النيل . ولكن لشدة تأثره وحزنه الشديد على خسارته العظيمة في دمياط اشتد عليه المرض فأصيب بحمى شديدة فتوفاه الله في ١٤ شعبان سنة ٦٤٧ هـ الموافق أوائل نوفمبر سنة ١٢٤٩ م وعمره أربعون سنة وكانت تلك الخسارة الحربية في دمياط محققة لما كان ينتظره رجال جيشه فاشتغلوا في التفكير في من يخلفه

اما الصليبيون فبقوا في دمياط أربعة أشهر ولم يتقدموا الى داخلية البلاد كما هي عادتهم عند كل فتح وهم لو تقدموا لاكتسحوا المنصورة وما يليها ولكنهم لبثوا يتخاصمون على اقتسام الارض ويشربون كؤوس الفسق والخلاعة اما لويس التاسع فاذا كان ملكا صالحا لم يكن فيه من القوة والبطش ما يكفي لردع جيوشه عن غيها بل صرف همه الى زيارة الكنائس وتأييد الانشقاق الذي أوجدته الكنيسة اللاتينية سنة ١٢١٩ أي قبل

ذلك الوقت بثلاثين سنة وهو اقامتها بطريرك كاثوليكي جديد على مدينة دمياط لان نقولا الذي كان بطريركاً للكنيسة اليونانية المصرية وهو صاحب الخطاب المشهور لبابا رومية المدعو هورونيوس قد مات في نفس السنة التي مات فيها كيرلس البطريرك المرذول . ومع انه خلفه بطريرك يدعى غريغوري بالاسم الا أنه لم يكن يعرف شيئاً عما عمله سلفه ولذلك لم يحتج على مشروعات الصليبيين في كنيسته التي أصبحت شبه مشنقه

وحضر الكونت بواتيير شقيق القديس لويس في شهر نوفمبر من أوروبا واتحد مع معسكر الصليبيين وعقد مجلساً مع أخيه الملك ليتشاوروا في الزحف على داخلية بلاد مصر ومعرفة ماذا كان أفضل لهم ان يسيروا عن طريق الاسكندرية أو بابليون (القاهرة) فاشار الكونت باغلبية الاصوات بتفضيل الهجوم من جهة القاهرة فصادق على ذلك الملك والذين معه وتأهبوا للمسير

وكان من جملة جواري الملك الصالح جارية بيضاء محبوبة اليه جداً وهي أرمنية الاصل تدعى شجرة الدرّ وهي والدة غياث الدين توران شاه الابن «١» الوحيد للسلطان الصالح الذي رزق به منها لانه لم يرزق من نسائه الاخرى سوى فتيات . وكانت شجرة الدر عارفة بأمور

(١) يقول المقريزي في تاريخه أن توارن شاه لم يكن ابن السلطان الصالح حقيقة بل هو ابن احدى نسائه

الحكومة وسياستها اذ شاع ان الملك الصالح عهد اليها بادارة البلاد عدة سنوات مدة غيابه في حروب سوريا . فلما ذاقت حلاوة الملك وتوفى الملك الصالح كتمت خبر وفاته . وصارت تصدر الاوامر باسمه ثم تواطأت مع الامير فخر الدين ورئيس الخصيان جمال الدين محسن على مبايعة ابنها غياث الدين الذي كان وقتئذ في سوريا ولم يسمع بعد بوفاة أبيه . فنجحت في ذلك وتم لها ماأرادت وذلك انها وقفت خطيبة في وسط الامراء والاعيان تقول ان السلطان الملك الصالح بأمركم ان تبايعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين توران شاه . وقد عين الملك الامير فخر الدين اتابكا لادارة الاحكام) . فلم يعد في وسع الامراء والاعيان الا مبايعته . ثم أرسلت شجرة الدر هذه الاوامر من المنصورة الى القاهرة فبايعه من فيها من القواد وأعيان السلطنة وأرسلت الرسائل بختم السلطان الملك الصالح الى جميع انحاء المملكة . وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح لم يزل حياً لما اعتادوه من مشاركة شجرة الدر له في اصدار الاحكام والاوامر . ولكن لما علموا باستقدام الملك المعظم غياث الدين بسرعة الى القاهرة خامرهم الريب في ذلك

كل ذلك تم والصليبيون باقين في دمياط لاعمل لهم غير التلذذ بالشهوات والملاهي في حين كان المماليك والامراء المصريون يواصلون المساعي في انتخاب خليفة لهم بعد وفاة السلطان الصالح . وبعد ان فازت شجرة الدر بأمنيتها صارت تدبر المملكة بالاتحاد مع الامير فخر الدين

ورئيس الخصيان جمال الدين محسن . وصارت تصدر الاوامر بتقوية الجيش وحصون الدفاع حتى يصل اليها من سوريا

ولما كانت الكسرات المتوالية التي لحقت بالصليبيين في كل حملة جردوها على مصر قد علمتهم الحكمة زحفوا من دمياط الى داخلية البلاد بكل حذر في شهر فبراير سنة ١٢٥٠ مسيحية فوصلوا الى المنصورة وحاربوها بشدة وادهشوا المسلمين بقوة بأسهم حيث قتلوا منهم مقتلة عظيمة وكان المسلمون تحت قيادة الامير فخر الدين فحارب ببسالة كلية وساعدته الايات المماليك فقهروا الصليبيين وكان بحر اشمون فاصلاً بين الجيشين فلم يستطع الصليبيون عبوره الى المنصورة اذ لم يكونوا يعرفون طريقا غير طريق النيل فأتاهم بعض خونة المسلمين ودلوهم على طريق أخرى يسهل منها الوصول اليها . فسارت من فرسانهم سرية وهاجمت المنصورة بغتة وكان الامير فخر الدين في الحمام فلما علم بقدوم الافرنج الى المحله اندهش ونادي في رجاله وخرج للدفاع فأدركه بعضهم وقتله وكادت الدائرة تدور على المسلمين وانتهت الموقعة بخسارة كبيرة من الفريقين بحيث لم يعد أحدهما بعدها قادرا ان يستأنف القتال . وظل الجيشان يتناوشان حتى وصل الملك الصغير طوران شاه من سوريا فتشدد به عزم المسلمين وهاجموا الافرنج في البر والبحر حتى هزموهم وأسروا منهم ٣٢ مركباً

فتضعضع الصليبيون بعد ذلك وأضحوا في حالة غير راضية وقد ذكر المؤرخ جوتفيل ماأصابهم يومئذ فقال انهم بعد هذه الكسرة أرسلوا

يطلبون مؤناً وذخائر من دمياط فلم يلب أحد طلبهم ومن ثم علموا ان المسلمين أخذوا قواربهم ومراكبهم الراسية في النهر عند دمياط ونقلوها سراً الى البر وأنزلوها ثانية الى النهر بين دمياط والمنصورة. وأهلكوا حامية الذخائر والمؤن التي كانت قادمة من دمياط لنجدة الملك لويس الذي لما عرف كل ذلك أرسل الى الملك طوران شاه يطلب منه عقد هدنة وبعد ذلك يصطلحان على ان ينسحب من مصر بعد ان يخلي دمياط مقابل أخذ بيت المقدس وضواحيه فلم يقبل المصريون ولا ملكهم بذلك فعزم القديس لويس على التقهقر الى دمياط وكان ذلك في ٢ محرم سنة ٦٤٧ هـ فتبعهم المسلمون وأدركوهم غربي فرسكور وانقضوا عليهم كالبواشق وقتلوا منهم ثلاثين ألفاً حتى امتلأ النيل بجثثهم. ثم أسروا الملك لويس التاسع وحاشيته وضباطه وكبار جيشه وكانوا قد فروا مع ملكهم الى منية أبي عبد الله وذبح المسلمون منهم المئين ذبح الاغنام لانهم أبوا ان يعتنقوا الاسلام وقطعوا رؤوس بعضهم لهذا الغرض عينه. قال المقريزي في تاريخه ان الذين هلكوا من الفرنساويين مائة الف نفر. وهدد المسلمون الملك لويس وأشراف جنده بالعذاب والموت اذا لم يقبلوا الشروط التي اشترطها عليهم طوران شاه في مقابل اطلاق سراحهم. فلم يقبل الملك لويس بذلك لانه علم انه لا يستطيع ان يقوم بها تماماً. فلما رأى المسلمون انهم لم ينجحوا في ذلك استبدلوها بشروط أخرى أخف منها مآلها قبول فكاكهم بفدية معقولة. وكانت ملكة فرنسا مقيمة في دمياط وقد وضعت

غلاماً بعد ان سمعت بأسر زوجها القديس لويس بيوم أو اثنين فلما استبدل الملك المعظم طوران شاه حكم القتل بالغرامة المالية البالغ قدرها مليون بيزانتا ذهبياً أو ٥٠٠ الف بنتو ذهباً عن أشراف الجيش والتخلي عن مدينة دمياط فدية عن القديس لويس نفسه قبيل ملك فرنسا تلك الشروط فوراً وأرسل الى زوجته في دمياط لتفديه بالمال فاندهش السلطان توران من ذلك كثيراً لانه لم يكن يتوقع من لويس الا المراوغة كما هي عادة أهل الشرق في انهم يخلفون الوعود ويطيلون اجل المفاوضات في كل مسائل البيع والشراء والفدية والفكاك ونحوها. غير ان الملك لويس لم يدفع كل ذلك المبلغ بل طلب ان يدفع ٤٠٠ الف بيزانت ذهباً والباقي يبادل به الاسرى الذين عنده فقبل السلطان بذلك واستلم مائة الف بيزانت واشترط ان يأخذ الثمانمائة الف قبل مبارحة الصليبيين لدمياط وعينوا يوم الخروج منها. غير انه قامت في تلك الاثناء ثورة في الجيش المصري فغيرت الاحوال لان ايالات المماليك ساءها الاعتراف بطوران شاه ملكاً وكان معظم الجيش المصري مؤلفاً منها وانما فعلوا ذلك بدعوى انه ينبغي ان تؤول الخلافة الى الاقوى. على ان اولئك الارقاء الذين لا يعلم لهم أصل أو فرع ولا يعرفون شيئاً من أمور الدنيا سوى المعسكر الذي يقيمون فيه لم يكن يحق لهم ان يطالبوا بالعرش المصري الذي لا يفقهون له معنى. ولكن شجرة الدر بقوة حكمتها وحسن سياستها وبشدة تأثيرها أطفأت نار تلك الثورات والفتن وتغلبت على الجنود

المتمردة قبل ان يشتد لهيبها بل حتى قبل وصول ابنها طوران شاه من سوريا . وبعد وصوله واستلامة مقاليد الاحكام هاج المماليك سخطاً عليه ولم يستطع أحد ان يكبح جماحهم وقد روى بعض المؤرخين ان سبب الخصام انما كان على اقتسام الاموال التي أخذها طوران شاه من الافرنج وذهب آخرون الى انه نجم عن عزله أصحاب النفوذ منهم وتولية آخرين ممن جاؤا بمعيته من بين النهرين اذ كان يثق بهم . وكتب سيور دي جرانفيل المؤرخ الفرنساوي الذي كان معاصرا لطوران شاه يصف تاريخ أواخر حياة ذلك الملك الذي هو آخر سلالة السلطان صلاح الدين . وبعد ان وصف الاستحكامات العظيمة التي بناها السلطان على شاطىء نهر النيل بفرسكور توقعاً للحصار وقت حربه مع الصليبيين وتكلم عن ابراجها الخشبية الثلاثة المكسوة بالقماش التي كان يطلع عليها السلطان ويرى من علوها قوة الاعداء من بعد . وبعد ان ذكر كثيراً عن الضجيج الذي كان يسمع من خارج السرادق عندما كان السلطان ينادم كبار أمرائه ابتدأ يتكلم عن أخريات أيامه فقال — ان السلطان الصغير النشيط لما اشتم رائحة مؤامرة المماليك عليه هرب في غاية محرم سنة ٦٤٨ هـ الى البرج الذي بناه في فارسكور مع ثلاثة من اخصائه وهم أئمة الدين وكان ذلك البرج مبنياً من خشب فيه غرف ثلاث وهو قائم فوق سطح سرادقه كما تقدم فاجتمع رجال الحرس وعددهم خمسمائة فارس واحاطوا بالبرج ونادوا عليه ان ينزل فاجابهم بالطاعة بشرط ان لايقربوا منه فقالوا انك لست

في حصن دمياط ولا بد من نزولك بالقوة ثم سلطوا النار على البرج فاشعلته واحرقته ولم أر ناراً زائدة الاشتعال مثل ناره فلما أخذت تتقد في جوانب البرج أسرع السلطان وهرب الى النهر عن طريق دمياط فادركه رجال الحرس وقطعوا عليه الطريق بسيوفهم فاراد ان يلقي نفسه الى النهر فهرع اليه أحدهم وطعنه بحربة بين ضلوعه فألقى بنفسه الى الماء والحربة مرشوقة في بدنه فغاصوا وراءه في الماء وانتشلوه وذبحوه بقرب القارب الذي كنا فيه . ثم تقدم أحد الفرسان المدعو فارس الدين اقطاي وشطر الجثة شطرين بسيفه وأخرج قلبه باكفه وقطعه أربا وذهب الى الملك لويس التاسع الذي لم يكن قد فارق مصر بعد ويداه ملطختان بالدماء وقال له — ماعساك ياملك الفرنسيس ان تكافئني به نظير قتل عدوك الذي لو عاش لما أبقى على حياتك . أما القديس لويس فنظر اليه شزرا ولم يجبه بكلمة اهـ

وبعد ذلك جاء المماليك الذين تآمروا عليه وحزوا رأسه وأخذوها وأسرعوا فقبضوا على أمراء الفرنسيس وأشرافهم وسجنوهم فعاد أولئك التعساء يتوقعون الذبح عند الصباح . وكان ذلك على وشك الوقوع لولا ان المماليك لم يتفقوا على قتلهم لان فريقاً منهم قرر ان يذبحوا اما الفريق الآخر فعارض وفضل ان يفدوا بالمال . وأخيراً فاز الحزب الاخير وكان فوزه من حسن حظ الاسرى فأطلقوا سراحهم عند الصباح وسمحوا لهم بالرجوع الى دمياط مقابل دفع باقي الثلاثمائة الف بيزانت

التي وعدوا بدفعها للملك طوران شاه الذي قتل شر قتلة وبموته انقرضت الدولة الايوبيه لانه آخر من حكم من تلك العائلة وكان ذلك أيضاً نهاية الحملة الصليبية السابعة أو الفصل السابع من الرواية التي مثلوها في الديار المصرية. ولما قتل الملك المعظم طوران شاه اختلفت الاحزاب في من منهم يكون خليفة له وصار كل واحد من المماليك يرشح نفسه للسلطنة أو يحاول القبض على الاحكام والاستبداد بالسلطة فتفشت الفوضى وكاد الامر يفضي الى حرب داخلية . فتداركت شجرة الدر الامر بحكمتها واتخذت ذلك التنافر وسيلة الى تسنم عرش الخلافة وما زالت بحسن سياستها تتبصر في الامر حتى أدركت ان حزب المماليك أعز جانباً من سواه ولانها كانت من جنسيتهم واخلاقهم وقربتهم وكانت هي أول من استلم زمام الاحكام من النساء في الاسلام باقرار الجميع وذلك انها تواطئت مع أيبك عز الدين وهو أقوى امراء المماليك وأعظمهم بأساً ونفوذاً وكانت بينهما علاقات ودية من أيام الملك الصالح وكان من المتآمرين سراً على قتل ابنها طوران شاه فتمكنت بذلك التواطيء من مبايعة جميع الاعيان لها ولقبت نفسها بعصمة الدين ام خليل ونودي بها ملكة على مصر في ١٠ صفر سنه ٦٤٨ هـ . وكانت توقع على الاوراق بامضاء (ام خليل) ونقشت اسمها على النقود هكذا (المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين) . واذا كان أمراء المماليك حائزين صفات الشجاعة الادبية مخلصين للعائلة الحاكمة وذوي شهامة

عربية وفروسيه زائدة أصلحوا شؤون مصر فاعتزت على يدهم غير انهم لم يكونوا ذوي حكمة ودهاء ولذلك مقتهم المسلمون فلم يبق نفوذهم في مصر الا ثلاث شهور فقط . وانتخبت شجرة الدر أعظم الامراء المماليك ايبك عز الدين وعينته أتابكا لها (أي رئيس الوزراء) وهو كما تقدم صاحب اليد الطولي في اعتلائها الى عرش السلطنة المصرية . وفي ذلك الوقت القصير التفتت الى متابعة الحرب مع الفرنساويين فلما طردتهم من البلاد أصلحت نظام الحكومة وخفضت الضرائب عن عاتق الاهالي ثم تحببت الى أرباب الدولة ووجهاء البلاد وجذبت قلوبهم اليها فرضوا عنها وخلعت عليهم الخلع الثمينة وأنعمت عليهم بالرتب والمناصب العالية . لكن لسوء حظها حالت عوائد الاسلام دون مطامعها في العظمة ودوام ملكها اذ لما سمع أهالي سوريا وبغداد بارتقائها الى سرير المملكة المصرية خرجوا عن طاعتها وقابلوا صنيع امراء مصر الذين انتخبوها بكل سذاجة ودهشة وغيظ وحنق وكتبوا الى الخليفة العباسي في بغداد يستفتونه في أمر هذه المملكة . فكتب الى امراء مصر وسوريا يقول « اذا لم يكن بينكم رجل يصلح للسلطنة المصرية اقدم انيكم فأقيم عليكم من يحكم فيكم اما قرأتم ماقاله النبي صلعم عليهن «الويل للامه التي تحكمها امرأة» فاعملوا بالحديث ان كنتم مؤمنين »

فلما وصلت تلك الفتوى الى دمشق ثار أهلها وشقوا عصا الطاعة على شجرة الدر وبايعوا الملك ناصر يوسف الايوبي سلطان حلب وتبعتها

باقي المستعمرات المصرية في سوريا فقتلوا كل من كان موالياً لشجرة الدر واستمسك أيضاً امراء مصر بهذه الفتوى . جبروا الملكة التي كانوا حلفوا لها يمين الطاعة بالتنازل عن الملك وحصل خصام بين مماليك سوريا ومماليك مصر بسبب ذلك فانتخب عز الدين ايبك وهو نصير شجرة الدر واتابكها هذا الانقسام وتحول عن صداقتها وصار يستميل الافكار اليه فلما استقالت شجرة الدر انتخبه الامراء سلطاناً على مصر وبويع سنة ٦٤٨ هـ ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركماني الصالحي وتزوج في الحال بشجرة الدر فاحسن بذلك صنعاً لانه باقترانه بها عزز مركزه واجتذب اليه رجال حزبها وكان انتقال الملك من شجرة الدر الى عز الدين اسماً لا فعلاً لانها لما كانت هي الملكة كانت تدبر الامور بمشورته فلما اصبح هو الملك وقد تزوجها فاصبح الامر بيدها كما كان من ذي قبل . وبعد ذلك انقسم المماليك الى حزبين احدهما حزب المعزيين نسبة الى الملك المعز ايبك والآخر حزب الصالحيين نسبة للملك الصالح نجم الدين . وتنازع الحزبان النفوذ ففاز حزب الصالحيين وارغموا الملك المعز ايبك ان يبايع حفيد السلطان الكامل . وهو فتى دون الثامنة وكان اسمه موسى مظفر الدين بن يوسف وكان ملكاً على اليمن فرأى المعز ايبك ان الحكمة تقضي عليه الخضوع لمطالب الحزب الاقوى فبايعه مع القوم في ٥ جمادى اول ولقبوه بالملك الاشرف وتعين المعز ايبك اتابكاً له فبقيت مقاليد الاحكام بيده وما كان الاشرف الا ملكاً بالاسم ولم يربح هذا الغلام

المسكين من ذلك العرش الوهمي الا موته موتاً شنيعا اذ قبض عليه المعز ايبك والقاه في سجن مظلم في القلعة فمات فيه تعيساً بعد ان حكم بالاسم سنة وشهراً وكان يخطب له وللمعز ايبك معاً في الجوامع وهو من الغرابة بمكان . وكان الملك الاشرف آخر من حكم من [illegible] الايوبية وبموته انقرضت تلك العائلة تماماً وسيأتي في الفصل القادم بيان اسباب القبض على الاشرف .

الفصل التاسع والخمسون

مصير ملكة مسلمة

سنة ١٢٥٠ مسيحية و٩٦٦٦ هجرية و٦٤٩ للشهداء

كان المسلمون من ترك وعرب اعظم تجار الرقيق في العالم من عهد ما قضى خلفاء محمد على تمدن الشرق القديم . وكانت تجارة الرقيق معروفة من بدء عصر التاريخ وكان معظمه من اسرى الحروب الذين كانوا يباعون كالسلع او كالانعام فكان اولئك الارقاء يخدمون الخدمة المنزلية . وقد كان الرقيق معروفاً من عهد قديم فورد في التوراة ذكر جارية ابرهيم الخليل وغير ذلك كثير من الشواهد التي تدل على وجود الرق والنخاسة . وكانت مسألة الاسترقاق في تلك العصور الاولى عبارة عن سيادة احد الموالي على العبد فيكون العبد مسؤلاً لمولاه وواقعاً تحت طائلة عقابه في حالة عدم الخضوع له وكان للعبد بمقتضى قوانين

بعض الشعوب القديمة حقوق مرعية لدى سيده ومالكه ولم يكن ينكر تلك الحقوق الا السادة الظلمة العتاة . وكان للعبد عند العبرانيين الحق الصراح في ان يطلب العتق من سيده بعد ان يقضي في خدمته سبع سنوات غير ان عتقه كان يتوقف على حسن سلوكه لا على مرام سيده . اما الرق في الاسلام فهو ان يكون العبد بمنزلة متاع او ملك فلم يكن يعتبر عندهم الا نظير حيوان خلق لقضاء الاعمال وحمل الاثقال

وقد اصبح من المؤكد ان متاجرة العرب بالرقيق كانت سبباً في هدم صروح الممالك المسيحية في السودان والقضاء على قوتها الادبية وتصييرها لقمة سائغة لافواه المسلمين ونتج عن تجارة الاتراك بالرقيق وجود تلك المظالم الفظيعة التي حلت بمصر وجعلت البلاد تئو بثقل المظالم كل تلك القرون الماضية وبسبب اولئك المماليك سقطت الدولة الفاطمية من عالي مجدها الى الدرك الاسفل ذلك لان القوتين اللتين تتألف منهما قوة الحكومة واعني بهما جيش الاتراك الاحرار وجيش العبيد السود كانتا في شجار دائم وخصام عنيف ولما رأى السلطان صلاح الدين الايوبي اباء الاتراك والعرب كليهما الخضوع للقوة التأديبية النظامية التي كان يرى ضرورتها وقتئذ لتأليف جيش حقيقي منظم يرفع شأن مصر ويرهب الاعداء اضطر ان يزيد في عدد جيوش السودانيين . ولما لم يمكنه ان يجند منهم العدد الكافي الذي يلزم لاتمام اغراضه من غير ان يفتح السودان ويستخدم رجاله الاشداء وحيث انه رأى ان دون ذلك صعوبة

كبرى عمد الى الحيلة بان اتفق مع تجار الرقيق الذين يقطنون الاقاليم الجبلية الكائنة في شمال وشرقي اوروبا بان يشتري منهم كل الاولاد الذين يليقون للخدمة العسكرية ممن يختطفونهم باساليب الخداع او يشترونهم من السلبة فاجتمع لدى صلاح الدين خلق كثير من الرقيق الابيض مرنهم على الجندية ودربهم في الديانة الاسلامية فشبوا يجهلون والديهم وعواطفهم وكان كل ما طبعوا عليه هو الطاعة للقائد الذي يتولى قيادتهم وسار خلفاء صلاح الدين على تلك الخطة فاصبح كل الجيش المصري من ذلك الرقيق الاوروبي . وكانوا ينقسمون الى آلايات وكل آلاي يمتاز عن الآخر بعلامة مخصوصة في لباس كل جندي منه . ولم تكن الآلايات تخضع لناموس او قانون ولم تعرف الا الطاعة لاميرها الذي كان في بادىء الامر تركياً او عربياً من عائلة عريقة في الحسب والنسب وبعد ذلك كان المماليك انفسهم يتولون انتخاب الامير . وكان اخر من اكثر من ايجاد المماليك في مصر الملك الصالح فانه اشترى منهم كثيرين للخدمة وجعل منهم الفاً لخدمته وكان من مماليكه امراء الدولة والحجاب ولهم علامات خصوصية على ثيابهم وأسلحتهم فبعضهم كانت لهم علامة الورد والبعض الاخر اشكال من الطيور وكانوا يتمنطقون بمناطق جميلة مختلفة الالوان فلما كثروا في البلاد المصرية اصبحت مصالح الدولة في يد الامراء منهم وأمنع الحصون في قبضة الجيش الذي يتألف منهم شعروا بالقوة التي لهم واصبحوا طامعين في الاحكام ولما ضاقت بهم القلاع

والحصون ابتنوا بأمر الملك الصالح حصوناً وثكنات جديدة نخيفة البناء منيعة الجانب في جزيرة الروضه قرب المقياس. وبما أن النيل هنالك يتفرع الى فرعين على جانبي الجزيرة فقد زادهذا المركز الطبيعي الجميل الثكنات [illegible] ولما أصبحت تلك الثكنات المركز العسكري للمماليك وهي قائمة على جزيرة في النهر أو (البحر) كما كانت تدعى هذه النقطة من النيل لعظم اتساعها سمي أولئك المماليك بالمماليك البحرية. ومنها اسم دولتهم التي تمتاز عن الدوله الاخرى المعروفة بدولة المماليك الشراكسة وكانت سطوة المماليك البحرية تزداد اكثر فأكثر حتى طمعوا بخلع السلطان وتولي ادارة مصر مكانه وكان ماتم من أمرهم بسعيهم في قتل الملك المعظم كما تقدم في الفصل السابق

ولم يهدأ لهم بال حتى تبوأ عميدهم عرش الخلافة المصرية وهو أيبك عز الدين زوج شجرة الدر التي تنازلت عن الملك له اضطراراً كما تقدم وأصبح سلطان مصر الجديد مملوكاً تركياً يسير في كل اموره بمشورة زوجته فأحسن ادارة البلاد المصرية بارشادها. أما سلطان دمشق بسوريا الذي كان من عائلة صلاح الدين ويدعى ناصر الدين يوسف فانه ابى الاعتراف به سلطاناً على مصر وقال ان لافرق بين ان يحكم مصر امرأة وبين أن يحكمها مملوك تركي ونهض للاخذ بثار الملك المعظم فاتفق مع امراء العائلة الايوبية على الفتك بالمماليك وفاوض القديس لويس التاسع ملك فرنسا وعقد معه معاهده حبية وكان لويس وقتئذ مقيماً

في عكا بعد مبارحته البلاد المصرية. وخلاصة تلك المعاهدة انه يقوم معه لمحاربة المماليك بمصر ويرد له مقابل تلك المساعدة بيت المقدس. ولما صادق الطرفان على تلك المعاهدة ارسل ملك الفرنسيس راهباً الى ناصر الدين يوسف سلطان دمشق ليوقع على المعاهدة باسم الملك فلما تم له ذلك ارسل الى مماليك مصر مندوباً يطلب منهم التعويض عن نكث المعاهدة التي عقدوها مؤخراً مع الصليبيين

ولما لاحظ أيبك عز الدين سلطان مصر ان المعاهدة التي تمت بين سلطان دمشق والفرنساويين تأتي بالوبال عليه وعلى المماليك ولما كان الصالح لهم أن يتفقوا مع الصليبيين على سلطان دمشق اسرع الى عرقلة تلك المعاهدة وتمكن بدهائه من استمالة الصليبيين اليه ثانياً وجدد المعاهدة بينهم وبينه وحل هو محل سلطان دمشق وكانت شروط المعاهدة بينه وبين الفرنساويين هو ان يجيب كل مطالبهم وأهم تلك المطالب التي اقترحها القديس لويس هي

أولاً — التنازل عن نصف الفدية المالية وقدرها مائتان الف دينار كان تعهد الصليبيون بدفعها بمقتضى معاهدة المنصورة

ثانياً — ان يرد المماليك للصليبيين النصف الاول من تلك الفدية الذي دفعه القديس لويس في اسره بعد واقعة فرسكور

ثالثاً — اعادة الاسرى المسيحيين الى عكا

رابعاً — اعادة كل الاولاد الذين وقعوا اسرى في الحرب الاخيرة

واجبرهم المسلمون على اعتناق الديانة الاسلامية

خامساً — انزال رؤوس الصليبيين التي كانت معلقة على متاريس واسوار القاهرة ودفنها بالاحترام والوقار فقبل المماليك البحرية بكل تلك الشروط وكتب السلطان أيبك عز الدين للملك فرنسيس بقبولها وتنفيذها واهداه فوق ذلك فيلاً جميلا وكان هذا اول فيل ارسل لفرنسا وأول فيل رآه الفرنساويون في بلادهم ووعده ايضاً انه اذا تغلب على سلطان دمشق يعيد بيت المقدس للصليبيين . وبهذا استراح بال أيبك والمماليك وزالت مخاوفهم من تعصب الفرنساويين واتراك دمشق عليهم . ولما علم سلطان دمشق بذلك ارسل عشرين الف مقاتل لتحول دون اتحاد جيوش المصريين مع جيوش الصليبيين على محاربته فعثرت تلك القوة بالجنود المصرية في غزة قبل ان تنضم الى جنود الصليبيين فاخذوهم وارجعوهم الى الصالحية

فعاد السلطان ايبك وشدد عزيمته بنجدة الفارس اقطاي صاحب الضربة الاخيرة في مقتل طوران شاه واتفضوا على السوريين فاعادوهم على اعقابهم الى سوريا مخذولين . فتشددوا هناك واعادوا الكرة على مصر بعدد كبير تحت قيادة حاكم دمشق شمس الدين لولو وسار سلطان دمشق نفسه مع هذه الحملة فالتقوا بالمماليك تحت قيادة ايبك والفارس اقطاي يوم الخميس ١٠ ذي القعده سنة ٦٤٩ هـ في العباسية وتقاتل الفريقان فانهزم المماليك وتعقبهم السوريون لكن لم يتقهقر ايبك واقطاي الى مصر

بل عرجا على سوريا بفرسانهم فالتقيا بشمس الدين لولو فقتلاه وشتتا رجاله ثم هاجما سلطان دمشق في معسكره وكان معه شرذمه قليلة من الجند لان جيشه تعقب جنود المماليك الى مصر فاضطر الى الفرار بنفسه ولما لم يدركاه عادا الى مصر وكانت قد دخلت الجنود السورية في القاهره فرأيا أهاليها المصريين قد انتهزوا فرصة دخول الجنود السورية الى بلادهم وظنوا ان النصر لسلطان دمشق فشمتوا بالمماليك وزعموا انهم تخلصوا من نيرهم وبايعوا ناصر الدين سلطان دمشق وخطبوا له في الجوامع ولكن ما عتم ان انجلت الحقيقة للمصريين وعلموا ان النصر للمماليك فابطلوا المبايعة . ولما رأى ناصر الدين عجزه عن مقاومة المماليك صالحهم واعطاهم غزة واورشليم واتفق معهم على محاربة الصليبيين وكان ربحه من كل هذه الحرب والتدابير فساد معاهدة الصليبيين مع المماليك عليه

وخاف المماليك من رجوع الصليبيين الى مصر عن طريق دمياط فخربوها وابتدأوا بهدم اسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨ هـ فمحوا آثارها بالكلية واما المدينه الباقية للآن فمبنية على انقاض تلك القاهرة ومصر العتيقة وبعدئذ بقليل لما رأى ان الفارس اقطاي اصبح معظماً من المصريين لبسالته في الحروب خاف مزاحمته له في الملك فخدعه وقتله غدراً وهو داخل سراي القلعة بعد ان قفل ابوابها ولما جاء اعوانه يسألون عنه ظناً منهم ان السلطان ايبك قتله رمى لهم رأسه من أعلى سور

القلعة . فارتاعوا لمقتله وفروا الى سوريا وسجن ايبك من بقي منهم . ولما تخلص من طائفة الصالحيين اعوان اقطاي (١) وهم اقوى حزب معادل قبض على الملك الاشرف الحديث السن خوفاً من مزاحمته له في الملك والقاه في سجن مظلم فمات فيه تعيساً بعد ان حكم ١٣ شهراً وهو آخر من حكم مصر من الايوبيين

وكان احد نظار دواوين الحكومة المصرية وقتئذ رجلاً قبطياً يدعى شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي كان قد تظاهر بالاسلام من ايام الملك الكامل وكان كاتباً بسيطاً ارتقى بجده حتى صار طبيباً للسلطان الايوبي الخامس ثم تدرج من الطب الى السياسة فاصبح مشهوراً بالطب والسياسة معاً وبمهارته في الفنون السياسية صار ناظراً لاحدى نظارات الحكومة فلما اصبح وزيراً فرض الضرائب على الموسرين واصحاب العقاقير ورتب مكوساً وضمانات دعيت حقوقاً ومعاملات وهو

(١) كتب المقريزي في تاريخه عند مقتل الفارس اقطاي وعن فرار اعوانه قصة غريبة قال —

لما عظم الفارس أقطاي في عيون المصريين لما اظهره من الشجاعة والاقدام في حربه الاخيرة مع السوريين لقبه اعوانه بالملك واقترن باخت المنصور سلطان حماة واسكنها فى قلعة مصر لاتصال نسبها بالعائلة الملوكية . فخاف ايبك من انتشار نفوذ اقطاى وخشي منازعته الملك فسعى للتخلص منه وكان اقطاي زعيم الحزب المماليك الصالحين فعززه رجال حزبه واشركوه في الملك مع الملك الاشرف فوقى كثيرين منهم . ولما قتل ايبك الفارس اقطاي داخل القلعة خشي الوقوع في

اول قبطي ولي الوزارة على عهد الاسلام فلما ظل حافظاً مركزه بحسن سياسته مال اليه الملك ايبك عز الدين فرقاه الى رياسة الوزاره واصبح صدره الاعظم . وظن ايبك انه خلاله الجو بعد تخلصه من الامراء الصالحيين ولم يدر ان زوجته شجرة الدر واقفه له بالمرصاد ولا يعلم ان

شر اعماله فقفل أبوابها وأبواب المدينة ولبث يتوقع الحوادث فلم تمض برهة حتى تجمهر الامراء الصالحيون اعوان اقطاي تحت رئاسة بيبرس وطلبوا زعيمهم فظن منهم ان الملك ايبك أسره في القلعة فألقى اليهم رأسه من فوق سور القلعة فلما علموا بقتله ارتعدت فرائصهم وهموا الى الفرار من باب القراطين الى سوريا وكانوا اثنى عشر مملوكة وكانت طريقة فرارهم مستغربة جدا ذلك انهم قصدوا الفرار الى سوريا من طريق صحراء تيه بني اسرائيل فتاهوا هم أيضاً في قفار تلك الصحراء الشاسعة و بعد طوافهم خمسة أيام لايعلمون الى اين مصيرهم رأوا من بعد باعد مدينة فتبعوها ومشوا اليوم الخامس بتمامه نحوها وفي صباح اليوم السادس وصلوا تلك المدينة ودخلوها فوجدوها قفراء خالية من السكان ومنازلها مبنية بالرخام الاخضر الصلد والرمال التي قذفتها الرياح تملأ شوارعها الساكنة و بيوتها الخاوية ووجدوا بعض ملابس في احدى دكاكين تلك الشوارع فلما لمسوها ذابت في أيديهم وتحولت الى تراب ووجدوا في تلك الدكان تسعة قطع ذهب مرسوم عليها بالحفر شكل غزال وسيوف عبرانية فاخذوا تلك القطع ثم حفروا في الارض فانفجر امامهم نبع ماء عذب قراح فكان ذلك عندهم انعم وأعظم شيء عثروا عليه وقتئذ لكونهم قضوا ستة أيام في حالة الظماء الشديد فشربوا من ذلك النبوع ورطبوا أجسادهم منه و بعد ما استراحوا بقية اليوم السادس رحلوا عنها ليلاً فلما أصبح اليوم السابع لقوا جماعة من البدو فدلوهم على جهة الكرك حيث استبدلوا من أهاليها التسع قطع ذهبية التى وجدوها في مدينة الرخام الاخضر نقوداً فلما

كان وقوفها له كذلك بسبب غضبها من قساوته وسوء سياسته معها فتعاديا وهجرته زمناً طويلا وصارت تعرقل كثيراً من مقاصده ولم يجسر على مقاومتها . فضاق صدره من هذا التقييد والسلطان في يده وصار يبحث على اية طريقة يتخلص بها من قيودها ومع علمه ان مكايد النساء عظيمه واشد من حيل الرجال فقد ادعى انها عاقراً . واقتنى عليها سراري اخريات فولدت له احداهن ولداً سماه نور علي فلم تعبأ شجرة الدر بذلك ولكنه بلغها بعدئذ انه سيقترن بابنة ملك الدين لولو ملك الموصل فاشتعل قلبها غيرة لعلمها ان تلك الضره الجديدة من بنات الملوك وخافت ان تحل محلها في العظمه لانها تأكدت بالطبع ضياع مجدها وانها لا تكون في المستقبل الزوجه الوحيده المعززه لمن كانت السبب في ارتقائه عرش السلطنة المصرية وقد زادها يأساً عدم ولادتها وطول زمن عقمها وارتزاقه بمولود جديد من احدى محظياته كما تقدم وعقته تلك المحظيه وجعلها حره اكراماً لخاطر مولودها . وبسبب عقم شجرة الدر لاحظت انها ملتزمه بحسب الشرع الاسلامي ان تصرح له بالزواج عليها ليرتزق بالاولاد

شاهدوا نقود تلك الجهة استغربوها واكد احدهم انها مضروبة من زمن موسى النبي والح على اصحابها بضرورة تعريفه من اين اتت تلك النقود واخبر المماليك هؤلاء القوم بامر المدينه الصحراويه ثم اتضح للمماليك الثائبين ان اهل الكرك هم يهود عبرانيون ويعلمون عن وجود تلك المدينه من تقاليدهم الدينية ثم قال لهم اليهود ان هذه المدينه بناها بنو اسرائيل مدة تيههم اربعين سنه في البريه كما جاء في التوراة

من غيرها . ولكن تمادى ايبك في تعظيم محظيته الحره بعد ولادتها فاراد ان يحتفل بولادتها احتفالاً ملوكياً وكان ينتظر ان يكون ذلك الاحتفال لشجرة الدر زوجته المحلله وليس لضرتها التي سلبت حقوقها الملوكيه بمجرد مجيء المولود في عهد قريب

فلم يكن في وسع شجرة الدر تحمل تلك الاحوال ورؤية تحويل العظمه والمجد الى ضرتها . فطفح كأس غيظها وعلا لهيب غضبها وحنقها على ايبك عز الدين وقصدت التنكيل به

فدبرت طريقة لقتله وذلك انه في ٢٣ ربيع اول سنة ٦٥٥ هجريه امرت خمسة من الخصيان البيض ان يخنقوه . فترصدوا له في ذلك اليوم ووثبوا عليه وهو في الحمام وبعض المؤرخين يقول انه بينما كان ماراً بالدهليز السري الى باب الحريم وخنقوه بعمامته فارتاح لهيب قلبها بموته واستقدمت في الحال اثنين من الامراء وهما اكبر الامراء المماليك شأناً بعد ايبك وهما جمال الدين عضو غدى وعز الدين الحلبي وقالت لهما انه مات مصروعاً وطلعتهما على جثته وهي ملقاة على الارض واشاعت ذلك الخبر على الناس وفي انحاء البلاد وقد وهبت نفسها في الحال هي والمملكه ليد هذين الاميرين وانت لهما بخاتم الملك لانها لم تجسر على تولي الاحكام بنفسها خوفاً من الايقاع بها فرفضا بغلاظة قبول ذلك الشرف المخطر

وفي الصباح احتاط المماليك حرس ايبك بقصره وطلبوا الانتقام

من قاتله وكان سن ابنه نور الدين علي خمسة عشر سنه فبايعه الامراء المماليك ولقبوه بالملك المنصور وكان اول عمل قام به هو الانتقام لوالدته التي ترملت بقتل والده واستعد للاخذ بثار والده من قاتليه . فقبض على الملكة شجرة الدر التعيسة وسلمها لنساء بلاطه وامرهم بتعذيبها فانقضوا عليها كالوحوش وطفقوا يضربونها على رأسها بالقباقيب الخشبية حتى أماتوها والقوا جثتها في القفار التي تحت القلعه فاكلت الكلاب نصفها ولحق الناس النصف الآخر فدفنوه بالقرب من مدفن السيده نفيسه

واتفق في ذلك الحين اما سنة ١٢٥٧ او سنة ١٢٥٨ مسحيه ان سقطت احدى المسلات العظيمه الى الارض ولم يزل اثر تلك المسئله باقياً للان عند مدينة هليو بوليس القديمة في صحراء الجبل وتلك الجهة معروفه بعين شمس الآن بخط المطريه

ويغلب على الظن ان تلك المسلات العظيمه من صنع المصريين القدماء وعلاوة على متانة بناءها فانها كانت مبطنه من الخارج بطبقه معدنيه سميكه لانه قيل انهم استخرجوا من تلك المسله الساقطه مائتان قنطاراً من النحاس الاحمر ويقول المقريزي في تاريخه انهم وجدوا في قمة تلك المسله عشرة الآف قطعة من الذهب الخالص

ولو ان الاقباط لم يتمتعوا بدواعي الراحة والاطمئنان أثناء العشرين سنين الاخيره بعد وفاة كيرلس المرذول لان البلاد عانت متاعب جمه من كثرة تولي الملوك وسرعة قتلهم كما تقدم الا انهم لم يقعوا تحت

اضطهاد رسمي من حكام البلاد لان المماليك كان همهم محصور في نوال الملك ودس الدسائس بشأنه ولم يلتفتوا للاضطهاد الديني وفي اول احكام الملكه شجرة الدر توصلوا لانتخاب بطريرك جديد ليشغل الكرسي المرقسي بعد خلوه سبعة سنوات

فالبطريرك الذي انتخبوه بعد كيرلس المرذول هو رجل يدعى اثناسيوس تم انتخابه سنة ١٢٥٠ مسيحية واول ماتربع على كرسي الخلافه الرسوليه بذل مافي وسعه لاصلاح ما افسده سلفه . والحقيقة التي لاريب فيها انه شدد وضغط على الاساقفة الذين ارتقوا لتلك الوظيفة الكهنوتية بقوة المال كما كان مذهب كيرلس الوحيد ولم يكن ارتقاؤهم باستحقاق فعاملهم بقساوة عظيمه فمن الاقباط من استصوب تلك الصرامه ومنهم من استهجنها وعلى كل فان امر الحجر وهجر الايمان اصبح متوالياً بين هؤلاء الاساقفة والاقباط

ولما قتل ايبك وتولى ابنه نور الدين بدله صادق الامراء على تعيين شرف الدين هبة الله القبطي وصياً عليه ورئيساً لوزرائه كما كان مع أبيه وذلك الرجل اسمه القبطي الاصلي تادرس فأصبح تادرس رئيساً للنظار واتابكاً أي وصي الملك ونائبه ومهر داره وطبيبه الخاص . فاظهر كفاءة تامة لهذا المركز العظيم وذلك المنصب السامي من وجهيه السياسية والطبية . ولما كان قد هجر ديانته المسيحية جهاً في العلى وتوصل بذلك لهذا المنصب السامي كان من مبدأه التظاهر بحب المسلمين وكراهته للنصارى

ولتعزيزاً لمركزه ومبدأه قد ضغط على اخوانه الاقباط وضاعف الضرائب عليهم وفرض على أشخاصهم مكوساً سنويه ولكن فعله هـذا كان خفيا بطرق سياسية ولم يظهر ضغطه عليهم علنية

ولما كان المماليك لايهتمون بالسلام وتنظيم الحكومة في البلاد وكانوا دائما في مشاحنات فيما بينهم قامت بعد ذلك الحين بسنة ثورة عظيمة. فظهر شرف الدين (تادرس) في خلال تلك الثورة أكثر اخلاصاً لسيده الارضي الملك نور الدين أكثر من سيده الروحاني البطريرك فبذل جهده للدفاع عن الملك ولكن كان كل سعيه بلا جدوى فان احزابا من المماليك تآمرت على قلب عرش نور الدين فقبضوا على شرف الدين (تادرس) وسجنوه ثم صلبوه على باب القلعة ولاخلاصه في خدمة الملك أقاموا بدله سيف الدين قطوز وهو رئيس حزب الصالحيين زعماء الفارس اقطاي الذين كانوا فروا بعد مقتلة لسوريا. وكان استلام قطوز لمركز تادرس سلما للغدر بالملك نور الدين علي اذ أنه لما تربع في دست الصدارة العظمى استقدم اليه أعوانه المماليك الصالحيين من سوريا وعقد معهم مجلساً أقروا فيه بعدم لياقة الملك نور الدين علي للاحكام بالنسبة لصغر سنه فخلعوه في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٣ هـ بعد ان حكم سنتين وبايعوا سيف الدين قطوز بدله. فقبض على نور الدين وأمر بقتله.

وكان سيف الدين شريف الاصل من عائلة ملوكية ولقب بالملك المظفر ولما استوى على عرش الملك أمر بردم مصب النيل عند دمياط

ليمنع دخول مراكب الاعداء فيه. وفي خلال ذلك وافاه رسول تتري من قبل هولاكو ملك المغول بكتاب هذا نصه (من ملك الملوك الحاكم من الغرب الى الشرق أعظم الخانات هولاكو خان ملك المغول حفيد جنكيز خان القائد التتري المهول فاتح الفتوحات الغريبة صاحب الجيوش العديدة المستولي على مدينتي الموصل وحلب الفاتح لمدينة بغداد عنوة «سنة ٦٥٦ هـ» قاتل الخليفة المستعصم بالله العباسي الذي سقطت بموته الدولة العباسية ببغداد فتح دمشق وجميع السواحل البحرية — الى أهل مصر — اما بعد فبأهل مصر لاتلقوا بأنفسكم الى التهلكة بأقدامكم لمحاربتي فان فعلتم فانتم المخذولون فاقتدوا بغيركم من سكان حلب والموصل وسائر البلاد التي فتحتها فاسكنوا حتى أدخل بلادكم وأنتم آمنين

فارتاع قطوز وارتجف من قراءة هذا الكتاب ولكن شدده مشيروه ورجال جيوشه لانهم كانوا لم يزالوا ثملين بخمرة النصر على الصليبيين بجند جيشاً عظيما واستقدم اليه عربان البلاد كلها وشجعهم بتفريقه عليهم مع جيشه ستمائة الف دينار جمعها من زيادة الضرائب على نفوس المصريين وأملاكهم وعقارهم وسار من القاهرة يقود ذلك الجيش بنفسه لملاقاة ذلك الفاتح التتري المهول وكان ذلك في آخر شعبان سنة ٦٥٨ هـ. وقبل ان يلتحم الجيشان بالطريق بلغ هولاكو خبر موت ابيه فترك قيادة جيشه لسبيه كتبوغا فقام الحرب بين الطرفين وانجلت الموقعة بقتل كتبوغا وهلاك جيشه البالغ نحو عشرة آلاف من نخبة الفرسان وغنم المصريون

من تلك الموقعه مايغني كل الشرق وهو أثمن مانهبه هولاكو من فتوحاته ولو لم يمت والد هولاكو ما كان قد ترجح النصر للمصريين ولكن مصائب قوم عند قوم فوائد . فعاد الملك المظفر (قطوز) ظافرا بجيشه الى القاهرة ولكن داهمته المنية قبل ان يهنأ بالسعادة . وذلك ان بعض رفاقه تآمروا لقتله فانتهزوا فرصة اختلاءه وراء أرنب كان يصيده في الصحراء اثناء رجوعه حيث كان مغرما بالصيد وتقدم اليه أحد امرائه المدعو ركن الدين بيبرس البندقداري وتظاهر كانه يصافحه بعد عودته من الصيد فأمسكه بأحدى يديه بحجة تقبيلها وطعنه بيده الاخرى في قلبه فسقط صريعاً يتخبط بدمه على الارض وكان ذلك يوم السبت ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ ومات قطوز بعد ان حكم ١١ شهرا و١٣ يوماً .

فلما بلغ الخبر لاتابك قال (من منكم ضربه الضربة الاولى) قال بيبرس أنما هو — قال الاتابك — أنت الحاكم بدله . فبويع بيبرس في الحال ولقب بالملك القاهر وتشأم من ذلك اللقب فابدله بالملك الظاهر — وكانت القابه أيضا روح الدين — وبيبرس البندقداري (نسبة لسيده المدعو علاء الدين بندقدار) وابو الفتوح — والعكي — . وكان هذا الملك أول سلطان مملوك يستحق الاعتبار . وهو خامس مملوك غير شجرة الدر اختلس الملك ونال قوة عظمى . ارتقى بيبرس الاوربي الاصل الطويل القامة الحسن الطلعة أزرق العينين عرش السلطنة المصرية سنة ١٢٦٠ مسيحية (٦٥٨ هـ) وقد أظهر كفائته للاحكام ودل على حبه لرعيته فابطل

الضرائب الباهظة التي ضربها سلفه منها جباية دينار على كل انسان واخذ ثلث الشركات الاهلية التي كان يجمع منها ٦٠٠٠ دينار سنويا بحجة تصقيع الاملاك وتقويمها . وعدل الضرائب الاعتيادية بطريقة عادلة

واستقبل نجل خليفة بغداد أكرم وفادته عند التجاءه الى القاهرة بعد ان قتل التتر أبيه الظاهر بامر الله . وأعاد الحج من مصر الى مكة بعد ان قد كانت اهملت هذه العادة من مصر مدة اثنى عشر سنة ولما رفض حاكم مكة قبول دخول المصريين للحج وزيارة النبي قام الظاهر بيبرس بجيوشه مسرعا الى تلك المدينة وقتل ذلك الحاكم ووضع يده على كل تلك البلاد المحمدية المقدسة وادخلها تحت حيازة المملكة المصرية وعاد للقاهرة ظافراً بعد أن زار الكعبه وكساها وكان طريق المصريين للحج أن يركبوا النيل من مصر العتيقه حتى يصلوا البحر الاحمر فيعبروته ومنه يصلون الى مكة . اما السلطان بيبرس فسار اليها براً بجيشه عن طريق العريش فسوريا

وفي سنة ١٢٦٢ مسيحية سنة ٦٦٠ هـ أي سنة قدوم نجل الخليفة العباسي ومن معه الى مصر حل بها مجاعة فظيعة ففتح بيبرس مخازنه واهرائه وصار يقيت الآلاف من الجياع يومياً ولم يكتف بذلك بل اسرع لاستجلاب الاقوات من الخارج وانقذ بلاده في الحال من ذلك الخطر المهلك

وبعد زوال المجاعة احتفل بختان نجله باحتفال عظيم — وتصدق في

سبيل الله وشكراً له لمناسبة هذا الختان بان قام بنفقة ختن ستماية خمسة واربعين طفلاً من اولاد الفقراء وامر بختنهم في يوم ختن ابنه وكساهم بملابس جديدة وعمل لهم موكباً واحتفالا عظيما وكان حضور نجل الخليفة العباسي في هذا الاحتفال مما زاده مجداً وبهاء

ولما كان بيبرس مسلماً (١) حقيقيا لم يكن ينتظر منه العطف والميل للاقباط — ولكن لا يعلم أن كان ذلك لدواع سياسية أو لمكانته من الدين الاسلامي وبخلاف ذلك فانه كان شديد الاحتياج للمال لكثرة حروبه في سوريا وفي ذلك الوقت توفى البطريرك اثناسيوس . وكان يوجد اثنان احدهما يدعي يوحنا والآخر غبريال مترشحان للانتخاب للكرسي المرقسي وعدد اصوات منتخبيهم في المجمع المقدس كانت متساوية . ولكن اقر الاساقفة

(١) أن بيبرس كان مسلماً تقياً شديد الكره للموبقات ودواعي الفساد فمنع صنع البيره وقفل معاملها في جميع انحاء مصر وحرم بيعها تحريماً قطعياً وفعل ذلك في كل انواع الخمور واراق الموجود منها في الحانات وابطل المنكرات ومنع الفواحش في مصر والشام وسائر مملكته وحذر النساء من التعرض للبغا ونفى وحبس بعضهن حتى يتزوجون . وكتب بذلك امراً عمومياً يتلى على المنابر وكان عنده طواشياً اسمه شجاع الدين عنبر وهو من اخص امرائه فلما علم انه يشرب الخمر شنقه تحت قلعة الجبل . وكان في ذلك الحين اول عهدا كتشاف البن وشرب القهوة في بلاد اليمن ولم تدخل القهوة لبلاد الغرب الا بعد ذلك بثلاثة قرون فكثير من المسلمين المتعبدين في مصر وغيرها كانوا يحرمون ذوقها ولمسها ووضعوا البن في مصاف انواع الخمور

في الهيكليه بتميز غبريال على يوحنا فعمد الاخير الى رشوة الحكام المسلمين ليعضدوه في امر انتخابه بطريركاً ولما كانت حالة الكنيسة في ذلك الوقت في فتور ولم يكن الاساقفة المنتخبين (بكسر الخاء) ذوي غيرة ووطنية صادقة للكنيسة لم يعارضوا في مشروع يوحنا وانتخبوه بطريركاً واحتفلوا بتدشينه وحكم الكنيسة نحو سبعة سنوات . ولكن المال الذي دفعه يوحنا للحكام المسلمين نظير نواله ذلك المركز لم يكن كافياً ولم يسد مطامعهم

واتفق حصول حريقة عظيمة خربت معظم المدينة فاتخذوا المسلمون هذه الحادثة علة لاتهام الاقباط انهم المتسببون في حرق المدينة فالزموهم بدفع خمسين الف دينار فدفع الاقباط هذا المبلغ العظيم باسم اصلاح المدينة والحقيقة أن الحكومة صرفت ذلك المال على الحروب التي كان يقيمها بيبرس طول مدة حكمه

ولما كان الظاهر بيبرس غائباً في سوريا لمحاربة التتر تجارى اساقفة الاقباط على عزل البطريرك يوحنا واقاموا بدله غبريال بطريركا على الكنيسة لانه يستحق ذلك المركز نظرا لكفائته الشرعية وأحقيته بذلك المنصب عن يوحنا بناء على قرارهم في مجلس الانتخاب الاولي . ولما رجع بيبرس بعد ذلك بسنتين من سوريا رفع يوحنا مظلمته اليه واستأنف طلب مساعدته وكان عضد يوحنا الوحيد الاقوى هو المال — فاقامه بيبرس بطريركاً كما كان بالرغم عن معارضة الكنيسة والاساقفة . ولكن توفى غبريال سريعاً بعد اقالته وخلا الجو ليوحنا حتى مات . ولكن

الكنيسة القبطية رتبت اسم غبريال في جدول اسماء بطاركتها قبل اسم يوحنا اعترافاً منها بما يستحقه غبريال من التعظيم اكثر من يوحنا وذلك نظرا لافضلية الاول عن الثاني في المزايا والانتخاب الشرعي القانوني .

ولما رجع بيبرس من سوريا ظافراً منصوراً قوبل باعظم مظاهر العظمة والجلال بالقاهرة فزينوا له المدينة كلها باجمل زينة وفرشوها بالبساط والسجاجيد وساروا به في موكب حافل عظيم جداً أيد السلام في جميع انحاء القطر السوري بعد أن حارب التتر النازلين فيه وبدد شملهم وصارت في حكمه كل مدن بر الاناضول والبلاد التي كانت تحت حيازة الصليبيين وبلاد المسلمين العباسيين فاصبحت مملكته عظيمة جداً اذ بعد أن دوخ النوبة وبرقه وعمر الحرم النبوي وقبة الصخرة ببيت المقدس صارت سلطته تشتمل على مصر والنوبة وبرقه وسائر سوريا وبر الاناضول ومحيط جزيرة العرب . فصاحب تلك الفتوحات العظيمة ليس بعزيز عليه أن يقام له مثل ذلك الاحتفال بالقاهرة

وفي مدة بطريركية يوحنا ارسل امبراطور الحبشة اليه يطلب منه رسم مطران جديد لمملكته وظهر ليوحنا من خلال مطالعته كتاب(١) الامبراطور أن والده (أي والد الامبراطور) قد استقدم اساقفة يونانيين من سوريا وانه يرغب اعادة تتبع بلاده تحت سلطة الكنيسة المصرية الدينية

(١) هذه صورة كتاب امبراطور الحبشة الى البطريرك يوحنا

من النجاشي الاكبر ملك ملوك اثيوبيا . ملك صهيون واسرائيل الجالس على

وبذلت الكنيسة اليونانية حديثاً كل مساعيها لبسط نفوذها في مصر كما فعلت في الحبشة . اذ في السنين الاولى من حكم السلطان بيبرس أرسل له امبراطور القسطنطينية وفداً يطلب منه التصريح بانتخاب بطريرك للكنيسة اليونانية في مصر حيث كانت وقتئذ بلا بطريرك فأجاب بيبرس هذا الملتمس وانتخبوا رجلاً أصله طبيب عيون وأرسلوه الى القسطنطينية لسيامته بطريركا . ولكن لا يُعلم شيء في التاريخ عن هذا الرجل حتى ان اسمه اختلف في تدوينه الكتاب والمؤرخون اذ كل مؤرخ كتب اسمه بخلاف ما كتب الآخر

وفي ختام القرن الثالث عشر للمسيح وفي الغالب في زمن حكم الملك

عرش يهوذا أو سليمان . الى قداسة الاب الاقدس البابا يوحنا بطريرك الكرسي الاسكندري الذي احيه بالتجلة والوقار اللائقان بخليفة ماري مرقس البشير واثناسيوس .

اما بعد فالتمس اصغائكم الى كلامي واجابة طلبي . وهو اني ارغب أن تمدوني بمطران صالح ليعلمني وامتي منه كل ماهو حسن ونافع . واتوسل اليك ايها الاب أن تتبع وصية النبي داود التي وجهها اليك في مزاميره الآية (يا ابني لا تترك خيرافك تقع بين مخالب الذئب) فاننا نكره المطارنة السوريين المقيمين في الحبشة الان كرها شديدا ومن عهد دخول النصرانية الى بلادنا ونحن متتبعين وخاضعون لناموس البطريكخانه المصرية . ولم نتعود معاناة الالام زمنا مديدا من ممارسة هولاء الغرباء شؤون وظيفتهم الاسقفية بيننا ولو لم يتمتعوا بممارسة مهنتهم امامنا تحت حماية والدنا الذى لم يحميهم الا لعدم وجود مطران امامه من لدنك .

بيبرس وقع حادث يستدل منه على مقدار احترام وتبجيل الاحباش لبطريرك الاقباط بمصر

وتفصيل الخبر — ان تاجراً مصرياً كان قد أرسل مبلغاً وافرا من المال لعميله في الحبشة واتفق ان هذا العميل مات فارتبك ذلك التاجر ولم يعرف الواسطة التي يتوصل بها لاسترداد ماله . فالتجأ الى السلطان وهذا حوله على بطريرك الاقباط . فبث الرجل مظلمته للبطريرك الذي يغلب على الظن انه (يوحنا السابع) فتأثر البطريرك لأمر ذلك الرجل ووعده بمساعدته ثم كتب له كتاباً لامبراطور الحبشة يرجوه فيه

لكنت أنزلتهم الى الحضيض وطردتهم من بلادي فالان ايها الاب الصالح اتوسل اليك أن لاتسمح بخراب مملكتي التي تحت سلطتك وارسل لنا مطراناً صالحاً مدشناً ببركتك ويدك الطاهرة حتى أن الرب سيدنا يسوع المسيح يستمطر غيث بركاته القدوسه عليك . افتكر في القديس مار مرقس البشير وعاملنا بمبدأه فلا تتركنا للذئاب ولاتعاقبنا لاجل خطايانا . انتخب لنا مطراناً يمثلك في القداسة . أو أن كان هذا الامر ليس في يدك فاستأذن من سلطان مصر بذلك . ولما تمنحنا هذا الطلب تنال منا كل ماهو مرغوب لك . ولا تخف من ان اولئك الاساقفة السوريون سيستمرون في ممارسة مهنتهم بين ظهرانينا . وها نحن بين يديك اطوع لك من ظلك فان امرت بطردهم طردناهم وان شئت ابقاهم فالامر امرك ابقيناهم ولكننا نشعر بعدم رضاك على تصرفنا معهم وسير بعضنا تحت مشورتهم الدينية ولكن نرجو قداستكم التكرم والتنازل بالصفح عن خطأنا واغفر لنا خطايانا . وايضاً سامح ابناء وطننا العزيز ولتحل علينا نعمتك وبركاتك في الحياة والموت

ان يبذل جهده لارجاع المال لصاحبه

ولما أشيع في بلاد الحبشة ان كتاباً وصل من قداسة البطريرك بمصر اجتمع كل حكام الاقاليم وهرولوا للاستعداد لاستقبال الكتاب . والذي كان يحمل الكتاب اركبه الاحباش هو وأتباعه على ظهور الخيل . وكان سكان وحكام البلاد الحبشية التي مرّ عليها ذلك الوفد بالجواب يكرمونهم وحكام البلاد يضيفونهم ليلاً بمنازلهم ويقيمون لهم ولائم عظيمة حتى وصلوا عاصمة البلاد حيث استقبلهم فيها الملك نفسه بكل مظاهر العظمة والجلال وفي يوم الاحد احتشد القوم من امبراطورهم لفقيرهم في الكنيسة الكاتدرائية الكبرى وقرأ عليهم المطران جواب البطريرك واثناء قراءته الجواب كان الامبراطور واقفاً متخشعاً عاري الرأس صاغياً بوقار لكل حرف منه . وبعد قراءته اصدر امره في الحال باستحضار المال المطلوب للتاجر وسلمه الامبراطور بيده لمندوب البطريرك الذي جاء يحمل الكتاب وفوق ذلك حمله بالهدايا الثمينة وعاد ذلك المندوب ومن معه الى مصر مودعاً من الاحباش بمثل ما قوبل به من الحفاوة والاكرام

وبينما كانت افكار السلطان بيبرس وأنظاره متجهة نحو حروبه وفتوحاته في سوريا وآسيا الصغرى (الاناضول) تصرف ملك النوبة تصرفاً غير حميد بارشاد بعض رجاله الغير مخلصين وذلك انه اقدم على غزو اقليم اصوان وقام رجال جيشه بتلفيات وأضرار عظيمة في ذلك الاقليم فاستجلب بذلك التصرف نظر المماليك اليه . وقام امير قوص في

الحال للانتقام والاخذ بالثار وجرد حملة قوية وغزا بلاد النوبة وتوغل فيها حتى وصل لجهة اقليم دنقله وصار ينهب البلاد التي يفتحها ويمر عليها في طريقه واسر جملة اشراف نوبيين وبينهم والي اقليم نوبيا الشمالي . ولما رجع بيبرس الى القاهرة بعد أن فتح ارمينيا وقرض الباطنيين وغلب التتر قدم له امرأه هولاء الاشراف الاسرى علامة للظفر وتذكاراً لنصره بافتتاح النوبة . فعاملهم بيبرس بالقساوه الوحشية المعروفة عن المماليك حيث امر بقطع جسم كل واحد الى شطرين

وهكذا جاء تصرف داود ملك النوبة وبالاً عليه وعلى رجاله . ويظهر أن ذلك الملك كان غير محبوب من شعبه حتى انه في سنة ١٢٧٥ مسيحية (٦٧٤ هـ) قام شيكندر (١) ابن اخيه الذي كان ولي عهده ووارثه في الملك كاحكام النظامات النوبية والتجاء الى حكومة السلطان بيبرس وخان ايمانه ونسبه وخان وطنه اياضو بلاده للمسلمين وبالطبع سر بيبرس لهذا التقدم وهذه الفرصة المناسبة وارسل جيشاً عظيما تحت قيادة اثنين من كبار امرائه لفتح النوبة وكان ذلك الغزو بحجة تاييد حقوق الوراثة الى شيكندر في الظاهر ولكن الحقيقة كان الغرض منه ضم بلاد النوبة الى المملكة المصرية . فقابل النوبيون الجيوش المصرية الفاتحة وحاربوها بشجاعة عظيمة لكنهم هزموا اخيرا وتقدم الامراء المصريون بالجيش في انحاء داخلية البلاد وصاروا يقتلون ويأسرون كل من قابلهم في طريقهم والتزم

(١) يحتمل ان هذا الاسم تحريف اسكندر

والي الاقليم الجنوبي انه يخضع ويعترف بشيكندر ملكاً عليه بدل داود وسمح له بادارة حكومة البلاد . وكان داود قد جهز نفسه بجيش عظيم واتى لمقاومة الفاتحين فهزموه واسروا امه واخواته وفر هو من امام العدو ونجا بنفسه . ونودي بشيكندر ملكا لبلاد النوبة بدل داود بشرط خضوعه للشروط الاتية

اولا — أن يتنازل لسلطان مصر عن اقليم نوبيا الشمالي (وهذا الاقليم هو ربع بلاد النوبة والقسم الاعظم خصوبة في كل المملكة النوبية)

ثانياً — أن يعيد تقديم الجزية القديمة وهي اربعماية عبدا وهذه الجزية كانت قد تخلصت منها النوبة منذ اكثر من قرنين وكانت النوبة ترسل سنوياً لسلطان مصر المسلم عوض اوليك العبيد ثلاثة افيال وثلاثة ظرافات . وخمسة نمور مخططة ومائة هجين ومائة ثور

ثالثاً — أن يطلق كل الاسرى الذين اخذهم داود عند حملته حديثاً على اقليم اصوان

رابعاً — أن يرسل لسلطان مصر كل اموال وذخائر ومواشي الملك داود والاشراف الذين ماتوا في الحرب

خامساً — ان يقبل تأسيس وكالة سياسية في دنقله عاصمة البلاد ويقيم فيها النواب المسلمين عن حكومة مصر لمراقبة جمع الجزيه المستحقه للسلطان

سادساً — ان تهدم الكنيسه التي بناها داود السيء السياسة بقوة الرجال المسلمين الذين اسرهم بحملته على اصوان . واخذ الامراء كل

العطايا التي وهبها لها السلطان بعد بنائها وتقدر بثلاثة عشر الف دينار ومن ذلك الحين صار سقوط الممالك المسيحية في السودان الشغل الشاغل والمسئلة الوحيدة في ذلك العصر . كما ان جمع الرقيق للجزية المصرية أوجد الفوضى وفساد نظام الحكومة النوبية واسس الخصومات والحروب المستديمة بين قبائل النوبة ومقاطعاتها ولذا تعسر ايجاد حكومة قوية منظمه في السودان وابتدأت الممالك السودانية تسقط الواحده بعد الآخرى وكان سكان السودان معظمهم اقباط مسيحيون ولولا تلك النخاسه وجمع الرقيق الامر الذي كان سوساً ينخر في عظام تلك الممالك لكان ينتظر أن تتحد تلك الممالك المسيحية السودانية ضد المسلمين عوضاً عن ذلك السقوط الابدي لان وقوع القسم الشمالي من النوبة وهو اغنى واخصب اقليم في السودان في يد المسلمين المصريين مما أذهب كل امل بقيام تلك المملكة ثانياً سيما لعدم امكان اخراج المسلمين الذين توغلوا في داخلية البلاد . ولما وضع امراء بيبرس يدهم على ذلك الاقليم السوداني الجديد عاملوا اهاليه كعادتهم مع اهالي كل بلاد يفتحونها وهو انهم خيروهم بين اعتناق الاسلام أو دفع الجزية أو تجرع كأس الحمام فاختار الاهالي اخف الثلاث ويلات وهو دفع الجزية وصار كل ذكر يدفع ضريبة عن نفسه ديناراً واحدا كل سنة . ولم يحتل الجيش المصري مدينة دنقله الا سبعة عشر يوماً فقط اذ بعد أن اتم الامراء المعاهدة مع شيكندي ملك النوبة الجديد عادوا بجيشهم الى مصر تحت قيادة الامير اق سنقر

الفرغني سنة ٦٧٤هـ

وفي السنة التالية ترأس بيبرس حملة قوية وقام لسوريا وحارب برقه وافتتحها وأتفق عودة التتر الى بعض مناوشات على حدود سوريا بقصد افتتاحها فسار بيبرس بنفسه الى حمص لتأديبهم فمات في طريقه شهيد خرافاته

وكيفية ذلك انه اتفق خسوف القمر خسوفاً تاماً وكان عامة المصريين والذين يصدقون الخرافات يعتقدون أن ذلك الخسوف دليل على موت امير كبير أو حاكم أو ملك أو سلطان وكان بيبرس يعتقد مثل اعتقادهم . فتوهم أن هذا الحادث يدل على قرب موته ولكنه قال في نفسه (يجب علي أن اميت من اخشى أن يتولى الحكم بعدي ممن ليسوا على دعواي) فلم يجد امامه الا اميراً صغيراً هو داود ناصر الدين حفيد طوران شاه آخر سلطان كردي من سلالة الايوبيين فظن أن هذا الامير الصغير سيسمه فقصد أن يقلب ذلك التكهن ويغدر به ومهد التدابير ضد ذلك الشاب التعيس ليموت هو بدله مع انه بريء ولم يوجد اقل برهان أو بينة تدل على انه يقصد قتل بيبرس . فامر بيبرس باستدعائه ولما حضر امامه جالسه ثم ملأ له كأساً من السم الذي كان قد جهزه وامره أن يشربه فشربه المسكين بلاخوف ولا ارتياب وبدون تردد ثم خرج بيبرس من الغرفة وفي اثناء غيابه قليلاً اتفق أن احد خدامه الذي لا يعلم بسر الامر ولا بما فعله سيده ملأ هذا الكأس من مشروب سيده وكان لم يزل اثر السم في الكأس . فعاد السلطان ودخل الى الغرفة ثانياً ولكنه

كان مضطرباً ومتوعكا من حمى اصابته فتناول ذلك الكأس وشربه ولم يدر أنه الكأس الذى بقى فيه السم لذلك الشاب المسكين واثر السم الذي كان في الكأس كان كافياً لقتله فسقط الاثنان صريعى الجهل . ومات الامير ناصر الدين وبعد ساعة مات السلطان بيبرس وهكذا راح الاميران قتيلي الخرافات قبحها الله ما أضعف حجتها وما اشد وطأتها

وكانت وفاة الملك الظاهر بيبرس في ٢٧ محرم سنة ٦٧٦ هـ بعد أن حكم ١٧ سنة وشهرين وعشرة ايام وترك ثلاثة ذكور وسبع بنات وارشد اولاده السعيد محمد بركه خان وهو الذي ورثه في الملك وسلامش والمسعود خضر . وعلاوة على فتوحات بيبرس العظيمة في سوريا والسودان والاناضول وبحيث جزيرة الرهب فانه قام باصلاحات عديدة مهمة في مصر وسوريا لم تزل اثارها للآن تشهد بذلك اجيالا عديدة متهافي مصر ترميم وتقوية حصون دمياط ورشيد واسكندرية والقاهرة وبناء الاهراء والاشوان العظيمة للغلال في القاهرة وبناء وترميم القناطر والجسور وتقوية قناطر شبرا منت بالجيزة وترميم منارة رشيد وبناء قناطر السباع الممتده من فم الخليج الى القلعة وفي طرف تلك القناطر من جهة فم الخليج السبع سواقي وهي سواق قديمة كان غرضه منها رفع المياه من النيل ليجري في قناة فوق القناطر حتى يصل القلعة فيروي من فيها وعلى اطراف تلك القناطر آثار تماثيل حجرية بشكل السباع ولذا دعيت القناطر بهذا الاسم .

وحفر خليج (١) اسكندريه القديم وبحر اشمون طناح وطهر الترع والخلجان . ورمم واعاد بناء جوامع كثيره مشهوره وبني ايضا جامعاً جديداً في غاية الاتساع والفخامه في شمال القاهره في الميدان العظيم الذى في طريق العباسيه ولم يزل للآن هذا الطريق يدعى الداهر او الظاهر نسبة الي لقب السلطان بيبرس العظيم . ولما احتل الفرنساويون مصر حولوه الي قلعه من نحو مائة سنه وبعد مبارحة الفرنساويين للبلاد استعملته الحكومه المحليه مركزاً عسكرياً والآن يستعمل مخزناً لادارة المأكولات والملبوسات المختصة بالجيش الانكليزى واربعة حيطانه الباقيه الآن هي من بناية الظاهر بيبرس ويوجد كثير من النقوش الجميله لم تزل ظاهرة في شبابيكه . ولكن ذلك البناء الفخيم فقدت صبغته الدينيه من زمن مديد . وجدد بيبرس ايضا الجامع الازهر واعاد الخطبه فيه . وبنى بلدة السعيديه بمديرية الشرقيه وكان محباً لركوب الخيل ومغرماً بالرياضة البدنيه والتمرينات العسكريه ويقضي فيها معظم يومه وبنى لذلك ميداناً مخصوصا بين منزل القلعه وقبة النصر وكانت نفقاته مما يغنمه في حروبه بدون ان يثقل على الاهالى بدرهم

وقد اسس بيبرس مملكته على دعائم قويه واصبح عرشه ثابتا

(١) قيل ان السلطان ذاته كان يساعد الفعله هو وكل امرائه تشجيعا وتنشيطا لهم في العمل واعطي لهم مثالا حسنا في خدمة الوطن وعدم تعاظمه في مايؤول الى الفلاح والنجاح وذلك انه حمل مقطف تراب بيديه على مرأى من كل الواقفين مثل الاجير الحقير حباً في نفع وطنه وبلاده

لا ينازعه عليه احداً من المماليك ولذا آل الملك بعده الى ابنه برقه خان ولما مات بيبرس خاف الامراء من طمع الاعداء فحملوه سرا الى دمشق واشاعوا انه مريض وبعدئذ نقلوه للقاهرة في هودج ورحل معه جيشه لمصر ودفنوه في القلعه وبايعوا اكبر اولاده ناصر الدين برقه خان ولكنه بسبب تقلبات الظروف لم يدم الاخلاص لعرش انجال الظاهر اذ في بحر ثلاث سنوات قتل ولداه اللذين لم ينالا الا لقب سلطان بالاسم وملك احد الامرا المماليك المدعو سيف الدين قلاوون الالفي عرش مصر من بعدهما

الفصل الستون

فتح السودان مرتين

(سنة ١٢٨١ مسيحية و٩٩٧ للهجره و٦٨١ للشهداء)

بعد أن تولى برقه خان ابن بيبرس زمام السلطنه قام والي دمشق وادعي الملك لنفسه فقام برقه خان لاخضاعه فلما وصل بجيشه ونزل بالقصر الابلق الذي بناه ابوه الظاهر بيبرس اتضح له أن الثورة قامت بتدابير من امرائه فلما عاد لمصر واراد معاقبتهم امتنعوا بالقلعة فتكاثروا عليه وحاصروه ولما هموا بقتله منعهم الخليفة العباسي الحاكم بامر الله فخلعوه في ربيع اول سنة ٦٧٨ هـ بعد أن حكم مدة سنتين وثلاثة اشهر وحبسوه في القلعه ولما عزموا على قتله علم بذلك فسقط من على ظهر جواده ومات

فبايعوا اخاه سلامش وكان سنه سبع سنوات ولقبوه بالملك العادل وعين سيف الدين قلاوون الالفي وصيا عليه

فطمحت نفس ذلك الوصي الى الملك واراد خلع ذلك الملك الصغير وقد تمكن من تنفيذ بغيته ونفاه بقلعة الكرك واستقل بالاحكام فبايعه الامراء ولقبوه بالملك المنصور . وكان ذلك السلطان الجديد مملوكاً كباقي المماليك لا يعلم له اصل ولا بلد واطلق عليه لقب الالفي لانه لما كان مملوكا اشتراه سلطان مصر بالف دينار والتزم كعادة السلاطين الذين تقدموه أن يحارب لتأييد سلطته وحقوقه في سوريا ولكن اخمد الثورة التي قامت ضده بلا تعب كثير وبعد اخمادها في سنة ١٢٨٢ مسيحية (٦٨٢ هـ) تفرغ للتداخل في شؤون مصر والسودان ولكن كان ذلك التداخل في الاعمال لسوء حظ اهالي القطرين . وكان الاقباط في مدة حكم برقه خان (١) يتألمون من قساوة الاحكام والمعاملة الغير عادلة على أن قلاوون وان كان قد عدل الضرائب على رعيته واتبع مبداء المساواة

(١) في سنة ٦٧٨ هجرية رفت كل الموظفين الاقباط في ديوان الحربية وتعين بدلهم من المسلمين وكانت مسألة رفت الموظفين الاقباط كلهم صفقة واحدة من مراكز الحكومة يتكرر وقوعها مع كثير من الحكام المسلمين . ولكن دواعي الظروف كانت تلجيء اولئك الحكام أن يعيدوا هؤلاء الاقباط لوظائفهم ثانياً الى أن عاجلا أو أجلا واتفق أنه يوم صدور الامر برفت الاقباط من ديوان الحربية سقط بناء دير الخندق في ضواحي القاهرة فخرج خلق كثير من رعاع المسلمين ليكملوا هدمه

بين الاقباط والمسلمين . الا انه اسرع في استئناف التقييدات والمضايقات السخيفه على الاقباط وكانت عادة هؤلاء القوم البؤساء أن يقعوا تحت نير الاضطهاد من المسلمين كل ماغاب السلطان في الحروب مع انه لم يكن احد يستطيع من الحكام أن ينظر في شؤون البلاد الادارية الا الموظفين الدائمين من الاقباط والمسيحيين على وجه العموم اذ لم يكن في رجال الاتراك أو العرب الكفاءة التامة للقيام بهذه المهام ولما استقر المقام في مصر لقلاوون ولم تشغله الحروب الخارجية وتفرغ لشؤون مصر الداخلة كما تقدم تصرف فيها تصرفاً سيئاً اوجب سخط كل المصريين عليه من مسلمين واقباط فاراد ذلك السلطان الملوك كما هي عادة امثاله ان يعطي درساً مؤلما لرعيته نظير ذلك السخط فاطلق سراح جيشه من المماليك في مدينة القاهرة فعاثوا فيها فساداً ونهباً وقتلا مدة ثلاثة شهور ولم يتخذ الوسايط اللازمة لتمييز البريء من المذنب في هذا الشعب المسكين فاصبحت الشوارع انهاراً تجري فيها الدماء بدل الماء وازدحمت بجثث الرجال والنساء والاطفال واخيراً تعاون علماء المسلمين وتشجعوا على مقابلة السلطان وحذروه بالمواعظ والنواهي الدينيه وانذروه بالعقاب الالهي فنجحوا في سعيهم ولم يكتفوا باقناعه بحقن تلك الدماء البريئة بل توصلوا ايضاً الى حمل السلطان قلاوون على التكفير عن ذنوبه فتعهد لهم بان يبني مسجداً وبيمارستاناً عظيماً (اي مستشفى يقيم فيه المعتوهون الذين لا يبرأون) وندم ندماً لامزيد عليه على عسفه واستبداده ولم يبق من

تلك الابنيه الى الان الا القبر وبنى ابنه الجامع الذي يشغل جزءاً عظيماً من ذلك القبر . ثم أهمل ذلك المستشفى ، ولم يبق منه الا بعض خرائب واطلال متداعية للسقوط . فآثار السلطان قلاوون الباقيه الى يومنا هذا هي جامعه الشهير وفيه مقامه وكلاهما دخل في بنا البيمارستان كما تقدم ويراه الذي يمر من شارع النحاسين بالقاهره بعد ان يبارح خان الخليلي . ومع تعادي الايام وتعاقب السنين فان ابنيته لم تزل قويمة العماد تجلي فيها العظمه والقوة . ولعوام النسا المسلمات اعتقاد في هذا الجامع بانه يبرئ الاسقام فيحتشدن امامه يوم السبت باطفالهن بقصد الشفا من الامراض فبعضهن يضعن الطفل المريض تحت المحراب ويصلين وبعضهن يمسحن جدار المحراب بالليمون او ما يشابهه وبلحسه وغير ذلك من الخزعبلات والخرافات

ولحسن حظ البلاد المصريه تحولت اميال قلاوون من الاهتمام بامر حكومة البلاد الى مشغولية اخرى من جنسها . ذلك ان المماليك وقتئذ كانوا يلبسون لباس الزينة بما يناسب جمالهم وهيئتهم فامر قلاوون سنة ٦٨٣ هـ بتغيير ملابسهم وكانت مشغوليته في هذا الامر طول السنه سبباً لراحة البلاد مدة من الزمن وقد منع هولاء المماليك من استعمال الذهب والتزين بالوشي وعن استعمال الضفاير الطويله التي كانو يجعلونها في اكياس من حرير وجعل لباسهم قاصراً على شكل اللباس الحربي ثم زاد عدداً كثيراً منهم في الجيش ولكن كل المماليك الذين اشتراهم لهذا القصد كانوا من

الشراكسه لانه كان يعتقد انهم يصلحون للجنديه فجند منهم ١٠ ألف وجعل منهم بطانته وجيشه وذلك لعدم ثقته باخلاص المماليك البحريه وكان ذلك سبباً لخروج السلطنة من يد نسله مثل ماحصل للملك الصالح الايوبي ثم حاصر حصن مرقد مدة ٣٣ يوما حتي سلم وفي سنة ٦٨٤ هـ فتح قلعة الكرك وقبض على سلامش ثاني انجال بيبرس لانه كان يحاول الاستقلال عن مصر وسجنه في سجن مظلم ظل فيه حتي مات قلاوون

ولما ارتاح قلاوون من تنظيم داخليته اخذ يسعي في تشكيل وزارة مخلصة له فصار يعزل ويولي كثيراً من الوزراء حتى ان المؤرخين المعاصرين له لم يتمكنوا من حصر اسمائهم وأخيراً أقر على وزارة شمس الدين سنة ٦٨٥ هـ وفي سنة ١٢٨٦ مسيحيه (٦٨٥هـ) ارسل الملك عدود الذي كان يحكم اقصي جنوب السودان وفداً الى سلطان مصر يشكو له من تابعه الملك شكندر سلطان النوبه الجديد ولكنه لم يبين السبب الحقيقي في هذه الشكوى وفي الغالب ان تلك الشكوي كانت ناتجة من أغارة وغزو شكندر للمملكة الجنوبية للحصول على الرقيق حتى يتمكن من تسديد الجزيه السنويه المطلوبة للسلطان المطلق وهو سلطان مصر الذي سر لهذا الخبر واتخذه فرصة سانحه فأرسل مع سفراء الملك عدود ضابطا بصفته سفيرا وجاسوساً وسافر الجميع على هذه الصورة وكان الملك شكندر مترقباً عودة ذلك الجاسوس من الجنوب . ولو ان حرس ذلك الضابط والجاسوس المصري داروا به في طريق عودتهم الى الشمال دورة كبيره حتى لايمروا بطريق

دنقله مقر الملك شكندر ولكنهم مع ذلك التي القبض عليهم جميعا واحضروهم في دنقله . فامر شكندر باعدامهم في الحال ولكن اشراف حكومته ومشيريه عارضوا في ذلك معارضة شديدة واقروا على اعتباره مختل الشعور اذا اصر على ذلك الامر وافهموه ان السلطان قلاوون لايهمه موت رعايا الملك عدود ولكن قتل سفيره المسلم يتخذه حجة عظيمه لشن الغاره على بلاد النوبه التي هي مطمح انظاره

فلما أصر شكندر على عناده وصمم على تنفيذ امره خلعوه وولوا بدله شامون ملكاً عليهم وسمحوا للجاسوس المصري وحرسه ان يسافروا بامان الى مصر . ولكن ذلك لم يحول غرض قلاوون ولم يثن عزمه عن فتح النوبه فجند جيشاً عظيماً وارسله ليغزوها ولما علم شامون بذلك اتبع خطة واحده في حركاته الحربيه وذلك انه كتب الى نائبه في الاقليم الشمالي انه عند قدوم الجيوش الاسلاميه لا يقف في وجهها بل يخلي لها البلاد ويترك قليلاً من الجند طعمة للاسلام وبهذه الطريقة دخل المماليك المصريون بلاد السودان بلا حرب حتى وصلوا الى دنقله حيث كان ينتظرهم شامون للقتال فوقعت معركة بينهم وبينه هزم في آخرها ثم ولى الفرار الى الصحراء الى اقصى السودان فاختار المماليك ابن اخته واقاموه ملكاً على النوبه تحت شرط ان يكون خاضعا لسلطان مصر ثم عادوا الى مصر يحملون غنيمة عظيمه من قطعان الغنم والمواشي

ولم يكد يبارح المماليك حدود البلاد السودانيه حتى عاد شامون واستقبله

رعاياه بفرح عظيم وطرد ابن اخيه الملك الجديد الذي تعهد بالخضوع لسلطان مصر واقصاه الى خارج البلاد مع الحاميه المصريه التي تركها الامرأ المماليك في دنقله . فلما سمع قلاوون برجوع شامون الذي لم يكن منتظراً هاج هياجا شديداً وجهز حملة قوية لقهر بلاد النوبه وضربها ضربة قاضية . فجمع كل ما لديه من الريف (وهو لقب يطلق على جزء من الجيش المصري .)ورجال هذا النوع هم من الملكيين وليسوا تحت السلاح . وهولاء الرجال من المسلمين ويمتازون عن المماليك بطول زمن وجودهم في مصر حتى تجنسوا بالجنسيه المصريه واطلقوا علي انفسهم لقب المصريين

فبعد ان جمع قلاوون هولاء القوم استأجر معهم اربعين الف متطوعاً من قبائل العرب الضاربة في الاقاليم الشماليه وضم الى ذلك جيشه المنظم الذي يتألف من المصريين والمماليك والسودانيين وسار ذلك الجيش الخليط العرمرم زاحفا مرة اخرى لفتح بلاد السودان فوصل دنقله واقاموا فيها ملكاً جديداً اخذوه معهم من القاهره حيث كان سجيناً فيها وهو ابن اخت داود ملك النوبه الاسبق السيئ السياسه وكان هذا الملك الجديد احد امرأ ومشيري الملك داود فسقط اسيرا في يد المسلمين بسقوط عرش داود وظل سجينا في مصر حتى اتاح له الدهر ان يجلس على عرش الملك فلما اقامه المسلمون ملكاً على دنقله . استحلفوه يمين الطاعه والخضوع لسلطان مصر في وسط كنيسة دنقله الكبرى وتركوه

حاميه بتلك المدينه وعادوا الى القاهرة بعد ستة شهور . فلما بارحوا الحدود عاد شامون فظهر بدنقلة ثانياً وخضعت البلاد في الحال لامره وطردوا الحاميه المصريه الى حدود مصر الجنوبيه ولم يترك شامون هذه المرة ملك النوبيين الاسمي يتمتع بحياته بل قتله . فلم يقو قلاوون على تجنيد حملة ثالثه للنوبه ضد ذلك الملك المسيحي السوداني فحكم شامون على مملكة النوبه بسلام حتى مات

واوصى قلاوون بولاية العهد لابنه علي ولقبه بالملك الصالح الثالث واخذ يدربه على الاحكام ولكن خانه الدهر فتوفي عليا بحمي شديده سنة ٦٨٧ هـ فحزن ابوه عليه حزنا عظيما وكثرت هواجسه وكره الملك والاحكام ولم يعش بعد ذلك طويلا . وقد اراد ان يسلي نفسه فعزم على تسيير حمله بحرية لافتتاح طرابلس الشام وكانت في حوزة الصليبيين منذ مائة وثمانين سنه لم ينازعهم احد عليها ففتحها واعتراه جنون في اثناء الحرب بسبب حزنه على ابنه فلما اتم جيشه فتح طرابلس امر بذبح كل سكانها وهدم جميع ابنيتها وخربها عن اخرها ثم اعاد بناءها وترك فيها حامية مصرية وهذه الحمله كانت آخر كبائره وعاد بعدها بجيشه الى القاهرة حيث جاء وراءه قبل وفاته بقليل وفد من قبل اراغون الفونس ملك الصليبيين وعقدوا معه معاهده في ربيع الاول سنة ٦٨٧ هـ

ولكن ذلك الانتصار لم يؤثر على عواطفه وظل حزيناً كئيباً حتى قضى نحبه يوم السبت ٦ ذي القعده سنة ٨٨٦ فدفنوه في بيمارستانه ولا

يزال مقامه هناك حتى اليوم وكانت مدة حكمه ١١ سنه و٣ شهو
و٦ أيام

وبويع بعده ابنه الكبير صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشر
وبعد استلامه الملك بسنة اي سنة ١٢٩١ مسيحية (٦٩٠ هـ) جرد حم
قوية ضد الصيلبيين واخذ منهم مدينة عكا التي كانت الحصن الوحـ
الباقي بيد الصليبيين حصنوه تحصيناً عظيما ولكنه لم تقو على هجما
المسلمين فهزموه ودخلوا المدينة وقتلوا ونهبوا كل سكانها وعاد صلا
الدين الى مصر ومعه علامة النصر وهي مدخل احدى كنائس
الكبرى وهو موجود الى يومنا هذا بشارع النحاسين بالقاهرة وموضو
في مدخل جامع لاخيه نصر بن قلاوون وقد بنى هذا السلطان في مد
حكمه القصيرة السوق المشهور بخان الخليلي في السكة الجديدة بالقاه
الذي يتهافت السواحون على مشاهدته وهو مبني في موضع مدا
الخلفاء الفاطميين وبنى الغوري القسم العلوي منه كما يستدل من الكتا
التي على مدخله

ولما عاد إلى القاهره نفى سلامش للقسطنطينية لما عزي اليه مر
القلاقل ثم سار ففتح ارمينيا ونهبها واخذ مدينة ارضروم

وبعودته الى القاهرة ثانياً بعد ذلك النصر قام اضطهاد عظيم
الاقباط الذين اظهروا من آيات الصبر على المكاره اقل كثيراً مما
منهم في اي عصر من تاريخهم ولكن مهما كان مقدار خطأهم بالاجما

في العصور التي تقدمت فان اضطهاد .. ..رجت قوى بسالتهم الكامنه الى الظاهر وتمسكوا بتلك البسالة حتى يومنا هذا بالرغم عن ضعفهم والدليل على ذلك رسمهم (١) اشارة الصليب بالوشم في اجسامهم لكي يظهروا بكل قواهم عدم انكار ديانتهم المسيحية

ولكن من ابتداء عهد البطريرك كيرلس الثالث (داود المرذول) اعتري اخلاق المسيحيين المصريين صنوف التلف والفساد السريع اذ اصبحت حوادث الجحود وترك الايمان كثيرة متتابعة بعد أن كانت نادرة الوقوع حتي صار الاقباط الموظفين في دوائر الحكومة جميعاً من المسيحيين بالاسم كما تدل على ذلك حالتهم الراهنة في هذه الايام وقد أساؤوا استعمال السلطة المعطاة لهم كما سترى من اسباب هذا الاضطهاد

نشاء ذلك الاضطهاد بسبب مشاجرة وقعت في احد شوارع القاهرة وسببها أن قبطياً كان موظفاً بوظيفة قهرمان عند احد كبار الامراء المماليك وكان راكباً وقابضاً على رجل مسلم مديون لسيده الامير وكان هذا المديون ماشياً على الارض على مقربة من القهرمان القبطي وهو مكتوف اليدين الى ظهره وبينما هما سائران بهذه الحالة والناس مجتمعة حولهما طول

(١) هذا الرسم أو بالحري الوشم لايستعمل عند الاقباط في سن الطفولية بل عند مايكبر الابن ويصير عارفاً هذا الوشم ويقبله برضائه يسمح له والديه بذلك . وعند الاقباط ايضاً حديث قديم مؤداه ان البلاد المصرية ستتخلص يوما من نير الاسلام بواسطة قوة مسيحيي الجنوب (الحبشه) وان هذه العلامه أي وشم الصليب على اجسادهم سيكون واسطة تميزهم من المسلمين امام الفاتحين

الطريق يتفرجون على ذلك المسلم الذي صار اسير القبطي حتى وصلا أمام جامع ابن طولون فاحتشد حولهما خلق كثير من المسلمين واخذ كل واحد منهم يطلب من القهرمان(١) أن يطلق سبيل ذلك الاسير فلم يجب طلبهم

فما كان منهم الا ان التفوا حوله وجذبوه من أعلى جواده والقوه على الارض واتقذوا الاسير المسلم من بين يديه واطلقوا سبيله . ولحسن حظ هذا القهرمان أن هذه الواقعة جرت له بالقرب من بيت سيده الامير فانتهز هذه الفرصة وارسل خادمه للامير ليبادر الى انقاذه من ايدي المعتدين عليه فخرج الامير في الحال بشرذمة من مماليكه وعبيده وحرسه فخلصوا قهرمان الامير من ايدي ذلك الجمع المحتشد بعد أن فرقوا شملهم ضربا بالعصي . فصاح هولاء القوم (هذا ليس في شرع الاسلام ! هذا ليس في شرع الاسلام !) ثم اسرعوا ركضاً ووقفوا تحت القلعه يصيحون قائلين (الله ينصر السلطان ! الله ينصر السلطان !) فسمع السلطان ضجيجهم وارسل يستطلع حقيقة خبرهم فابلغوه ما كان من غطرسة وتشامخ القهرمان القبطي وهو يقود مديون سيده الامير الى آخر ماتم في هذا الشأن

فكتب السلطان صلاح الدين خليل في الحال الى الامير عين الغزال وهو سيد القهرمان القبطي يقول (كيف تسمح لرجالك أن يعاملوا المسلمين

(١) القهرمان لقب وظيفة عند الشرقيين هي بمثابة نائب أو مدير أو امين الخزينة أو وكيل الخرج

بهذه المعامله اكراماً لخاطر رجل نصراني) فردعين الغزال على السلطان يعتذر بعدم معرفة هذه الحادثه وانه عند وقوعها كان مشغولاً في ديوانه فارسل السلطان في الحال يبحث عن كل الذين في سراي عين الغزال وامر رجاله ان يستحضروا كل الاقباط امامه واستقدم ايضاً رئيس وزرائه الامير بدر الدين بيدر والامير سنجر الشجاي محافظ القاهره وامرهما ان يستحضرا امامه كل المسيحيين ليأمر بقتلهم ولم يخرج الاميران من حضرة السلطان قبل ان حرضاه على تنفيذ ذلك العزم وحملاه على اصدار الامر النهائي بذلك واطلق رجال الحكومه المنادين في القاهره ومصر القديمه بانه لا يسوغ منذ الان ان يبقى مسيحي او اسرائيلي في خدمة الامراء وامر السلطان امراءه ان يجبروا من بقي في خدمتهم من النصاري واليهود على اعتناق الدين الاسلامي فمن قبل من وكلائهم (قهرمانالتهم) المسيحين هذا الشرط يبقى في مركزه ومن يرفض تقطع رأسه في الحال وامر ايضاً الحاكم الامير بدر النائب ان يعامل موظفي الحكومه الاقباط هذه المعامله .

ولما صدر الامر بالقبض على الاقباط لقتلهم أمام السلطان اختفي كثير منهم في الكهوف والمغارات ولكن المسلمين كانوا يهجمون عليهم في منازلهم قبل هروبهم فيسوقونهم للقلعه بعد نهب ما في بيوتهم ولما عم امر النهب والسلب كل بيوت المسيحيين واليهود على السواء ولم يبق بيت واحد لم تصل اليه ايدي السالبين اخذوا يسبون النساء وقتل المسلمون بايديهم خلقاً كثيراً من الاقباط قبل وصولهم لموضع القتل امام السلطان فاستاً

الحاكم يدر النائب من هذا التصرف الجائر فصعد للسلطان في القلعه ولاطفه واثر عليه حتى أستصدر منه امراً اذاعه في مصر ومؤداه ان كل من ينهب بيت مسيحي لابد من اعدامه شنقاً امام ذلك البيت وقد قبض علي كثيرين من زعانف المسلمين الذين تمادوا في السلب والنهب وامر بضربهم وجلدهم بالسياط ودار وابهم في المدينه ليكونوا عبرة لغيرهم وبهذا الحزم وهذه المروءه التي اتاها ذلك الامير كف السلب والنهب ولكن بعد ان كانت قد نهبت كنيسة المعلقه في مصر العتيقه (بابلون) وقتل عدد عظيم من الاقباط البؤساء

ثم استحضر الحاكم عددا عظيما من قهرمانات (وكلاء) السلطان والامراء واوقفهم امام السلطان على بعد منه ـ فامر السلطان الشجر والامير جندار ان يأخذا موظفي الاقباط وينزلا بهم الى سوق الخيل تحت القلعه ويحفرا لهم حفرة عميقه ويلقونهم فيها احياً ويشعلوا النار في تلك الحفره . فاتي رئيس الوزراء الامير بدر الدين يتشفع لهم امام السلطان واخذ يتضرع اليه ليصدر عفوه فلم يقبل السلطان توسلاته وقال (انا لااود ان أبقي ديوانا مسيحياً في حكومتي) على انه لم يخرج الامير من حضرة السلطان الا بعد ان ابدل ذلك الحكم بحكم آخر وهو ان كل من يعتنق منهم الديانه الاسلاميه ويعفي عنه ويبقى في وظيفته ومن رفض منهم الاسلام فتقطع رأسه فقبل السلطان بذلك

ومن ثم خرج الامير ومعه هولاء القوم وذهب بهم الى بيت محافظ القاهره (مسكنه الرسمي) وصفهم امامه ووقف يخطب بينهم فقال (اعلموا

ياقوم اني لم يمكني التشفع لكم امام جلالة السلطان وطلب العفو عنكم منه الا على شرط واحد وهو هذا ان من يفضل منكم ديانته على الدين الاسلامي القويم فعقابه الموت اللئام . ومن منكم يفضل الاسلام على دين النصارى فيخلع عليه جلالة السلطان حلة شرف وينال محظوظيته ويعيش في عز ونعيم مقيم)

ولما فرغ الامير من هذا الخطاب تقدم المكين بن الشكاي احد روساء الحكومه وكاتمي اسرارها من الاقباط وقال يامولاي اي رجل مناذو منصب عال يفضل الموت عن اعتناق الدين القويم ؟ فقسماً بالله — ان الديانة التي يلزمنا ان نموت ونفني لاجلها — لم يكتب الله عليها سلامه !!

فاخبرونا — انت وجلالة السلطان — اية ديانه تريدون ان نتخيها

فتبسم بدر الدين وقال ياحضرة الفاضل وأية ديانه يلزم ان نتخيها غير الديانه الاسلاميه؟

وفي الحال دخل رجال التسجيل الشرعي وسجلوا اسمأهم باعتناقهم الديانه الاسلاميه وحرروا صك الشهادة باسلامهم فاخذها بدر الدين وتوجه في الحال الى السلطان ومعه هولاء المستسلمين فخلع عليهم السلطان حلل الشرف الثمينه وخرجوا الى ديوان الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن سيلوس فطلب احد الموجودين عند الوزير من المكين ابن شكاي ان يأخذ رقعة من الورق وامره ان يكتب عليها هكذا (سيدنا القاضي — اكتب على هذه الورقه حجة اسلامي) — فاجابه القاضي قائلا يابني ليس لنا ان نبت في هذا الامر) فلم يخرجوا من ديوان الوزير حتى المسأ فحضر الحاجب وقادهم جميعاً

الى ديوان المحافظة حيث كان كل قضاة الاسلام مجتمعين — فوقف هولاء الروساء الاقباط امام القضاة وجددوا اعترافهم باعتناق الدين الاسلامي

وهكذا تغيرت الاحوال وبعد الذل والهوان اصبحوا باعتناقهم الاسلام في احترام ووقار واخذوا يهينون المسلمين ويحتقرونهم بعد ان تربعوا في دست وظائفهم الاولى فضغطوا عليهم بشدة الى درجة لم تكن الديانه المسيحية تسمح لهم باتباعها (١) لانهم لما كانوا من المسيحيين لم يكونوا يتجاسروا ان يضغطوا على أحد من المسلمين اما وهم الان من المسلمين فقد اطلق لهم العنان واصبحوا احرارا في كل ما يفعلون

ووقع السلطان صلاح الدين في ما وقع فيه من تقدمه من السلاطين المماليك بعد الحوادث المتقدمه بقليل اذ ان احدى نسأه تواطأت مع مملوك له يدعى بيدرا فقتلاه بخنجر في شهر محرم سنة ٣٢٦ هـ بعد أن حكم ٣ سنوات وشهرين و٤ أيام وذلك على أمل ان يخلفه ذلك الامير القاتل في ملكه

فبويع بيدرا ولقب بالملك القاهر ولكن مماليك قلاوون اخذوا بثار سلطانهم فقتلوا بيدرا في اليوم الثاني ولم يتمتع بلقب سلطان الا يوما واحدا وبايعوا بعده اخو الملك الاشرف المدعو محمد وهو ثاني انجال قلاوون وكان سنه تسع سنوات ولقبوه بالملك الناصر على ان يكون سلطانهم الاسمي فقط نظرا لصغر سنه وسلموا مقاليد الاحكام الى وصي عليه منهم يدعي زين

(١) نقلا عن المقريزي (ترجمة مالان المؤرخ الفرنساوي)

الدين كتبوغا الملقب بالمنصوري لانه كان من مماليك الملك المنصور قلاوون ولما ولي الاحكام تاقت نفسه الى الاستقلال بالسلطنه فقتل امم خصم له وهو احد المماليك الذي كان وزيرا واسمه علم الدين سنقر وخلع الملك الناصر الطفل وسجنه في قلعة الكرك وخلاله الجو فنادي بنفسه سلطانا وكانت مدة حكم الملك الصغير سنة واحده فقط

اغتصب كتبوغا الملك فبايعوه في محرم سنة ٦٩٦ هـ ولقب بالملك العادل مثل لقب سلامش ابن بيبرس الاول واستوزر فخر الدين ولكن تراكمت المصائب على البلاد في بحر السنتين اللتين حكم مصر فيهما حيث تفشي الطاعون والقحط على ايامه واهلك خلقا كثيرا من السكان واحتلت البلاد طائفة الاويراتيه فأحدثت مشاكل كثيره في مصر وتكاثرت في البلاد ووقعت مخاصمات بينهم وبين الامرأ كانت سببا في خلع الملك العادل كتبوغا في صفر سنة ٦٩٦ هـ وبويع بعده مملوك اخر مثله يدعى حسام الدين لاجين المنصوري ولقب بالملك المنصور مثل سيده قلاوون و كان من اصل جرماني فقتل زعماء طائفة الاويراتيه وبدد شمل الباقين منهم ونفى كتبوغا الى البلاد السوريه واستولى على ريع الاقطاعات التي كانت مخصصه للجند وهي نحت تصرف الامراء فحقدوا عليه وقتلوه في ١١ ربيع اخر سنة ٦٩٦ هـ ولم يحكم الا مدة سنتين مثل كتبوغا

وظل كرسي السلطنه خاليا نحو اربعين يوما لما وقع بين المماليك من التخاصم والتحاسد على الملك فتمكن احد المماليك المدعو الامير سيف الدين طقجي

من دعوة الناس الى حزبه فبايعوه ولقبوه بالملك القاهر مثل بيدرا فكان حظه مثله تماما اذ قتله الامرأ بعد ان تمتع بالملك يوما واحدا كما فعلوا مع سميه ثم اتحد المماليك واقروا على استدعاء الملك الناصر من منفاه وكان قد بلغ عمره ١٥ سنة فارسلوا اليه وفدا في قلعة الكرك وكانت امه معه فلم تسمح بسفره مع الوفد خوفا من ان المماليك ربما كانو يقصدون اغتيال حياته تحت هذه الخدعة فاكدوا لها صدق دعوتهم وجثوا امام ابنها وبايعوه فتأكدت من اخلاصهم فجاؤوا به الى القاهره وقد اراد احزاب لاجين ان يقتلوه فهددهم الامراء والزموهم ببايعته فبايعوه وحكم نصر ابن فلاوون مرة ثانية على مصر فلما استتب له الملك حارب التتر ثانية في سوريا سنة ٧٠٠هـ وبعد ان ضربهم ضربة قاضية عاد ظافرا ودخل القاهره من باب النصر باحتفال عظيم

وعلى اثر عودته رأى ان قبائل العربان في مصر قد شقوا عصا الطاعة فجرد عليهم جيشه وهزمهم واغتنم منهم خمسة الاف فرس ومائة الف رأس من الغنم و٣٠ الف من البقر والجاموس غير الاسلحه والمعدات الكثيره

نظره عمومية

وفي أثناء حكم الملك الناصر ابن فلاوون للمرة الثانية ذاقت البلاد عذابا اليما وصادفتها ظروف مرة بسبب معاكسة الطبيعه من جهة وضغط الاحكام الظالمه من جهة اخرى (١) . ومما حدث عن هذا القبيل . ان اثناسيوس بطريرك

(١) في اول سنة من حكم الملك الناصر ثاني مره هطل مطر غزير جدا من سفح جبل المقطم فخرب القبور وملأها بالماء

الكنيسه اليونانيه في مصر هجر مركزه وهرب للقسطنطنية ويوحنا بطريرك الاقباط توفي في السنة التي اختلس فيها كتبوغا عرش الملك واسلفه على الكرازه المرقسية ثيودوسيوس والذي نعرفه من امره أنه كان فرنجيا وربما كان من سلالة اسرى الفرنسيس الذين أخذوا ايام غزو سنت لويس ملك فرنسا وفي مدة الست سنوات التي قضاها على الكرسي الرقسي ارتاح الاقباط فيها من اضطهاد المسلمين ولكن خبأ لهم الدهر اياما اردأ وظروفا انحس مما مر عليهم بكثير فمن المصايب الطبيعية انه تفشى الطاعون البقري(١) والادمي والقحط والزلازل(٢) ومات مئات من السكان والوف من الماشية وقد عزى الملك الناصر ابن فلاوون حلول المصائب وتراكم الارزأ على بلاده في اول سني حكمه الثاني الى المسيحيين من سكان مملكته لتصرفهم الغير مرضي ولكن هذه حجة واهية وربما كان يقصد بذلك تشاؤمه من وجودهم في سلطنته كما وسوس اليه قاضي قضاة الاسلام الذي كان ابن احد المسيحيين وقد ترك دينه واعتنق الاسلام فارتقى لهذا المنصب وكان يكره الديانه المسيحيه

(١) في تلك السنة أزدادت وطأة طاعون الموشي في مصر فلم يبق منها الا العشرات والدليل على ذلك از احد اهالي اشمو طا كان يملك الف وواحد وعشرين رأس من الماشية فلم يبق له منها الا ثمانية عشر فقط

(٢) حدثت في الشرق زلزلة قوية سنة ١٣٠٢ مسيحيه خربت معظم بلاد سوريا ومصر وفاضت مياه الابار والانهر على سطح الارض وغرق خلق كثير . وسقط سيل جارف ومطر غزير من سفح جبل المقطم فخرب القبور وامتلأت بالمياه وغرقت كل المنازل التي تحت الجبل بمن فيها

كرهاشديداً فكان يحمل على المسيحيين ودينهم ولا يترك فرصة للايقاع
وبالاجمال فان اول سني الحكم الثاني للملك الناصر كانت اشأم وا
السنين بل واكثرها حزناً وويلاً من كل السنين التي تقدمتها في تاريخ الكني
القبطيه المصريه

وسترى في فاتحة فصول الجزء الرابع ما مر على الاقباط وكن
من صنوف العذاب والخراب

تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع

كتاب

تاريخ

الامة القبطية

(وكنيستها)

تأليف السيدة ا . ل . بتشر الانكليزية

المجلد الرابع

ثمن جميع المجلدات اربعون غرشا صاغا

طبع على نفقة صاحب جريدة مصر سنة ١٩٠٧

طبع بمطبعة مصر بالفجاله